د. محمد حسين هيكل

تراجم
مصرية وغربية



تراجم
مصرية وغربية

كليوباترا — محمد قدرى باشا — قاسم أمين بك

إسماعيل باشا — بطرس غالى باشا — إسماعيل صبرى باشا

توفيق باشا — مصطفى كامل باشا — محمود سليمان باشا

بتهوفن

تين

شيكسبير

شلّى

تراجم
مصرية وغربية

الدكتور محمد حسين هيكل



دار المعارف

إهـــداء

إلى صديقى

الدكتور حافظ عفيفى باشا

تقديراً لما كان لصداقته من فضل فى إقدامى على كتابة كثير من فصول هذا الكتاب .

هيكل

مقدمة

يحتوى هذا الكتاب على نوعين من التراجم . فأما أولها فيتناول تراجم مصرية لرجال هذا العصر الأخير منذ ولاية الخديو إسماعيل باشا الحكم إلى وقتنا الحاضر ، خلا ترجمة لكليوباترة كتبت قبل أن تكتب هذه التراجم جميعاً . أما سائر التراجم المصرية فنشرت فى « السياسة الأسبوعية » حين كانت تنشر فيها فصول رجال التاريخ الحديث فى مصر ، اللهم إلا ترجمة محمود سليمان باشا فقد كتبت لمناسبة وفاته ، وترجمة عبد الخالق ثروت باشا فقد كتبت ولم تنشر فى غير هذا الكتاب . وربما كانت الترجمة لرجل كثروت باشا عاش بين أظهرنا وكان له دور فى حياة مصر فى أثناء وجودنا ، مما يتعذر أداؤه بما تقضى به الدقة التاريخية وما توجبه من تمحيص ونقد . وكنت أنا شاعراً كل الشعور بهذه الدقة فى أثناء كتابتى هذه الترجمة . لكنى إنما تخطيت هذه الاعتبارات لأنى أردت أن أضع أمام القارئ صورة ، ولو

تقريبية ، لحياة مصر السياسية فى هذا العصر الأخير. ومادمت قد بدأت هذه الصورة منذ عصر إسماعيل باشا الخديو ، فقد رأيت واجباً إتمامها إلى آخر عصرنا الحاضر. ثم مادمت بدأتها بترجمة بعض من كان لهم فى حياة مصر السياسية أثر ظاهر فمن حق ثروت باشا أن يكون ختام هذه السلسلة من عظماء الرجال الذين تناولت ، على أنى رأيت أن أقف فى ترجمته عند الوقائع الثابتة وأن أتجنب المغامرة فى الفروض والظنون ، حتى لا يتعرض ما أكتب عنه لنقد يفسده وإن أمكن أن يظهر فيه نقص كثير.

فأما النوع الثانى فيتناول ترجمة بتهوفن ، وتين ، وشكسبير ، وشلى ، من كبار رجال الغرب . وهؤلاء إنما ترجمت لهم لمناسبات خاصة ، ولأنى أحببتهم منذ زمان طويل حبًّا جمًّا . فلما كانت مناسبات كمرور مائة عام على موت بتهوفن أو على مولد تين أو نحوهما من المناسبات ، رأيت واجباً علىّ لهذا الحب الذى أضمر لأولئك الرجال ، حبًّا يعادل ما أفدت من آثارهم وما حققت لى من معانى السرور بها والطرب لها ، أن أثبت صورة هذا الحب بإثبات صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى منهم .

ولم يكن الاسم الذى وضعته للكتاب هو الذى دار من أول الأمر بخاطرى . فإن كلمة « تراجم » تقتضى تناول جوانب حياة المترجم له بتدقيق وتوسع أكثر مما عالجت أنا فى هذه الرسائل . فأنا لم أتناول ، أغلب الأمر ، إلا ما اعتقدته الناحية الغالبة فى حياة الشخص ، والتى كان لها فيه الأثر البالغ . وأنا قد تناولت هذه الناحية فى إيجاز جعلنى أختار فى نفسى اسماً للكتاب تؤديه الكلمتان الإنجليزيتان (Biographical Sketches) . على أنى بعد البحث مع أصحابى لم أهتد لعبارة عربية سائغة لأن تكون عنواناً للكتاب تؤدى هاتين الكلمتين أداء دقيقاً . وفكرت وقتاً فى أن أجعل عنوانه (من صحف التاريخ) . وأشار على صديق بأن أجعل

العنوان (ملامح) . ثم انتهيت إلى هذا العنوان الذى ظهر الكتاب به . فإذا كان فيه شيء من الادعاء فليس الذنب فى ذلك ذنبى وإنما هو العجز عن أن أجد المقابل الصالح للصورة المضبوطة التى تعبر تعبيراً صادقاً عما فى الكتاب .

وكم وددت لو أنى استطعت أن أجعل الكتاب كله تراجم مصرية صرفة ، بل لو استطعت أن أظهره فى عدة أجزاء تصل التراجم فيها بين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة إلى وقتنا الحاضر. فما أشك فى أن كتاباً كهذا يمكن أن يكشف من تاريخ مصر عن صلة عصورها بعضها ببعض وعن جهود المصريين المتصلة منذ أول التاريخ إلى عصرنا الحاضر فى سبيل الحق والحرية والعرفان . على أنى أعترف بأن عملا كهذا مما لا يطيقه شخص وحده ، ومما لا أطيق أنا بنوع خاص . فإننى لم أتخصص فى التاريخ ولم تمل بى حياتى العملية نحوه إلا بمقدار . ثم إن تاريخ مصر فى مختلف عصورها ما يزال مبعثراً فى أطواء الكتب القديمة ، لم يعن أحد ، ولم تعن الجامعة المصرية نفسها ، بالكشف عنه كشفاً علميًّا صحيحاً وبتدوينه على طريقة تجعله عذباً سائغ المورد لمن يشاء أن يصل إلى الحقائق فيه من غير أن تصده الطريقة السيئة أو اللغة المضطربة أو القصد السيئ . وإذا كنت قد وقفت على تاريخ مصر بشيء من الدقة فى العصور الأخيرة فذلك حين كتابة رسالتى للدكتوراه فى القانون عن «دين مصر العام» . فقد اضطرنى ذلك إلى الانقطاع لدراسة التاريخ الحديث منذ عهد وإلى مصر سعيد باشا والإكباب على هذه الدراسة شهوراً متوالية وتدوين الملاحظات والوقوف عند الأشخاص الذين كان لهم فى حياة مصر السياسية فى أثناء هذا العصر الأخير دور خاص . ولا يزال كثير مما وقفت عليه فى أثناء مطالعاتى ثم لم تقتض حاجة رسالتى تدوينه بها عالقاً بذهنى ممثلاً أمام خيالى صورة مصر منذ أيام محمد على وصور الكثيرين ممن لعبوا دوراً خاصًّا فى حياتها . فأما قاسم أمين فقد عنيت بقراءة كتبه وكل ما كتب عنه مذ كنت فى مدرسة الحقوق بمصر ، فتكونت

فى نفسى منه فكرة أحسبها دقيقة غاية الدقة . وأتاح لى اشتغالى بشئون مصر السياسية فى السنوات الأخيرة أن أضبط صور من ترجمت لهم من هؤلاء جهد ما واتتنى به الطاقة .

وإن كتاباً كالذى أشرت إليه حاوياً تراجم أكابر رجال مصر فى عصورها المختلفة منذ الفراعنة إلى اليوم ، يكون لا ريب جليل الأثر فى تكوين صورة تاريخية لهذا الوادى الجميل الذى نعيش فيه ، صورة تظهر اتصال الحياة على ضفاف نهره المبارك منذ أقدم الأزمان إلى وقتنا الحاضر. ثم إن مثل هذا الكتاب ليدل دلالة كبرى على بطلان الصورة الزائفة التى يضعها مؤرخو الغرب لتاريخ مصر. فالواقع أن تاريخ بلادنا لم يصغه حتى اليوم مؤرخ منصف على طريقة علمية صحيحة ، اللهم إلا ما تعلق ببعض جوانب العصر الفرعونى من عصوره . فأما ما بعد ذلك من عصور فقد شوهه الساسة الأجانب لمآربهم الخاصة منذ القدم : شوهه العرب الذين خلفوا الرومان فى مصر ، كما شوهه نابليون حين قدومه بالحملة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر ، ثم كان لكتاب الإنجليز بعد ذلك النصيب الأوفى من تشويهه تشويهاً قائماً على ذلك الأساس الاستعمارى من أن شعب مصر قد ظل محكوماً منذ انتهى عهد الفراعنة بأمم أجنبية عن مصر ، بالفرس ، ثم اليونان ، ثم الرومان ، ثم العرب ، ثم الترك ، ثم الإنجليز ، وشعب هذا شأنه ، فيما يدعون ، لا يعرف لنفسه عليه كرامة يضحى فى سبيلها ولا يقدر للعزة القومية معنى يثور من أجل تحقيقه . وما يزال هذا التاريخ هو ، مع الكثير من الأسف ، التاريخ الرسمى الذى درّس لنا ويدرّس اليوم لأبنائنا . هذا ، على أن التاريخ الصحيح والتراجم الحقة تنادى بكذب هذه الصورة من حياة مصر على تعاقب الأزمان وببطلانها .

ولست واثقاً من أن تمكننى الفرص من الرجوع إلى تواريخ هذه العصور القديمة وإلى تراجم الرجال الذين عاشوا فيها ، لأثبت حينئذ فى شىء من التفصيل أن تاريخ مصر جدير بأن يفخر المصريون به أكثر مما يفخر غيرهم من أبناء أية أمة أخرى

بتاريخها . لذلك أسارع فأنتهز فرصة نشر هذا الكتاب المشتمل على تراجم بعض رجال مصر فى العصر الأخير وعلى ترجمة كليوباترة خاتمة عهد البطالسة فى مصر ، لأبين زيف الصورة التى يصورها الساسة الاستعماريون ، ولأظهر القارئ فى كلمات موجزة كيف دل ماتداول على مصر من ألوان الحكم على أن شعبها أعرق الشعوب حرصاً على قوميته وأكثرها تضحية فى سبيل الحق والحرية والعرفان .

على أنى قبل أن أعالج هذا البيان أود أن أثبت للحقيقة أن بعض الذين أرخوا مصر من أهل الأمم المختلفة كانوا حسنى النية ، ولكنهم خدعوا بتمويه الساسة . وما أشك فى أنهم متى اطلعوا على هذه المقدمة الوجيزة سيعودون إلى الحق يقررونه وسيعترفون لمصر بمكانتها التاريخية السامية .

ولعل ما خدع به هؤلاء المؤرخون الحسنو النية هو ما تواضع عليه الكتاب من تبويب تاريخ مصر عصوراً أطلقت عليها أسماء أمم غير مصرية . فمن بعد العصر الفرعونى يذكرون عصر الفرس ، ثم العصر اليونانى ، ثم العصر الرومانى ، ثم العصر الإسلامى أو عصر العرب ، ثم عصر الترك ، ثم العصر الأخير عصر الاحتلال الإنجليزى ، وتبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه أن يدعو إلى الخطأ وسوء التقدير من جانب من لا يكلفون أنفسهم مؤونة البحث فى التفاصيل بشىء من الدقة . والواقع أن هذا التبويب خاطئ فى أكثر مناحيه . وإذا كان صحيحاً أن الحكام الذين تولوا أمر مصر فى عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها ، إلا إذا اعتبرنا قيام ملك كملك الإنجليز على رأس أكبر إمبراطورية فى الوقت الحاضر ، مع أنه من أصل غير إنجليزى ، دليلاً على أن إنجلترا والإمبراطورية البريطانية كلها خاضعة للأمة التى يرجع إليها دم مليكها . وهذا لغو من القول ، كما أن ادعاء خضوع مصر لأمم أجنبية عنها هى التى يرجع إليها أصل حكامها لغو مثله . وليس هذا المثل الذى

ضربنا بالمثل الفرد ، فنابليون إمبراطور فرنسا كان من كورسيكا ، أى كان أقرب للإيطالية منه للفرنسية . وأكثر الملوك الباقين على عروش أوروبا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التى ملكتهم عليها . وليست هذه الشعوب لذلك أقل حرية واستقلالا وعظمة مما كانت مصر فى أكثر العصور التى تعاقبت عليها .

ولنعد الآن إلى تاريخ مصر نفسه . فالكل يعترف لمصر الفراعنة بأنها كانت أمة عزيزة الجانب مضيئة الحضارة على نحو لا يمكن أن تتسرب إليه الشبهة مع قيام الآثار القديمة شاهدة به محدثة عنه بأقوى عبارة وأفصح لهجة . مع هذا فقد منيت مصر الفراعنة بغزو الرعاة الهكسوس إياها مدة استمرت نحو تسعين سنة حتى استرد المصريون تاج بلادهم سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد . وظلت مصر من بعد ذلك متحكمة فى البلاد المجاورة لها ممتدة السلطان على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفيه روما واليونان ، إلى أوائل القرن السابع قبل الميلاد . هنالك كانت الحضارة الإنسانية على ضفتى النيل قد بلغت من الرقى والترف ما تشهد به الآثار التى ترى أعيننا شيئاً منه . وهنالك بدأت آشور ، ومن بعدها فارس ، تفكر فى غزو مصر . ومع غلبهم إياها ودخولهم عاصمة ملكها غير مرة فإنهم لم يستطيعوا الاستقرار بها وتولى الحكم فيها إلا فترات قصيرة انتهت فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

قبيل هذا التاريخ نشأ فى شمال اليونان فليب المقدونى وخلفه من بعده الإسكندر الأكبر . وكانت الطبيعة قد وهبتها ، ووهبت الابن بنوع خاص ، من المقدرة فى القيادة الحربية ما يدخل فى باب المعجزات ، وحيث يظهر فى الناس نصف إله فى الحرب أو فى الدين أو فى السياسة ترى العالم كله يتطلع معجباً مسحوراً . وقد دوخ الإسكندر روما وآشور والفرس ووصل إلى الهند ، ولم تكن أمة من الأمم تستطيع مقاومته . أما أمم أوربا الغربية والشمالية فكانت فى تلك الأيام فى حال من الهمجية أشبه بحال أواسط إفريقية اليوم مما يجعلها نكرة على التاريخ ولا يجعل لأية مقارنة

بينها وبين غيرها محل . وجاء الإسكندر إلى الشام ففتحت أمامه مصر أبوابها فى سنة ٣٣٢ التى أشرنا إليها ، لأنها رأت فيه مدوخ الفرس ، وكانت بينها وبين الفرس عداوة أشد العداوة . وبقيت مصر فى حكم الإسكندر ، وإن شئت فى حكم اليونان تسع سنوات ، إذ مات الإسكندر فى سنة ٣٢٣ ق . م . ثم اختلف قواده من بعده فيما بينهم ، وكان بطليموس بن لاجوس من أقدرهم ومن أعرفهم بمصر وأشدهم حبًّا لها . وإذ كانت مصر بحاجة إلى رجل ذى مواهب حربية ممتازة يستطيع أن يصد بقواها عدوان من يحاول الاعتداء عليها ، فقد اطمأنت إلى بقاء بطليموس مستقلا بها مستقلة هى به . وحدث ما أراد المصريون من ذلك . فإن هذا البطل من قواد الإسكندر جعل الإسكندرية قاعدة له ومنها حارب الآشوريين والفرس وحارب اليونان أنفسهم ، ووطد لمصر سلطاناً أعاد لها ولحضارتها عز الفراعنة الذى اضطرب وتزعزع خلال القرون الثلاثة التى سبقت ولايته عرش إيزيس وأوزوريس . ومع أن بطليموس الأول هذا كان أشد حرصاً على طقوس الديانة اليونانية التى نشأ فيها فإن ابنه بطليموس الثانى كان مصريًّا فى دينه مصريًّا فى عاداته مصريًّا فى دمه . ولا عجب ، فمصر ، بعزلتها عن العالم لما يحيط بها من البحر فى شمالها والصحارى فى سائر جهاتها ، هى عالم وحده تخلق الناس فيها خلقاً وتسكب فى عروقهم دماء تجرى فيها روح النيل وقوة سلطانه . ولذلك كان كل الذين أقاموا بمصر إما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين ، أو لفظتهم فلم يطيقوا ولم يطق أخلافهم من بعدهم بها مقاماً . وبلغ من حب بطليموس الثانى مصر وحب مصر إياه أن أصبحت الإسكندرية عاصمة العالم كله حضارة وعلماً وإيماناً وإن اجتمعت فيها فلسفة اليونان المادية بفلسفة مصر الروحية ، ثم نشأت منهما فلسفة مصرية خاصة هى فلسفة مدرسة الإسكندرية . وكانت مصر هى سيدة البحار فى ذلك العصر ، فكانت سياستها موضع النظر والتأويل فى روما واليونان وآشور والفرس وسائر بلاد

العالم المعروف حينئذ . وتعاقب البطالسة حتى كليوباترة فى حكم مصر ثلاثة قرون متوالية . تعاقب البطالسة على عرش مصر بإرادة شعب مصر مستقلين به مستقلاً هو بهم قائمين باسمه ناشرين على ربوع العالم المعروف يومئذ لواءه . فهل يكون نعت هذه العصر من تاريخ مصر بالعصر اليونانى معناه خضوع الشعب المصرى لأمة أخرى ؟ أو يكون ذلك التصوير باطلاً البطلان كله لأن شعوب العالم ومنها الشعب اليونانى هو الذى خضع لمصر فى كل تلك القرون الثلاثة وكان يرى فى الإسكندرية عاصمة الدنيا كلها ؟

وفى أواخر عهد البطالسة بدأ نجم روما يعلو فى سماء السياسة العالمية ، وبدأت روما تطمع فى التغلب على مصر بعد أن كانت تخطب ودها وتخشى غضبها . وكما وهبت الأقدار الإسكندر المقدونى المقدرة الحربية التى استطاع بها أن يتغلب على كل شعوب العالم المعروف يومئذ ، كذلك وهبت هذه الأقدار مثل تلك المقدرة يوليوس قيصر صاحب عرش روما . فلقد ظفرت جيوش قيصر بالشعوب كلها ورفت راية روما على اليونان والشام ، وامتدت غزواتها إلى ناحية آشور ثم سارت شمالاً وغرباً فأخضعت السكسون فى ألمانيا والفرنسيين فى بلاد (الجول) وأخضعت أهل الجزيرة البريطانية لحكم قيصر ، فإذا كانت هذه الأقدار قد عصفت بمصر فلم تكن مصر لذلك متفردة بالخضوع دون غيرها من أمم العالم . وصحيح أن حكم روما لمصر عن طريق حاكم تبعث به إليها ظل متتابعاً قروناً عدة . لكن الصحيح كذلك أن هذا الحاكم كان يجد أكثر الأمر أشد العنت فى حكم البلاد وكان يتعرض للثورات المتوالية تقوم عليه وتضطر روما معها للاحتماء بالإسكندرية أحياناً تاركة داخلية البلاد يحكمها أهلها ، وتتمكن أحياناً أخرى من قمع هذه الثورات والتغلب عليها وإخضاع مصر لنير روما قهراً عنها .

والمؤرخون جميعاً متفقون تمام الاتفاق على أن السكينة والأمن لم يسودا مصر

طول هذا الذى يسمونه العهد الرومانى . فإن روما كانت ، كما كانت بيزانس من بعدها ، دائمة الوجل من ناحية مصر من خشية أن ينقطع عنها مدد الغلال التى كانت مصر تبعث بها غذاء لأهل عاصمة العالم فى ذلك الحين . ولم تكن أسباب الاضطراب يومئذ مقصورة على الناحية السياسية . بل خلق المصريون منها فى سائر النواحى ما ارتبكت روما معه وما اضطرت بسببه لارتكاب الفظائع التى لا يزال تاريخها ملطخاً بها . من هذه الأسباب السبب الدينى ؛ فقد كان الدين المصرى القديم بعد اختلاطه بالتعاليم اليونانية قد قصر عن أن يلهم الشعب ما يلهم كل دين من طمأنينة النفس وسعة الأمل ، وكانت المسيحية الوليدة فى روما قد بدأت تنتقل إلى مصر رويداً رويداً ، وكان الطبيعى أن يلقى الدين الجديد فى مصر قبولاً حسناً . فقد كان اليهود فى مصر كثيرى العدد جدًّا ، وكانت الديانة اليهودية تتصل فى كثير بالديانة الفرعونية القديمة أن كان موسى مصريًّا تلقى الطقوس أيام شبابه على كهنة إيزيس ، وكان الاضطهاد الرومانى مما جعل الناس أشد إقبالاً على دين يدعو إلى الإخاء والسلام والتسامح ، ويعد الجنة المحروم والبائس والمظلوم . على أن خلافاً فى الرأى الدينى ما لبث أن نشأ فى مصر بين المتشبعين من قبل بتعاليم الفلسفة اليونانية والآخذين بروحية الديانة المصرية القديمة . وكم أثار هذا الانقسام الدينى من خلاف ! وكم اتخذ سبباً خفيًّا للثورة على روما ومحاربتها والتغلب فى بعض الأحايين على ولاتها وحكامها واستقلال أهل مصر بالحكم فى مختلف ولاياتها .

وكذلك نرى أن مصر قد تمثلت البطالسة وهضمتهم طبيعتها فأصبحوا مصريين كسائر المصريين ، وإن كانوا من أصل يونانى . فأما الرومانيون الذين أرادوا الاحتفاظ برومانيتهم وحكم مصر على غير إرادة أهلها ، فقد ظلوا تناهضهم عناصر الحياة فى مصر حتى انجلوا عنها كارهين . وكذلك كانت دورات التاريخ فى مصر دائماً . فمن خضع لحكم الطبيعة المصرية القوية فى تمثلها من ينزل ربوعها كان له أن

يطمع فى نعيمها وأن يستريح إلى خيرها ورخائها . ومن حاول محاربة هذه الطبيعة المصرية كانت عليه حرباً عواناً . لكنها لا تلجأ فى حربها إلى العواصف الاجتماعية التى تثور فجأة مرة بعد أخرى . كلا ! بل هى تلجأ فى الناحية السياسية والاجتماعية إلى مثل ما تلجأ إليه الطبيعة المصرية من شمس وهواء ونهر وأرض ورمال . هذه الطبيعة لا تعصف بشىء أجنبى عنها ولكنها تظل حتى تبليه وتفنيه .

وانتهى حكم الرومان وعقبه العصر الإسلامى لتكتب مصر خلاله صحف مجد فى تاريخها كأمة مستقلة ناهضة بأعباء الحضارة فى العالم على نحو ما كانت مصر الفراعنة، تاركة من آثار ذلك مثل ما تركوا مما لا يزال شهيداً على العظمة والجلال وتقدم المدنية وارتقاء آثارها من علم وفن إلى أبعد حدود الارتقاء . فقد نهض العرب منذ أوائل القرن السابع الميلادى نهضة روحية بفضل الإسلام أعقبتها نهضة حربية قوية متأثرة بها لا تقل فى اندفاعها اكتساحاً لغيرها من الأمم عن نهضة الإسكندر فى اليونان وقيصر فى روما . ولم تقف مصر فى وجه تيار هذه النهضة أن شامت فى الدين الجديد جدة روحية كانت تشعر بالحاجة إليها شعوراً عميقاً . فإن المسيحية ، على أنها دين فضل وجمال ، قد خالطت طقوسها صور من الزهد والتقشف والانقطاع بما لا يتفق مع طبيعة وادى النيل الدائم الصفو الدائم الابتسام . وهذا التنافر بين ابتسام الوادى وعبوس التقشف ، جعل دعاة المسيحية فى مصر يبالغون فى ميلهم إلى جانب الانقطاع والزهد ، ويفضلون العيش فى صوامع خشنة فوق رمال الصحراء المحرقة وذلك لفرط خوفهم من زخرف الوادى وغضارة نعيمه . وبالرغم من قيام طائفة من المصريين المسيحيين تحاول التوفيق بين تعاليم دين عيسى وفيض النيل ببركاته فإن دعاة الزهد والتقشف كانوا أصحاب الغلب . فلما أذن مؤذن المسلمين بأن التقرب إلى الله لا يصد عن المتاع بالدنيا ونعيمها ، دخل المصريون فى دين الله أفواجاً وآوت مصر من العرب ، حملة هذا

الدين وحماته ، كل من تستطيع أن تؤويه . ولم يكن ذلك عجباً فى أرض الأنبياء ولا هو كان عجباً فى عصر لم تكن الفكرة القومية فيه قد نمت النمو الذى نعرف اليوم . فالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة كانت معتبرة فى نظر المسلمين جميعاً عاصمة المملكة الإسلامية كما كان الخلفاء الراشدون ، ثم أمراء المؤمنين من بعد ، معتبرين كلمة الله على الأرض تجب لهم على كل مسلم الطاعة المطلقة . لكن غريزة القومية كانت قوية فى مصر بسبب عزلة مصر عما جاورها ، يفصل بينها وبين كل جار من البحار أو الصحارى مالا يسهل اجتيازه . لذلك لم تلبث خلافة الراشدين أن انتهت وأن قام يزيد بن معاوية أميراً للمؤمنين خلفاً لأبيه ، حتى بدأت نذر الانتقاض على السلطة المركزية تبدو فى مصر برغم أنها كانت حلقة وسطى فى سلسلة الفتوحات الإسلامية المستمرة المتوالية ذاهبة إلى الغرب حتى تصل إلى مراكش كى يغزو موسى بن نصير الأندلس منها متخطياً جبل طارق . ولم يكد حكم بغداد وسلطان الدولة العباسية يستقر ويطمئن حتى بدأت مصر تقوم مستقلة استقلالا ناجزاً صحيحاً : استقلت أول أمرها حين قامت الأسرة الطولونية بالحكم فيها ، ونازع الإخشيديون الطولونيين وغلبوهم واستقلوا بعرش مصر ، ثم جاء الفاطميون من ناحية المغرب فأجلوا الإخشيديين وأسسوا بمصر دولتهم بفضل قائدهم جوهر الصقلى الذى أنشأ القاهرة ، واعتلى الأيوبيون العرش من بعد الفاطميين ، وفى هذه القرون المتوالية كانت مصر مستقلة بشئونها بالغة فى أحيان كثيرة المكانة الأولى بين الأمم الإسلامية صاحبة الغلب على أمم العالم جميعاً . ولن ينسى أحد من ذلك فضلها العظيم فى الناحية العلمية والأدبية . فقد كان الجامع الأزهر منذ أنشأه الفاطميون الجامعة الإسلامية الأولى ، سواء كان ذلك فى أول عهد الفاطميين حين كانت التعاليم الشيعية تلقى من فوق منابره ، أو كان فى العهد السنى الذى جعل له حتى عصرنا الحاضر المقام الأول بين الجامعات الدينية الإسلامية . ثم لن ينسى أحد

كذلك ماكان لمصر من مجد وفخار فى الحروب الصليبية حين تألبت أوربا تريد أن تغلب المسلمين على أمرهم فى الأماكن المقدسة بفلسطين ، وتضع يدها عليها باسم الصليب . فقد كانت الجيوش المصرية المظفرة هى التى صدت أكبر الغارات وأشدها هولا . واسم صلاح الدين الأيوبى باق على الزمان بقاء الزمان كلما ذكرت تلك الحروب . وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وسجنه بها باق كذلك شهيد على مجيد فعال مصر فى صد الغارة الصليبية . وكان هذا كله والدولة العباسية ببغداد لا تزال باقية ولا يزال لها اسم دولة الخلافة مما أدى بطائفة من المؤرخين للوقوع فى الخطأ واعتبارهم هذه القرون المتوالية على مصر ، وهى متمتعة باستقلالها مقيمة من صروح الحضارة والعلم ما فاق كل ما عرفت بغداد ، بعض ما توالى على مصر من ظلم وما ناء به أهلها من مهانة وذل .

وليس بى حاجة إلى العود للقول بأن قيام أفراد من دم غير مصرى على عرش مصر لا يدل على أن مصر كانت تابعة لأمة أخرى . فالملوك فى أكثر الأمم وفى مختلف عصور التاريخ لم يكونوا أكثر الأمر من أهل تلك الأمم إذا أنت تقصيت أصل مولدهم . لكنهم وقد عظموا بها كما عظم بمصر ملوك مصر فقد نسبوا إليها على حين يصر المؤرخون على نسبة ملوك مصر لبلاد غير مصر ، والغلو فى ذلك إلى حد القول بأن مصر وملوكها كانوا تابعين لدولة أخرى . وهم يقولون : ألم يتول أحمد ابن طولون أمر مصر من قبل العباسيين وإن استقل من بعد بها ؟ إذاً فمصر ولاية عباسية . والحقيقة أن الخلافة الإسلامية فى تلك العصور كانت قد انحلت عنها الصبغة الزمنية وبقيت لها السلطة الروحية وحدها . فكانت تبعية كثير من الدول الإسلامية لها شبيهة كل الشبه بتبعية الدول المسيحية لبابا روما . واستقلال الأمم وسيادتها لا شأن لها بالسلطان الروحى ، وإنما مرجع أمرهما إلى السلطان الزمنى ؛ فما دام فى عاصمة مملكة من الممالك كل أمر هذه المملكة الزمنى فليكن لها من الاتصال

الروحي بمكة أو بدمشق أو ببغداد أو بروما ما تشاء ، فلن يغير ذلك قليلاً ولا كثيراً من أنها أمة كاملة الاستقلال . والأمر الذى لا ريبة فيه أن الخلافة الإسلامية انحلت عنها السلطة الزمنية انحلالاً فعليًّا من بعد خلافة المأمون ومنذ بدأ المعتصم يضطرب فى حكم الدولة العربية وحدها . هذا إلى أن أولئك الذين حكموا مصر من طولونيين وإخشيديين وفاطميين وأيوبيين كان شأنهم شأن طوائف تماثلهم فى أكثر بلاد أوربا حضارة ورقيًّا ، طوائف جاءت إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وغير هذه من الدول من بلاد أخرى فى بعض الغزوات ، وكانت فى ركاب الغازى ثم اندمجت من بعد ذلك فى الشعب ، وظل لها مع ذلك من تاريخها ما يحفظ لها فى نظام الطوائف أقرب مكان من العرش ، فهى أبداً تتطلع إلى مقامه وكثيراً ما تصل إلى ارتقائه .

واستمر حكم الدول الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية بمصر من سنة ٨٦٨ إلى سنة ١٢٥٠ . ومن بعد هذا التاريخ ازداد انحلال السلطان الروحى للخلافة وزالت الدولة العباسية نفسها من بغداد ، واستولى التتار على أكثر ممتلكاتها الآسيوية . أما مصر فقد استمرت تخطو إلى الأمام خطوات واسعة فى سبيل التقدم والحضارة ، وكان المماليك هم الذين حلوا محل الدولة الأيوبية فى الحكم ، والمماليك هم بعض هذه الطوائف التى أشرنا إليها والتى تجىء فى ركاب الغزاة ، ثم تصل فى كثير من الأحيان إلى عرش البلاد بإقرار أهل البلاد أنفسهم . وهؤلاء المماليك كانوا قد جاءوا إلى مصر فى بلاط حكامها الذين سبقوهم والأيوبيين منهم بنوع خاص . اشتراهم هؤلاء الحكام ليكونوا فى حاشيتهم وفى جيوشهم وليكون لهم من نسائهم الجميلات سرارى وموالى . ومن شأن هؤلاء أن يكونوا أكثر من كل الناس وقوفاً على أسرار ذوى العرش ومعرفة ببواطن أمورهم وأسباب قوتهم وضعفهم . فكان طبيعيًّا بعد إذ كثروا فى مصر كثرة جعلت منهم جيشاً جراراً أن يخلفوا الأيوبيين فى ملكهم . لكنهم ، كالأيوبيين وأكثر من الأيوبيين ، كانوا مستقلين بمصر وكانت

مصر مستقلة بهم تمام الاستقلال غير خاضعة لحكم أية دولة أخرى . بل لقد كانت في عهدهم عزيزة الجناب مرهوبة الجانب من كل دول البحر المتوسط التي كانت وحدها المعتبرة ذات حضارة معترف بها في العالم كله . وبلغت من ذلك أن أصبحت القاهرة مقر الخلافة الإسلامية ممثلة في العباسيين الذين انقرضوا ملوكاً ، فلم يبق للخلافة منهم إلا شبح ذابل أراد الظاهر بيبرس أن يخلع عليه رواء من قوة مصر ومجدها بأن يسكن الخليفة العباسي في عاصمة ملكه . ولم يكن الظاهر في هذا دعيًّا ولا مغروراً . فقد بلغت مصر في عهد المماليك البحرية والبرجية من الرفعة شأواً عظيماً حتى كانت صاحبة الإملاء على السياسة الدولية في ذلك العصر . ولم يقف أمرها في عظمتها عند السلطان الحربي ، بل كان لها أكثر منه سلطان علمي وأدبي معترف به ، كما كانت مركز الدائرة من حركة التجارة العالمية . وكمثل من سلطان مصر الأدبي أضع تحت نظر القارئ الفقرة الآتية من كتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر» قال :

« ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية الشراكسة حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل ، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ آداب العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق . فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين في مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء ، كالبوصيري صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى ، والأبشيهي صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوي العظيم الذي يقال فيه إنه أنحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجي – نسبة إلى نواج

إحدى قرى مديرية الغربية – صاحب حلبة الكميت ، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب الخطط ، والمكين بن العميد ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المشهور صاحب تقويم البلدان ، والذهبى ، والنويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وابن عقيل ، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة وهو آخر من ظهر فى ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ، وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى . وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة فى الشرق ، كالإمام ابن تيمية وابن القيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون» .

ونضع كذلك تحت نظر القارئ هذه العبارة من كتاب «صفحات فى تاريخ مصر» للأستاذ توفيق حامد المرعشلى ، ليرى منها مبلغ ما وصلت إليه مصر أيام المماليك من عظمة فى نواحى حياتها الاقتصادية والسياسية ، قال : «إن عصر المماليك يعد من عصور الرخاء والنشاط التجارى والاقتصادى بمصر . فكانت الصلة بين مصر ودول أوربا موطدة الدعائم . عقدت المعاهدات مع فرنسا وجمهوريات إيطاليا لحماية التجار الأجانب وترغيبهم فى الإقامة بمصر ، فراجت الأسواق التجارية وصارت مصر الملتقى التجارى بين الشرق والغرب سواء أكان بمرور التجارة من مصر فالبحر الأحمر إلى الهند أم من الشام إلى العراق فالخليج الفارسى إلى بلاد العجم والهند وبالعكس من الطريقين ، بما عاد على المماليك وخزانتهم وعلى

المصريين ضمناً بالأموال الطائلة التى كانت تجبى من المكوس والحركة التجارية » .
فأما رقى الفنون ، وفن العمارة منها بنوع خاص ، فتشهد به الآثار الكثيرة الموجودة بمصر ومنها المساجد والمنازل الأثرية بمشربياتها وأبهائها البديعة التنسيق الرائعة الجمال .

وليس إنسان يقرأ هذا الذى بلغت إليه مصر فى عصر المماليك من سؤدد وعلم وحضارة إلا يقف ذاهلاً : ألم يكن الأثر الباقى فى نفوسنا لما تعلمنا عن تاريخ مصر فى هذه الفترة أنها تعتبر عصراً مظلماً فى تاريخ مصر؟ فكيف يذر العصر المظلم كل هذه الآثار المضيئة ! قد نفهم القول بأن حكومات مصر فى ذلك الزمن كانت حكومات استبدادية وأن الفكرة الديمقراطية كانت معدومة يومئذ ، وإنما كان يقوم نظام الطوائف مقامها . لكن هذا لا يعنى شيئاً ولا يخفى مالتاريخ مصر فى أثناء عصر المماليك من سناء ساطع . هو لا يعنى شيئاً لأن أمم العالم كله كانت يومئذ محكومة على نظام استبدادى تؤيده الطوائف المعزوة رياستها إلى مقام الحاكم بما يجعلها ذات مشورة ، إن لم تكن ذات رأى فى تصريف الشئون العامة . ومادام هذا النظام قد أنبت كل تلك الثمرات اليانعة التى تفخر بها مصر وتضعها فى الغرة من تاريخها ، فذلك الدليل على أنه كان النظام الصالح فى العصر الذى قام فيه . فليس نظام للحكم يحمد لذاته أو يذم لذاته ، ولكنه يحمد أو يذم بقدر ما يؤتى من صالح الثمرات أو من سيئها . وبقى هذا العصر الزاهر فى تاريخ مصر من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٥١٧ .

وكما اكتسح الإسكندر الأكبر العالم فعنت له أممه ثم فتحت مصر له آخر الأمر أبوابها ، وكما أتاحت الأقدار ليوليوس قيصر أن يصنع بالعالم صنيع الإسكندر من قبل ، مما جعل مصر تذعن لسلطان روما مع مداومتها الثورة عليه ، كذلك اكتسح الأتراك العالم فى القرن الخامس عشر وقضوا على الدولة البزنطية باستيلائهم على

القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ وأوغلوا بعد ذلك فى أوربا حتى وصلوا إلى أسوار فيينا . وقد بقيت مصر مرهوبة مهوبة الجناب عندهم برغم ما كان من كل تلك القوة لهم حتى سنة ١٥١٧ حين نزلها السلطان العثمانى سليم بعد حرب تم له فيها النصر على السلطان الغورى فى موقعة بالشام على مقربة من حلب وعلى طومان باى الذى كان قائماً مقامه بالقاهرة .

وحكم الأتراك مصر على الطريقة التى حكمتها بها روما . وكان أول ما صنعوا أن أخذوا الخليفة العباسى إلى الآستانة حيث جعله السلطان سليم يتنازل عن الخلافة التى أصبحت من يومئذ فى آل عثمان حتى قضى مصطفى كمال عليها فى سنة ١٩٢٣ ، ثم جعلوا يوفدون إلى مصر والياً حرصوا على ألا تطول مدته بمصر من خشية أن ينظم جيشها ثم يقهر الأتراك به ويعيد إلى مصر استقلالها على نحو ما حدث فى عهد البطالسة . وأوقفوا ما كان بمصر من مظاهر الحضارة بأن أخذوا إلى عاصمتهم كل رجال العلم والفن والصناعة فى مصر ، ولم يعوضوها شيئاً . وظل الحال على ذلك إلى أواخر القرن السابع عشر حين بدأت نذر الانحلال يدب دبيبها إلى تركيا . حينذاك بدأ المماليك ، الذين ظلوا طوال مدة ولاية تركيا حكام الأقاليم ، يفكرون فى استعادة السلطة والاستقلال بمصر . وكان هؤلاء المماليك قد أصبحوا ، كما أصبح اليونان والعرب من قبل ، مصريين ، فكانوا يقفون متكاتفين مع شعب مصر فى وجه الوالى الذى تبعثه الآستانة كما كان أسلافهم من قبل يقفون فى وجه الحاكم العسكرى الذى تبعثه روما . وكان هذا الوالى التركى الذى لم يندمج فى مصر ولم يتمثل روحها يظل سجيناً فى قلعة القاهرة لا سلطان له على أحد ولا على شىء فيها . وكان المماليك والشيوخ الذين يمثلون الطبقة المتعلمة إذا رأوه على غير ما يريدون ، بعثوا إليه رسولاً يطلق عليه اسم الاوده باشى يدخل عليه ويطأطئ الرأس احتراماً له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول منادياً للوالى : «انزل يا باشا» ، ويكون

هذا أمراً للوالى صادراً له من المصريين لا يستطيع له مقاومة ولا تستطيع تركيا له نقضاً . وبلغ الضعف بالوالى التركى أن كان طوال القرن الثامن عشر والياً بالاسم لا سلطة له ولا عمل أكثر من إرسال الخراج إلى تركيا . ودفع هذا الضعف على بك الكبير إلى التفكير فى الاستقلال بمصر وتم له من ذلك ما أراد ، وظل ثلاث سنوات تلقب فيها بسلطان مصر وخاقان البحرين . على أن سوء سياسة الحكم فى تركيا وماكان من تدميرها كل أسباب الحضارة فى مصر فى أثناء القرن الأول من استبدادها بها ، نضح على هؤلاء المماليك فجعلهم يسيرون مع الشعب أسوأ ما يسير مستبد جائر ، مما شوه اسم أسلافهم المماليك الذين ارتفع اسم مصر فى عهدهم إلى مكان من العزة لا ينال .

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فقاومها المصريون أشد المقاومة حتى انتهت بالجلاء عن البلاد بعد ما نقلت إليها أفكار الثورة الفرنسية وأسباب الحضارة الغربية . وبعد أن فتحت عيون المصريين على حياة جديدة هى التى يدءبون اليوم لتوطيدها واتخاذها وسيلة لعود مصر إلى مجدها وقوتها .

وجاء محمد على باشا والياً من قبل تركيا على مصر فقضى على المماليك ، ثم استمال إليه علماء مصر وأعيانها ووجهاءها ، وفكر ، طوعاً لإرادتهم ، فى الاستقلال بها . وأعلن ذلك بالفعل وغزا الدولة العثمانية فى الشام وفى الأناضول ووصل حتى صار على ثلاث ساعات من الآستانة . وكان مخضعاً سلطان تركيا لولا أن تحالفت معها عليه دول أوربا جمعاء ، ووقفت فى وجهه براً وبحراً ، وقضت على الأسطول المصرى فى معركة نافارين . وهذا الوقوف من جانب الدول الأوربية فى وجه الجيوش المصرية الظافرة لم يكن القصد منه المحافظة على تركيا الضعيفة مخافة أن يهدد وجود حاكم قوى فى الآستانة التوازن الدولى كما اعتاد المؤرخون أن يقولوا . فلو أن ذلك وحده كان السبب لكان أقل ما تجزى به مصر على انتصاراتها بقيادة

محمد على أن تقوم بنفسها دولة مستقلة غير خاضعة لأحد . لكن الدول أبت على مصر هذا الاستقلال وأصرت على أن تظل ولاية تابعة لتركيا ، وإن كانت ولاية ممتازة مستقلة استقلالاً داخليًّا كاملاً . إنما كان السبب الصحيح تخوف أوربا من أن تستعيد مصر قوتها التاريخية المعروفة وأن تنضم إليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها فى أكثر حقب التاريخ ، وأن تتحكم لذلك فى حوض البحرين : الأبيض والأحمر ، وأن يصبح سلطانها بالفعل خاقان البحرين كما كان على بك الكبير يدعو نفسه فى الفترة القصيرة التى استقل فيها بأمر مصر . ومهما يكن من أثر ذلك فى تقوية الحضارة ورفع منار السلام فإن الفكرة الاستعمارية كانت قوية يومئذ فى نفوس الساسة الأوربيين إلى حد جعلهم يضعون أساساً لسياستهم القضاء على قيام دولة فى مصر لها هاته القوة والسلطان . وهذا وحده هو السر فى إبائهم على مصر أن تستقل بإزاء تركيا التى ضعفت كل الضعف عن مقاومة جيوشها ، والتى كانت معرضة لأن تقع هى وعاصمتها تحت سلطانها .

على أن هذا العسف من جانب أوربا لم يوهن عزيمة مصر . وقد ظل شعبها طوال القرن التاسع عشر كله متوثباً يريد تحقيق استقلاله على النحو الذى يستشفه القارئ من تراجم من ترجمنا لهم فى هذا الكتاب . وها هوذا اليوم قد بلغ من مجهوداته فى هذه السبيل مقاماً محموداً . وهو لا ريب سيكون فى المستقبل كما كان فى الماضى عاملاً من أقوى عوامل العرفان والحضارة والسلام .

القسم الأول

تراجم مصرية

كليوباترة

صورة تمثال لها في متحف الفن الحديث بروما



كليوباترة اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهراً تضاءلت إلى جانبه أسماء الزهرة وأفروديت وسميراميس وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت إلى جانبه أسماء الملوك ، والشعراء ، والكتاب . فهي ليست جميلة وكفى ، وليست مليكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى ، وليست أديبة وكفى ، بل هي ذلك كله وهي أكثر من ذلك كله ، هي الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة في أسمى ما تصوره معاني هذه العبارات ، وهي مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصوراً طويلة كانت مصر فيها مهبط وحي الحكمة والشعر والجمال . لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباترة وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذي يحب أن تكون . ولذلك كان ما أريق من مداد

وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية إلاهة أو ملكة أخرى أن تفخر به .

وكان حظ كليوباترة أن ولدت بالإسكندرية فى عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه ، وبدأت مصر فيه دور الترف الذى يسبق الانحلال . وكانت الإسكندرية فى ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر كل ما فى الحياة من متاع ونعمة . فكان الناس يتكلمون فيها كل اللغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار جوار حسن ليس فيه شىء من الكفاح أو القسوة . فإلى جانب الأبيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بها وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخراً منها وازدراء لها وإشفاقاً على أهلها ، كان الرواقيون ينادون بالزهد فى الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة إلى تعذيب الجسد لطهارة الروح . وإلى جانب مكتبة الإسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة ألف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تقوم المراقص والملاهى ، يهرع الناس إليها لينسوا أنفسهم فى لهوها ولينهمكوا فى ملذاتها وليمتعوا أبصارهم بجمال ساحراتها الراقصات والمغنيات .

وكانت هذه الحياة المتفجرة بينابيع الحكمة واللهو جميعاً تموج فى محيط بلغ كمال العمارة التى قامت خلال ثلثمائة سنة كانت منذ أنشأ الإسكندر الأكبر المدينة عام ثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد سنى نشاط وعظمة لمصر وفلسفتها وعمارتها . فقد اتصل ما بين هذا الثغر البديع الموقع فى امتداده على شاطئ بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقب غدواته وروحاته بجسر هفتا البالغ غاية العظمة والجمال ، والذى انتهى بالجزيرة إلى أن أصبحت جزءاً من المدينة . واتصل بالنيل بقناة كانوب (ترعة المحمودية الحاضرة) التى لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأعناب ونخيل

قامت فى أثنائها منازل اللهو ودور المتاع تحيط بها جنات فيحاء جمعت كل أسباب النعمة من زهر عطر وفاكهة نضرة . فأما أهل هذه المدينة فكانوا أهل ذكاء وظرف وكانوا حريصين على المتاع بكل ما فى حياة مدينتهم الزاهرة متاعاً عريضاً ، يتهالكون فى ذلك على اللهو وعلى المسرة فى مختلف صورهما وألوانهما . فكما كانت فراعنتها تفتن فى الترف بما يعجز خيال كل مترف فى عصرنا الحاضر ، كان الشعب ، رجالا ونساء ، منغمساً فى حمأة اللذائذ الدنيا مسلماً نفسه إليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . لكنهم كانوا مع ذلك أميل للاستخفاف بالحياة وما فيها ولو بلغوا من الحياة أعظم مكان . وأى استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الآلهة حتى لقد دعوا جد كليوباترة البطين ودعوا أباها بطليموس أوليتا أى العازف بالناى .

وكانت كليوباترة شديدة الولع منذ صباها بالتجول فى أنحاء الإسكندرية والوقوف على كل ما فى هذا العالم العامر بكل ما فى العالم من حياة وحضارة . وفى تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيراً عرفت كل ما وقعت عليه عيناها الواسعتان الجذاب دعجهما الساحر ، وكل ما أحاط به ذهنها الحاد . وتعلمت اللغات والآداب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسة الإسكندرية يومئذ ، والتى تمتاز بالتورية والرقة والقوة . وكان لها بالكتب ولع وغرام ليس مثلهما ولع ولا غرام . وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفضيلا للأوديسى على التوراة وعلى كثير من كتب الحكمة .

وفى هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثانى عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره ما لم يعرفه ولم يتذوقه غيرها ممن لم يؤت ذكاءها ولا علمها باللغات والآداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناى المستغرق فى ملاذ الحياة بما استحق معه لقب إله الخمر ديونيزوس يدللها بكل ما يلهمه ملك مترف معجب بابنة ليس لها فى بنات حواء مثيل . فكان يطوف وإياها مدائن مصر ويركب وإياها النيل من الإسكندرية إلى طيبة ذات الأبواب المائة يقفان عندما يحلو لهما الوقوف

عنده من المدائن العامرة بآثار مصر القديمة . فإذا تركا طيبة إلى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف ، وما ليس له مثال إلا فيما أقامته كليوباترة من المآدب لأنطونيو حين غرامه بها ودلها عليه .

على أن الصبية لم تبق فى هذا النعيم الملكى طويلا ، وإن كانت لم تحرم منه إلا لتعود إليه فتكون به أكثر متاعاً . ذلك أن أباها طرد من مصر فالتجأ إلى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدهم بومبى . وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل وإياه الإسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباترة يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها . فلما أيقنت بانتصار أبيها وبعودته إلى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج أركايلوس خصم أبيها ، وجلست مع خديناتها فى شرفة القصر وقد ارتدت ثوباً رقيقاً أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرا برغم أنه كان فى بدء ترعرعه . ولما أقبل أبوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجند إلى القصر أمامه شقت هى وسط الجمع طريقاً واندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر. وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الرومانى الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشره إلى كل لهو ومسرة ، تلك الفتاة الطفلة ماتزال ، والتى برعت برغم ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه . ولم تنس كليوباترة فى دلها وتيهها أن توجه إليه نظرة حلوة فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها إليها وإلى ملكه .

وعاد أنطونيو إلى روما وعاد بطليموس إلى الحكم وإلى اللهو يستمرئ مرعاه ويمعن فيه بعدما حرم زمناً منه . وكانت ابنته تطوف وإياه أنحاء البلاد ينزلان فى المدائن العامرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة ما لا يباح لفتاة أن تعرفه وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباعاً انتهت بموت الأب بعدما أوصى بالملك لكليوباترة ولأخيها

بطليموس الطفل الذى لم يكن يزيد يومئذ على اثنى عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته. وكان زواج الأخ من أخته متعارفاً فى الأسرات الملكية يومئذ لحرصها على ألا يختلط دمها الفرعونى المستمد من الشمس كبيرة الآلهة بدم الرعايا. وإذ كان هذا الأخ قاصراً عين له قوام ثلاثة اشتركت الملكة معهم فى الحكم وإن استأثرت به دونهم إلى حد عظيم.

وقد ملكت قلب المصريين فى الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتاع وبسحرها إياهم بفتنة جمالها، حتى دعيت إذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم، لكن عهدها بذلك لم يطل. فقد بعث منيلوس يطلب إليها إرجاع الجند الرومانيين الذين ظلوا عندها. وإذ كان هؤلاء الجند قد استوطنوا الإسكندرية وتزوجوا فيها ومتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا بالشعب. ثم جاء من بعد ذلك ابن بومبى لنفس القصد. وكان لأبيه على أبيها فضل إعادته إلى ملكه مما أجلسها هى على العرش بعده. لذلك رأت واجباً عليها أن تحسن وفادته. وقابلته فرأت فيه غير أخيها الطفل الذى فرضه الملك زوجاً لها، فقبلته ضيفاً فى قصرها وأجابته إلى ما طلب أن كان أبوه يومئذ فى حرب مع قيصر. وقد غاظ ذلك أخاها منها فانضم إلى المؤتمرين بها وعاون على انتقاض الشعب عليها ومحاولته قتلها. وإذ كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت فى ذهبية إلى الصعيد كسيرة القلب أن لم يفعل جمالها فى أولئك السكندريين فعله. ونزلت طيبة على صورة لم تعهدها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع أبيها المترف المتلاف. وبدلا من أن تجعل مقامها فى طيبة الأحياء جعلت مقابر الملوك موضع نجواها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث وإياهم آملة فى الآخرة ملكاً أكثر من ملك مصر ثباتاً. لكن أصواتاً انبعثت إليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها: أن لا ملك بغير إقدام ولا جلالة من غير كبرياء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة

الفتح . وأيأستها دعة المصريين من أن تجد منهم أى عون أو مدد . ففرت إلى سوريا وهى فى مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملا وفى فتنتهم بجمالها أشد ثقة ولم يخنها حدسها . فما كادت تستقر فى ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاغتها وإقدامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هى على رأسه ممتطية جوادها . لكن المصريين بعثوا هم الآخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام ، ووقف الجيشان وجهاً لوجه لا يلتقيان .

وفى هذه الأثناء هزم قيصر بومبى فى موقعة فرسالا وفر المنهزم إلى مصر . عله يجد موئلا فى بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق . لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريمه ، وخشوا إن هم حموا هذا الغريم أو ألجأوه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه ، فقتلوا اللائذ بهم . فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا ركبه الهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبى أفخر طقوس الجنازة .

وعرفت كليوباترة أمر ذلك كله ، وعرفت أكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكماً بينهما عملا بوصية أبيها أن تحمى روما ملك أبنائه من الشتات والدمار . هنالك فكرت فى أن تلجأ إلى هذا الحكم ترفع إليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغن أن حمت ابن خصمه وأن مدت بومبى بالرجال والذخيرة . لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة إلى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بان لا نجاح من غير إقدام وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبى . فتركت الجند واستصحبت مؤدبها الأمين أبولو دور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الإسكندرية ، بقى أن تدبر الوسيلة للمثول فى حضرة قيصر . وكليوباترة نحيفة القوام بضة لينة الملمس . فليس يعجز أبولو دور أن يحملها وأن يزعم أنها بعض المتاع وأنه من رجال روما يريد إيصال ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة فى بعض أسمال وأردية من غير أن تبدل شيئاً من زينتها الملكية

وعطرها ، وحملها مؤدبها على كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته أنه موصل ما يحمل إلى بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله فى رفق أمام الظافر على عاهل روما ، الباكى عليه حين وفاته .

وكانت هذه هى الساعة التاريخية التى اتجه فيها الزمن غير وجهته . الساعة التى وقف إزاءها القصاص والمؤرخون أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراه . نضت الملكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال وبدت فى زينة الملكة وعطرها وجلالها . أكانت طويلة أم قصيرة ؟ أكان أنفها كبيراً أم صغيراً ؟ لم يعرف قيصر فى هذه اللحظة من ذلك شيئاً ، واختلف المؤرخون فيه خلافاً كبيراً . وكأنما كان لجمال هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها . وكأنما بقى هذا الجمال فى قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون فكل يختلف فى صورته وفى قسماته . على أن كليوباترة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها . بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة ، وجعلت تتكلم وتشكو وتستعطف . وكان صوتها أفعل سحراً من جمالها ، وكانت عبارتها أنفذ إلى القلب من صوتها إلى شغاف الفؤاد ، ومن جمالها الذاهب باللب .

جعلت تتكلم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغى ، ثم صار لا يسمع دفاعاً ولا شكوى بل أنغاماً دونها صوت البلبل وعزف الناى وانتهى بكليوباترة وبه الأمر أن وقفت وجثا هو على قدميها ضارعاً مستغفراً ، ثم حملها على كتفه كما حملها إليه أبولودور وذهب بها إلى مضجعه .

وكان قيصر برغم تجاوزه الخامسة والخمسين محباً للنساء ، كما كان مثار إعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المهذب الرقيق وعزمته الصادقة القوية . لذلك اتصل بينه وبين كليوباترة منذ هذه المقابلة الأولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمجده ومجد روما . وجلست هى إلى جانبه فى قصرها المنيف تعجب به وتثير إعجابه . وملكته

حتى لم تبق فى شك من حكومته بينها وبين أخيها . ودعا هو أخاها الطفل ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما قرأ فى عيونهما ما هاج الدم فى عروقه الضعيفة ، وما دعاه ليلقى التاج عن رأسه وليخرج صائحاً فى الشعب وفى جند روما داعيا إلى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباترة ولخيانة صاحبها . ولم يرد قيصر أن يقاتل لقلة جنده ولحرصه على استبقاء هذا الطفل مغمضاً عينه على ما يفعل الحبيبان ، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه بإشراف روما . ورضى الغلام آملا أن يطمئن له الأمر فيصير ملكاً وفرعوناً وإلهاً . وظل هو وكليوباترة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعذب موارد الهوى بما يتفق وروحيهما المهذبين . ولقد كانا بذلك سعيدين كل السعادة . ولم يكن ورد سعادتهما مقصوراً على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام ، الموسيقية الصوت والنفس ، الرطبة الخلق ، الندية النظرة الرشيقة رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث . بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب . كبل كل واحد منهما صاحبه بأغلال هذه العاطفة القاسية السامية فى قسوتها فسعد كل بأغلاله . وكانت كليوباترة أكثر سعادة لأنها استردت مع هذا الحب ملك مصر ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكسون والجرمان وسائر دول أوربا عن حروبه فى سبيل الجمهورية ليحارب فى سبيلها وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشها بعدما ثبتت فى قلبه وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئاً ولا يبعث إلى روما بخبر ، وإن عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً . وزادت به ارتباطاً وازداد لها عبادة حين حملت منه . إذ ذاك لجا فى أسباب المسرة يلتمسانها فى كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة فأقاما أعياداً عند الأهرام وأبى الهول ، وفى أبيدوس عند قبر إيزيس وأوزوريس ، وفى دندرة حيث معبد هاتور إلٰهة النسل الخصب وفى طيبة ذات الأبواب المائة ، وفى أنس الوجود ، وفى كل معبد وعند كل إله .

ووضعت كليوباترة غلاماً دعته قيصرون وخلعت عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها . ثم أبحر قيصر إلى روما ولحقت هي به فى أبهة الملك وجلاله ، وفى حاشية ليس للرومان بها عهد . وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر . وقد أقام لمناسبة عودته أعياداً أسرف خلالها فما خلعه على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه إلى كليوباترة عاماً كاملا . لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباترة بجمالها الرائع المترفع ، لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر.

ولم يعن قيصر من ذلك بشيء . بل أقام لابنة بطليموس قصراً على نهر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة ، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ما ينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه . ثم جعل يستقبل أصحابه فى قصر التبر . ولا يخفى عليهم من صلته بكليوباترة شيئاً . وبالغ فى الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلا نصب فيه تمثالها على صورة الزهرة آلهة الجمال والحب . ودار فى خاطره أن يتزوج منها برغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس الطفل زوجها . ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر إلى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر فى أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعدد زوجاته مادام لا عقب له . ولقد كان فاعلا وكان قيصرون يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجه التاريخ وتبقى مصر مقراً للحضارة كما كانت لولا أن دبرت المؤامرة لقيصر وأن قتله أصحابه يوم أعياد المريخ فى العام الرابع والأربعين قبل الميلاد .

بكته كليوباترة ثم عادت إلى مصر مع حاشيتها وأبنائها وتركت أخاها الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك خبراً ، وأقامت بالإسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلته . لكن الحروب التى قامت بين أصدقائه وقتلته انتهت بانتصار أنطونيو وأصحابه فى موقعة فيليب . ولم يزل ذلك

وجلها وظلت فى خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر ألد عدو . لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة . فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو . وأنطونيو صديق قيصر ومحبه . وأنطونيو رجل شهوة لا صبر له أمام امرأة . وأنطونيو معجب بجمال كليوباترة منذ سنين ، عابد إياها مذ كان يزور قيصر فى قصر التبر . مع ذلك لم تر كليوباترة أن تبعث إليه وفوداً تهنئه بالملك كما بعث سائر ممالك الشرق التى وقعت فى حكمه وهى لم تمده فى حروبه مع قتلة قيصر بمدد من مال أو رجال فغاظ ذلك أنطونيو وبعث إليها رسولا أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنوبها . وظل الرسول فى قصرها أياماً عاد بعدها مسحوراً بها آخذاً نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر إجابة لطلب سيده . وبقيت هى زمناً تعتذر عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الأعذار . وبقى رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره . ثم بعثت هى أنها آتية إليه فى تارسيس وذكرت موعد وصولها فخف الحاكم إلى المدينة ينتظرها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينها السابح تدفعه أشرعة من خز ، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر ، وتبدو فى وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش ، وقد ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : « هذه أفروديت بل هذه الزهرة أتت تزور إله لهونا المحبوب » .

وبعث أنطونيو برسوله يدعوها للعشاء عنده ، فاعتذرت بأنها متعبة ودعته إلى سفينها . فلم يغضب ولم يتردد بل طار إليها وقضى شطراً من الليل فى حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شىء غيرها ، ثم دعته فى الليلة التالية إلى وليمة عشاء فى قصرها ودعت معه جمعاً من الأمراء وأرباب الدولة ، وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب فى ذلك القصر نهارا ورأوا فيه من التماثيل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير فى الجو مع ريح العطر والزهر وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة بما لم يحط به خيال أحد منهم من

قبل . وكليوباترة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحراً . وأبدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه . فابتسمت قائلة : إنه رسولها الذى بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذى صنع هذا بأمرها .

ودعاها أنطونيو إلى قصره ودعا معها الأمراء وحاول أن يجاريها فى البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاولته عبثاً . ودعته وأمراءه إلى وليمة ثانية قالت إنها تكلفها ثلاثة ملايين درهم فأنكر أنطونيو ذلك عليها ، وراهنته إنها فاعلة . وكلف هو أحد الأمراء أن يحصى التكاليف . ولما رأى أن لم تزد الملكة شيئاً على ما فعلت فى الوليمة الأولى أبدى لها أنه قمرها . فاستمهلته وخلعت من أذنها قرطاً فيه جوهرة منقطعة النظير كان الإسكندر أهداها لبعض أسلافها وألقت بها فى كوب به خل فذابت وشربت هى الكوب وما فيه وقمرت أنطونيو . وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على أنها بعض العجائب .

وأسرع أنطونيو بالنظر فيما لديه من شئون الملك وعاد وكليوباترة إلى مصر واندفعا فى سبيل الغرام تهيج سماء مصر فى نفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتنان فيها ، على أن أنطونيو لم يكن مهذباً كقيصر ، بل كان جندياً خشناً فج الذهن لا يعرف الرقة ولا يحيط من الأدب أو اللغات بشىء ، وإنما حببه إلى الجند ورفعه إلى مقام قيصر سهولة فى العبارة التى كان يخطبهم بها ونزول منه إلى مشاركتهم فى تذوق اللذات الدنيئة السافلة التى كانوا يتذوقونها . فلم يكن حى من أحياء الدعارة فى روما أو بغى من بغاياها لا يعرفه . وكان من أسباب فخره أن أعقب من الأولاد حيثما ذهب ما لا عدد له . فألفت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن فى قيصر ، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الإنسانية التى تغذى القلب وإن قصرت عن إلهاب الدماء ، على أن هذا الخلاف بينهما اضطر أنطونيو إلى أن يتعلم ويحضر من الدروس ما يخفف من شعوره بأنه دون كليوباترة ، ودفعها هى لتنزل عن التفنن

فى رقة المتاع إلى هذه البهيمية الثائرة . وقد أنفت ذلك فى بادئ الأمر حين كان حرصها على أنطونيو راجعاً إلى حاجتها السياسية له . لكنها تذوقته بعد ذلك وبلغت من تذوقه أن لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ، ولم تأنف أن تدفع بكتفيها أيًّا من رجال تلك الأحياء ونسائها على طريقتهم . وبقيا غارقين فى نعمتهما حتى حملت . وخيل إليها أن سيربط الحمل بينها وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل . لكنه رآها ثقلت حركتها وخمد شعاع روحها ، فعاد يفكر فيما كان غافلا عنه من شئون الدولة ، ورأى أن لا مفر له من العودة إلى روما ليصالح أكتاف بعد ما حزبت عليه فلفيا زوج أنطونيو وهبت لمحاربته ، وليستعديه على أهل فينيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها . ولم تجد توسلات كليوباترة إليه كى يبقى ولو إلى حين وضعها فلما قابل فلفيا فى اليونان أنزل عليها من سخطه ما كسر قلبها ، وغادرها إلى روما فماتت قبل وصوله إليها . وأصلح موتها بينه وبين أكتاف وتزوج من أخته أكتافيا برضا مجلس الشيوخ . وكانت أكتافيا عدل كليوباترة فى سنها وجمالها ، وكانت أم طفلين من زوجها الأول ، محبة لحياة العائلة ونظامها بما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها . فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده ، ولقد ذهبت معه إلى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له فى أثنائها ابنين شغلت بهما وبأولادها الآخرين وبأولاد أنطونيو من فلفيا ، فأحرج ذلك صدر أنطونيو منها وجعل يراها أمًّا لا يعنيها منه إلا أبوته لأبنائها ، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماماً كالذى كانت تبديه كليوباترة ، إذ كانت تدعوه أنطونيو الأكبر . وبلغ من حرج صدره أن اتهمها بأنها أحن على أخوتها لأكتاف منها على زوجيتها له ، ثم بعث بها إلى روما وانطلق هو إلى سوريا يجنى ثمار النصر الذى أحرزه بعض قواده .

فى هذه السنوات الثلاث كانت كليوباترة تعانى من الهم والألم أشدهما تبر

ولذعاً . علمت بما كان من زواج أنطونيو وأكتافيا على أثر وضعها توءمين دعت أحدهما الشمس والأخرى القمر ، فاضطربت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة . وزاد فى مخاوفها ما قد يؤدى هذا الزواج إليه من القضاء على آمالها فى قيام قيصرون مقام أبيه . هنالك غادرت الإسكندرية إلى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لهاتور معبداً ثم انقبضت نفسها لهذه الوحدة التى أحاطت بها فعادت إلى عاصمتها وشغلت نفسها من جديد ببناء قبرها . وكان أكبر جهادها أن تنسى أنطونيو باستدامة العود إلى تذكر قيصر . ونجحت فى ذلك نجاحاً سرّها . لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب فى جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية . فعادت إلى مثل ما عودها أنطونيو من المرح فى الأنحاء التى يلهو الشعب فيها . لكن ذلك لم يطفئ من رغباتها ما كان كامنا .

ولما عاد أنطونيو إلى الشام بعث إليها رسولا يستقدمها إليه بأنطاكية . ويل له من جرىء ! أيظن أن ملكة الملوك تطير إليه بعد أن نسيته ، بل بعد أن أبغضته وبعد أن هجرها إلى أحضان امرأة غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباترة ؟ لكن لا ! تضاءل ذلك كله أمام دعوتها إياه فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر إليه لائمة عاتبة . وكفاها أن أقسم لها أن قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود وإياه سيرتها الأولى ؛ وأنطاكية كانت ثالثة مدائن بحر الروم بعد روما والإسكندرية ، فكان لها فيها من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتها . ولكى تؤمن بحبه إياها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التى غابها عنها .

وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لمحاربة خصوم روما فيما وراء الفرات ، ورفض مشيئتها أن تصحبه لما فى ذلك عليها من مشقة لكنه عاد إلى سوريا محطما جيشه . فجاءت إليه من خير مصر مالا ورجالا بما أنساه هزيمته . وأقامت معه .

فأنسته فتنتها كل متاعبه . ثم تلقى رسالة من زوجه أكتافيا أنها آتية إليه من روما فى عدة وعديد . فتأثر حين رآها تقابل صده لها وجفوته إياها بهذا الكرم والإخلاص والحب . لكن كليوباترة وقفت فى سبيل ما أتت أكتافيا فيه . ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مدداً ، فعادت إلى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة .

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو ، فلما استرد قواه عاد فحارب خصوم روما وانتصر عليهم ، لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره فى روما ذهب يحتفل به فى الإسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما . وذلك مالا طاقة للرومانيين باحتماله . فأثار أكتاف الرومان عليه . وابتهجت كليوباترة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم ، وسارت وأنطونيو إلى أثينا فى انتظار ما ستتمخض عنه الحوادث راجية الانتصار على أكتاف حتى تجلس قيصرون على عرش أبيه . لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب ، فقد التقى الأسطولان فى (أكسيم) وكانت الملكة فى سفينتها « الأنطونياد » فى مؤخرة الأسطول المصرى ترقبه . وبدأت المعركة يحمى وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب أكتاف يتلاشى عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول ، فلما أفاقت ألفت الريح تهب نحو مصر فأمرت رجالها بالعودة وما يزال الأمل فى النصر مضطربا بين العسكرين . والتقطت أنطونيو من سفينته وأخذته معها فى « الأنطونياد » وعادا إلى مصر وقد تولاه الأسى أن رأى نجمه يأفل وعظمته تذوى وتذبل .

فأما كليوباترة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمها ، بل نقلت أسطولها براً من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر . لكن هيرود عدوها فى سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها . هنالك

تحطمت كل آمالها الإمبراطورية واضطرت أن تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر.

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب ليله ونهاره آملا أن ينسيه الشراب هم انكساره. وظل فى شرابه حتى علم أن أكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر وأكبر همه أن يطفئ حياة ابن قيصر وكانت مشابهته لأبيه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما، وأخذ أنطونيو قيادة جيوش مصر لكن الحظ إذا عثر لج به العثار. فانهزم أنطونيو فعاد إلى قصر كليوباترة وأمر أحد عبيده أن يقتله. فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى فأصغر ذلك أنطونيو فى عين نفسه فقضى عليها بأن ألقى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلا لراحة الموت، وقضى بين ذراعى محبوبته الفاتنة فبكته أحر بكاء ثم دفنته فى القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت فى الحزن عليه لما أحست من سوء ما أعد لها القدر من مصير بعده.

ودخل أكتاف الإسكندرية ظافراً وكل همه أن يقضى على ابن عمه الذى فر من وجهه وحاولت كليوباترة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو. وفى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن لتعنى بشىء أو تتورع عن شىء. وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضى فيه وقتها باكية مكتئبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهى وكان كل همه أن يأخذها إلى روما وأن تسير فى حفلات نصره ليرضى بذلك شهوة انتقامه وانتقام أخته منها، وليقدم للشعب الرومانى منظراً تبتهج له قلوب الشعوب: منظر ذل العزيز. وعرفت هى هذا فثارت فى عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الأعظمين. لكنها لم تكن قادرة إلا على نفسها. وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادماً من أتباعها أن يحضر لها ثعباناً فى فاكهة طعامها يوم تشير

له إلى جبينها . وأشارت إلى هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها . ونزعت التين واحدة بعد واحدة ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه فى ثديها ليبعث إليها الموت من خلاله ، وكم بعث هذا الثدى الحياة إلى أبنائها وإلى الذين أنعمت عليهم الآلهة بالمتاع بها .

وكان معها خادمتاها إيراس وشارميون فشاركتاها مصيرها بعد ما حلتاها بكل حلى ملكها الذى تحطم ، والذى حاربت حتى المقادير فى سبيل عزه ورفعته منذ مولدها إلى مماتها (من سنة ٦٩ إلى سنة ٣٠ قبل الميلاد) .

ويومئذ ذهبت إلى بارئها أرواح كثيرين من عشاق فاتنة التاريخ . ويومئذ انطفأ نجم كان منيراً فى سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم .

الخديو الأول إسماعيل باشا



لئن صح أن كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر فى تاريخها الحديث ، وصح أن كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك فى توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لا ريب فيه أن أكبر الأثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن إنما ترتب على حكم إسماعيل باشا . فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع إليه : إليه يرجع فضل إنشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد ، وله الفضل الأول فى النظام القضائى القائم فى مصر حتى اليوم ، وله أكثر من ذلك كله الفضل الأكبر فى شعور الأمة المصرية بقوميتها وبكيانها .. ثم إن عليه تبعة الارتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه ، وتبعة الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما يزال إلى اليوم باقى الأثر ، وعليه أكثر من ذلك كله تبعة تسليم البلاد ماليًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا إلى أيدى الأجانب .

فهذه الستة عشر عاماً التى رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩) والتى شهدت من مظاهر النشاط المعمر، ومن فضائح الظلم المخرب، ومن البذخ والإسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لهما نظيراً، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها، وبعد أن جاهد القدر فهوى به عن عرشه وأخرجه من مصر حسيراً ينظر إلى شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير، هذه الستة عشر عاماً هى التى جرت إلى مصر مظاهر الحضارة الأوربية، وهى التى جرت على مصر الخراب، وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوماً من الأيام، وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل.

ولم يكن عجيباً أن تترك هذه الأعوام الستة عشر فى مصر كل هذا الأثر وإسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق. فقد كان بشخصه بطلاً من أبطال الأقاصيص، وكانت أيام حكمه أسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم. كان إسماعيل ساحراً أعظم السحر، ذكيًّا أشد الذكاء، وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذاباً لكل من اتصل به. وكان مع ذلك قصير النظر شرهاً فى كل مطامعه وشهواته مغامراً فى سبيلها مجازفاً مجازفة لا يهون منها أى حذر، وكان فيه من دم محمد على إقدام لا يعرف التردد، وبطش لا هوادة فيه، وقسوة لا يتسرب إليها أمل فى رحمة. وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ما تبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم، ثم إنه كان مولعاً أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية وإن غاب عنه الجانب المعنوى منها، وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل ما فيها من قوة. لذلك سخّر ذكاءه وإقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر إن لم يكن أبهى منه

وأزهر ، وليقول عن مصر إنها أصبحت قطعة من أوربا . وفى سبيل ذلك أنشأ كثيراً وخرب كثيراً وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء إلى اليوم به ، وماتزال تحتمل بسببه نقصاً فى سيادتها وذبولاً فى استقلالها وعزتها .

ولد إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى فى المدرسة التى أنشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ، ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان إلى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب L'ecole de l'etat major ثم عاد إلى مصر بعد أن أتم بها دراسته .

وكان عباس الأول والى مصر يومئذ . وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركة . فذهبوا إلى الآستانة يحتكمون إلى جلالة السلطان ، وفض السلطان النزاع بأن أوفد اثنين من رجاله إلى مصر سوّيا الخلاف ، وعاد أفراد العائلة العلوية خلا إسماعيل الذى ظل بالآستانة وعين فيها عضواً بمجلس أحكام الدولة العلية .

وفى سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفاً لعباس الأول . فاستقدم إسماعيل وجعله على رئاسة مجلس أحكام مصر فى مثل وظيفته التى كان يشغلها بالآستانة . ولم يكن إسماعيل يومئذ وليًّا للعهد بل كان أخاه أحمد أكبر رجال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد . لكن أحمد توفى وآلت ولاية العهد لإسماعيل . من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده فى مهمات خاصة إلى البابا وإلى نابليون الثالث وإلى الباب العالى بالآستانة . وفى سنة ١٨٦١ نشبت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها . ونجح إسماعيل فى ذلك وعاد وله فى أعين الشعب مقام كريم . ولما توفى أخوه أحمد وآلت إليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالى إلى حد أنه لما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودى به والياً مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس

الساعة التى كانت محددة لسير جنازة سعيد بالإسكندرية ، فلم يحتفل بالدفن احتفالاً رسميًا ولم يحفل بالمشهد أحد .

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لأول ولاية إسماعيل باشا الحكم ، أن كان الناس فى سعة بسبب انتظام جباية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعاً عظيماً ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ، وأن أبدى إسماعيل من الحرص على حضارة مصر وإصلاحها ما جعل الرجاء فى المستقبل عظيماً . وكان أول ما صنعه إسماعيل مما استراحت له النفوس أن نشر فى الناس على أثر ارتقائه العرش برنامجاً خلاباً كله المبادئ الحرة والوعود المغرية بخير الأمل والإصلاحات الواسعة على أحدث النظم الأوربية . وفى هذا البرنامج وعد بإلغاء السخرة والرقيق والاتجار به ، وبإصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والى مصر . وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التى تترتب حتماً على تنفيذه لما بدا على إسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة . وزاد الناس رجاء فى ذلك ما كانت عليه حال البلاد إجمالاً من الانتظام والطمأنينة .

لكن إسماعيل حرص ، إلى جانب نشر هذا البرنامج ، على نشر حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التى خلفها سلفه سعيد باشا . ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد فى التقديرات الرسمية التى عرفت إلى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات ، فقد ظهرت فى البيان الذى نشرته حكومة إسماعيل باشا أحد عشر مليوناً ومائة وستين ألفاً من الجنيهات . والسبب فى نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها ، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفاً فى ذلك الوقت . وإنما السبب أن إسماعيل باشا كان يرى ما يقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لا سبيل إلى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض . لذلك أراد

أن يبين للناس وللأوربيين خاصة أن سلفه الذى لم يصنع شيئاً لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذى اختاره من طوال القامات ، والذى كان يصحبه أنى ذهب ، هو الذى بدأ سنة الاقتراض وهو الذى اقترض هذا المبلغ العظيم من غير فائدة للبلاد .

والواقع أن مطامع إسماعيل كانت عظيمة تنوء بها موارد مصر. فقد أراد أن يصل إلى ما رمى إليه جده محمد على من استقلال البلاد . لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وأنه على كل حال عرضة لأن يصطدم من معارضة أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده ، وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العالى ، فإذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئاً فشيئاً ثم إنه رأى من جهة ثالثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته إلا أن يظهر أمام أوربا حاكماً غربيًّا يريد الإصلاح بالفعل . فنشر البرنامج المشار إليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الإنسانى على رعاياه ما جلب إليه أنظار أوربا . من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار فى تنفيذ إتفاقية قناة السويس التى عقدت فى عهد سلفه سعيد باشا بينه وبين المسيو فردينان دلسبس لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون فى حفر القناة أشد إرهاق ، يسامون الخسف ويضربون بالكرابيج ويطعمون الزقوم ويكادون لا يقتضون عن عملهم أجراً . ولما استحر الخلاف بين إسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث . ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم إلا على أنه نوع من الكبرياء والغرور . فنابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ما تزال فى كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى إمبراطور فرنسا حمايتها . فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه أنه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرءوس المتوجة أن تنظر فى خلاف بين إسماعيل والشركة الدولية العالمية . وانتهى التحكيم بإلزام مصر بأن تدفع

للشركة تعويضاً عن عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليوناً من الفرنكات ، أى ثلاثة ملايين وثلثمائة وستين ألفاً من الجنيهات . فإذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والإذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الأعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوًّا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات .

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز إلى مصر ومعه الصدر الأعظم فؤاد باشا . فكانت هذه أول فرصة عرضت لإسماعيل كى ينفذ ما جال بخاطره كوسيلة لبلوغ الغاية التى صبا إليها من قبل جده محمد على . ولم يكفه ما أقامه لجلالة السلطان من أعياد فاقت فى الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان الشرقى . بل نفح الصدر الأعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التى أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والى مصر وجلالة السلطان . هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفاً من الجنيهات .

على أن تباشير الخير التى جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء إسماعيل العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلاً . فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيهاً للقنطار إلى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه . وفتكت بالزراعة المصرية آفات أنقصت من دخل الضريبة العقارية واضطرت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الأهالى مما خسرت معه ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً من الجنيهات . ثم إن إسماعيل كان مغرماً أشد الغرام بتملك الأطيان حتى لقد بلغت مساحة « دوائر » العائلة المالكة فى سنة ١٨٦٥ ما يزيد على خمس الأطيان المنزرعة فى مصر الوسطى وفى الوجه البحرى .

ذلك كله مضافاً إلى حاجات الميزانية العادية وما احتاجت إليه الإصلاحات

العامة التى بدأ إسماعيل بالقيام بها تنفيذاً لبرنامجه جعل الالتجاء إلى الاقتراض أمراً لا مفر منه . وقد بدأ إسماعيل فعلاً بالاقتراض منذ ولى الحكم.. فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء إلى المرابين فى مصر غير كاف لحاجاته ، وكان لابد من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة فى أوربا . ولم يجد إسماعيل عنتاً فى استصدار تصريح بالاقتراض من الآستانة . وبذلك استطاع فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٥,٧٠٤,٠٠٠ جنيه .

كيف صور إسماعيل لنفسه برنامج الإصلاحات العامة ، وما هى الطريقة التى أراد أن ينقل بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوربية إلا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل إلى مصر سدًّا لحاجات محمد على الحربيــة ؟ هى صورة غاية فى البساطة . يجب أن نقيم مدناً أوربية النظام فى طرقها وفى عمارتها وفى بساتينها فما يلبث المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الأوربية . ويجب أن ندخل أحدث المخترعات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف فما يلبث الناس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا كأصحابها ، ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه . أما الشعب فلم يكن إسماعيل يأبه له كثيراً لأنه كان كغيره من الحكام الشرقيين إلى يومئذ ، وككثير من الحكام الغربيين إلى زمن غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم . وقد أراد إسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والإصلاح فى سنوات مما لم تصل أوربا لتحقيقه إلا فى قرون ، فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن أوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشئ الدواوين ودور الحكومة ويغرس البساتين ، وجعل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتهيأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل . وطبيعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة

١٨٦٤ أسرع التلاشى وما كثرت معه الديون السائرة التى كان يقترضها من المرابين الأجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد فى الالتجاء إلى أوربا كى يعقد قرضاً آخر.

ولم يكفه قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له فى ثلاث سنوات ثلاثة قروض. قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣,٣٨٧,٠٠٠ جنيه وقرض سنة ١٨٦٦ وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٢,٠٨٠,٠٠٠ جنيه. لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئاً مذكوراً إلى جانب النفقات الباهظة التى كان يقوم بها إسماعيل باشا.

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكاً على بلاد مستقلة استقلالاً داخليًّا على الأقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالى بالآستانة ! ولقد كانت أول خطوة خطاها فى هذا السبيل أن حصل فى سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة فى أبنائه بدلاً من جعلها فى أكبر العائلة كما كانت من قبل. ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعد ما سلخا عنها من بعد حكم محمد على.

ثم إنه من بعد أن حَكّم نابليون الثالث إمبراطور فرنسا فى الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقاً حميماً للشركة وأصبح ينتظر اليوم الذى يعلن فيه افتتاح القناة ليدعو العالم كله كى يشهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويراً من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادى والتجارى تغييراً خطيراً. وكانت سنة ١٨٦٩ هى السنة التى حددت لهذا الافتتاح. وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفدت كلها وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايداً جعل إسماعيل يفكر فى الحصول على المال للظهور بالمظهر اللازم فى حفلة الافتتاح تفكيراً جديًّا استغرق كل مواهبه وكل ذكائه.

وفى هذا السبيل سافر فى سنة ١٨٦٧ إلى أوربا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا . وكان معه فى هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والقدير بدهائه وخبثه على القيام بأعمال فى السياسة جسام . وفى هذه الزيارة بدئ الحديث فى مسألة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية . فقد كان إلى يومئذ كما كان إلى يوم إلغائه فى تركيا قائماً على القاعدة القانونية التى تقرر أن المدعى يقاضى المدعى عليه أمام قضاته . وكان من أثر ذلك أن شعر الأجانب أنفسهم بالارتباك فى مقاضاة بعضهم بعضاً . فاستقر رأى إسماعيل ووزيره على إقامة نظام المحاكم المختلطة فى مصر ، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشئون الجنائية كذلك . ومنذ هذه الزيارة التى قام بها إسماعيل لأوربا فى سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائى فى شأن الأجانب ، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانى سنوات حتى كللت بالنجاح فى سنة ١٨٧٥ . لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ . إنما المسألة الجوهرية كانت الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه إسماعيل باشا المفتش وزير مالية إسماعيل ولتحضير حفلة افتتاح القناة فى رأى المستر كيف الذى حقق أسباب ديون إسماعيل فى سنة ١٨٧٠ كما سنرى ، وقد نجح إسماعيل فى عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١,٨٩٠,٠٠٠ جنيه والمتحصل الحقيقى منه مبلغ ٧,١٩٣,٣٣٤ جنيه . وقد قبل إسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدانة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على أنه كان فى أشد الحاجة إلى المال . وكان افتتاح القناة فى ذلك الظرف هو شاغل إسماعيل الأكبر.

فلقد حرص على أن يدعو إلى هذه الحفلة كل الرءوس المتوجة فى أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة فى العالم . وكان أكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعاً كيف نقل مصر من بلاد شرقية أفريقية فجعل منها بلاداً غربية متحضرة . وفى

الحق أنه أعد لهذا المظهر خير عدته . فقد بنى فى القاهرة قصوراً تضارع أفخم قصور المدائن الأوربية العظمى . بنى قصر الجيزة الذى انقلب فى العهد الأخير حديقة للحيوانات ووصل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل . وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيراً إلى الأمراء آل لطف الله . وبنى غير هذين من القصور الشاهقة ومن دواوين الحكومة ما تعتز بمثله مدائن أوربا . ثم أعد مسرح الأوبرا وكلف الموسيقى الإيطالى الكبير فردى فوضع أوبرا عايدة لتمثل فى أثناء حفلات الافتتاح . وأنشأ حديقة الأزبكية فى وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة فى العواصم الكبرى . وليتيسر للزائرين وبخاصة الإمبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الأهرام فى أشهر معدودة . هذا إلى ما مد من خطوط السكة الحديدية ، وإلى ما شيد من مدينة الإسماعيلية على ضفة القناة ، كما أنه كان قد أنشأ فى مختلف أنحاء القاهرة كثيراً من المدارس الجديدة ، كما أعاد المدارس التى كانت قد أنشئت فى عهد جده محمد على باشا واضمحلت من بعده . فأنشأ مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والألسن والعمليات والإدارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس كثيرة أخرى فى القاهرة والإسكندرية والأرياف . وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وأن يريها لملوك أوربا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبوعه الأعظم سلطان تركيا ، وأنه إذا طلب يوماً أن يستقل بحكم مصر فطلبه لا شىء من المبالغة فيه .

وسافر من جديد إلى أوربا سنة ١٨٦٩ وعاد بعد ما دعا كل الرؤوس المتوجة إلى حضور الاحتفال بافتتاح القناة . وقد أجاب الدعوة منهم عدد غير قليل . ثم تم افتتاح القناة فى خمسة أيام . ففى ١٦ نوفبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويتقدمها (النسر) سفين الإمبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث التى جاءت بالنيابة عن زوجها وقطعوا

المسافة من بور سعيد إلى الإسماعيلية فى ذلك اليوم . وبعد أن أقيمت فى الإسماعيلية أعياد استمرت يومى ١٧ و ١٨ نوفمبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفمبر . ولم يكتف إسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام أنحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضارع حضارة أوربا . وقد كلفته هذه الأعياد الباهرة ، حسب التقديرات الرسمية ، أربعة ملايين من الجنيهات .

وانتهت الأعياد وأضواؤها الباهرة وابتساماتها الخلابة وأجال إسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فإذا خزانة الدولة قفر ، وإذا هو فى أشد الحاجة إلى المال . ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد فى عقد سنة ١٨٦٨ بألا يعقد قرضاً جديداً قبل مضى سنوات خمس . فلجأ إلى المرابين من جديد ولجأ إلى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه . فكان يبيع آلاف الأرادب من الغلال قبل زرعها ويقبض ثمنها ، فإذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجبى من الضرائب غلالاً ثم اشترى الباقى بأسعار أعلى بكثير من الأسعار التى باع بها . ولجأ إلى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا برغم ما أصاب وزراؤه من أموال إسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه .

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة إسماعيل الصلب ولم يثن من إرادته . يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولمضاعفة هذا البذخ الذى كان يعيش فيه والذى اضطره لنثر الذهب من الأبواب والنوافذ نثراً . وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من أتباعه الذين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجوارى اللاتى كانت تترنم بأصواتهن قصوره : إن سيدكم قد عرف أخيراً كلمة المستحيل . كلا ! ليس هذا من خلق إسماعيل . فليعقد إذن قرضاً ترهن أملاكه الخاصة لسداده . وعقد بالفعل قرضاً خاصًّا فى سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيه والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين جنيه .

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمى بنظره إلى التوسع الاستعمارى . ولقد أصاب من ذلك حظًّا من النجاح غير قليل . ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصفى لمصر كل الشواطئ الشرقية من السويس إلى رأس غردفوى وحاصر بربر وزيلع . وفى سنة ١٨٧٤ ضم دارفور إلى مصر واحتل هرر . وقد أدى احتلال هرر إلى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه ، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه . على أن ذلك لم يصدها عن التوغل جنوباً إلى حدود الأوغندة . وكان من أكبر رجال إسماعيل المسئولين فى السودان صمويل بيكر والكولونيل جوردون . ولعل ذلك كان أول ما دعا إنجلترا لتفكر فى هذا القطر النائى ، وكان السبب فى السياسة التى رسمتها لنفسها فيه والتى أدت إلى مركز السودان الحاضر[1] .

وكانت هذه الأعمال ، وكان إسراف الحكومة فى مصر ، وكانت نفقات إسماعيل ومن حوله ، تجعل كل مبلغ ضئيلاً لا يقوى على سدادها . لكن إسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التى استدانها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير فى السعى للتخلص منها . ولعله كان مخلصاً فى سعيه وإن كانت كل الوسائل التى ابتدعت لجلب المال لم تنجح فى أكثر من أن زادت الخديو مطامع وسرفاً . وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة . وخلاصته : أن ديون مصر إلى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فإذا دفع الملاك ضعف الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبداً من نصف الضريبة التى عليهم . وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلب ولى الأمر . وبدأت الحكومة فعلاً تسدد الدين السائر . لكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتها مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليوناً من الجنيهات .

---

(١) الإشارة إلى نظام الحكم الثنائى الذى ظل قائماً فى السودان حتى حصل على استقلاله فى سنة ١٩٥٦ .

ولما كان موعد الخمس السنوات المحدد فى عقد قرض سنة ١٨٦٨ قارب الانتهاء رأى إسماعيل أن يستأذن الباب العالى فى قرض جديد يوحد به ديونه . واتفق فعلاً مع بيت أوبنهيم الذى أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضاً جديداً قيمته اثنان وثلاثون مليوناً من الجنيهات لهذا التوحيد . على أن كل ما حصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠,٨٤٠,٠٧٧ جنيه . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليوناً .

ثم إن الخديو كان قد اضطر إلى إنفاق مبلغ ضخم فى الآستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة فى بكر الأبناء على نحو ما صدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لمصر استقلالها الداخلى حتى لم يبق لتركيا إلا أن تسك العملة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة . وزاد هذا المبلغ فى مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازى نصفه . لذلك لم يفلح القرض فى سداد الدين السائر . واستمر إسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسماها فى هذه المرة سندات الرزنامة . وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣,٣٣٧,٢١٠ جنيه فلم تكف هى الأخرى مضافة إلى الدين الجديد لسداد الديون السائرة ، ولم يبق أمام إسماعيل إلا بيع أسهم الحكومة فى قنال السويس . ولقد عرضها للبيع فى السوق العالمى . لكن إنجلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت فى وجه فرنسا واشترت الأسهم من إسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة فى عام ١٨٧٥ .

وفى هذا العام الذى أطل فيه الخراب محدقاً بعينيه البشعتين فى وجه إسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من جانب فرنسا ، وافتتحها إسماعيل وهو مايزال يأمل فى أن أعمال الحضارة التى قام ويقوم بها فى مصر تسمح له أبداً بأن يجد من الدائنين من يثق به ، ناسياً أنه كان قد رهن كل إيرادات الدولة وكل

أملاكه الخاصة وأن الثقة به تزعزعت فى كل مكان . لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذى نشره إسماعيل لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها : فى السودان وفى تركيا وفى فرنسا وفى إنجلترا وفى كل بلد حلت به رحاله أو كان له دائنون فيه .

سنة ١٨٧٦ ! نعم هى السنة العصيبة فى حياة إسماعيل لأنها السنة التى بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة . والعجيب أنه واصل هذا الصراع ومايزال واثقاً من نفسه ومن حيلته . لذلك كان إذا اضطر إلى الإذعان يوماً لم يكن ذلك منه حرصاً على الوفاء ولكن انتظاراً لفرصة النكث والأخذ بالثأر . لكن خصومه كانوا أقوى منه أضعافاً برغم أنه كان فى داره . وعلى الرغم من كل الوسائل التى لجأ إليها فقد انتهى آخر الأمر فأسلم نفسه للمقادير التى قضت بخلعه وإبعاده عن بلاده بقية حياته .

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن إسماعيل هو الذى ألقى لأوربا بأول فكرة للتدخل فى شئونه وشئون مصر تدخلاً ينتهى فى أمره هو إلى الخلع ، وفى أمر مصر إلى الخضوع لنير أوربا أولاً وإنجلترا أخيراً . ذلك بأنه لما ثقل حمله وأيقن أن لا وسيلة إلى الاقتراض من جديد إلا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقته الصدوق فرنسا فألفاها ماتزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ . عند ذلك فكر فى مصادقة إنجلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر فطلب إليه أن يعين إنجليزياً مستشاراً للمالية المصرية . وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الإنجليزى . فبعث القنصل بخطاب إلى حكومته كطلب إسماعيل . وأهملت إنجلترا الخطاب حتى اشترت أسهم القناة . يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت إلى مصر ببعثة لفحص شئونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف .

ولم يترك إسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته إلا بذلها . وقدمت اللجنة تقريرها إلى الحكومة الإنجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديو حرجاً . ولقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لا يزيد المركز سوءاً وأنه على العكس من ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر إنما أنفق أكثره فى أعمال مثمرة إن لم تظهر نتائجها بعد فهى على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه . على أن التقرير استظهر دقة حال مصر وأشار بأن لابد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعاً ٧ فى المائة . ولم يعجب إسماعيل هذا الرأى وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك إشهار إفلاسه أسوة بمتبوعه الأعظم سلطان تركيا . لكن سرعان ما أدرك خطر ما اندفع إليه فتلافاه بأن أصدر قانوناً فى ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبإنشاء صندوق خاص بعملياته . وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الأجانب بالاتفاق مع دولهم . وهذه أول خطوة من خطى التسليم والخضوع لأوربا ولتدخلها فى شئون مصر الداخلية .

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التى بنى عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعيين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية . فذهب المستر جوشن والمسيو جوبير مندوبين عن الدائنين لإجراء هذا الفحص . وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون إسماعيل الخاصة ويزيد فى اختصاص صندوق الدين وينشئ منصبى المراقبين العامين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى يراقب أحدهما كل إيرادات الدولة ويراقب الآخر كل مصروفاتها ، وينشأ كذلك إدارة للسكة الحديدية مكونة من إنجليزيين ومصريين وفرنسى واحد ، على أن يكون الرئيس إنجليزيًّا . وبهذا الدكريتو أصبحت الحكومة المصرية فى يد صندوق الدين والمراقبين الأجانب وأصبح إسماعيل صورة لا يطلب منها إلا أن تكف عن الأذى . وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ إسماعيل

يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق إلى هاوية الفناء .

أين كان الشعب المصرى فى أثناء ذلك كله ؟ لم يكن فى نظر إسماعيل شيئاً إلا أنه العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لإقامة الميزانية . ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة ، وإنما كانت ميزانيتها ما تتطلبه شهوات عاهلها الذكى القاسى . ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى أن يقول إسماعيل : «أريد» لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ إرادته . والناس على دين ملوكهم . فكان كل موظف فى الحكومة كإسماعيل شهوة وقسوة . وكان ما يطلبه إسماعيل يجبى من الناس أضعافاً مضاعفة سدًّا لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة . والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط جلودهم ويدمغ جباههم . ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم فى غيابات السجن يذوقون فيها أشد العذاب . . ولم لا ؟ أليس عزيز مصر وولى أمرها يريد . (وأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسُولَ وأُولى الأَمْرِ مِنْكُم) . فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب . وأى عذاب وأية لعنة ! كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين إلا قليلاً . فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك فى نفوسهم بإزاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الإنسانية ، بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين . وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد على عقولهم أقفالها ، لا يعصون إسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

لذلك كان طبيعيًّا ألا يتحرك الشعب لتدخل الأجنبى فى شئونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامه هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا فى شأن الحكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لا يكفى ليقوم شعب هدَّه الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه فى العقيدة ، وبخاصة إذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والأذى .

وبدأ إسماعيل يشعر بهذا ويحسه فى أعماق نفسه ، جلس حسيراً فى قصره مغلولة يده يشهد بعينى رأسه ماجر إليه بذخه وإسرافه من خراب ، وسمح لأذنه أن تسمع لأول مرة ما يضج به الناس من ألم وشكوى . وماذا يعنى الناس من قصور تشاد وحدائق تغرس وجسور تمد فوق النهر وألحان تعزفها الحسان إذا كان ذلك كله يشاد من دمائهم ويمد على أكتافهم ؟ وزاد إسماعيل شعوراً بالكارثة أن استنفدت أقساط الدين كل الضرائب التى جمعت على النحو الذى كانت تجمع به من قبل من وسائل الإرهاق ، ولم يبق منها شىء يدفع للموظفين ولا للجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأى على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد . وفى سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها دكريتو ٢٧ يناير من تلك السنة . وفى ٣٠ مارس صدر دكريتو آخر يجعل للجنة أوسع السلطة . وتشكلت من مسيو دلسبس رئيساً ومن مستر ريفرس ولسن نائب رئيس ، ومن أعضاء صندوق الدين الأربعة . وبدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هى وضع قرار اتهام إسماعيل . وبعد انتهائها من الفحص قدمت تقريراً مبدئيًّا كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديو واعتباره مسئولاً عن حرج مركز مصر ، واقترحت لذلك إجراء إصلاحات فى التشريع المالى بالنسبة للضرائب وأن تخصص إيرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧,٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز فى الميزانية .

تردد إسماعيل بادئ الرأى فى قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى تردده لا يفيد شيئاً بعد أن أصبح الأمر كله للمراقبين ولصندوق الدين ، وأنه إذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه باباً جديداً للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الأخرى فى تدبير وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التى غلت يده . وتحت ضغط نوبار باشا أعلن إلى المستر ريفرس ولسن فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ قبوله

اقتراحات اللجنة . وفى ٢٨ أغسطس أصدر الأمر العالى المشهور بإنشاء وزارة (يحكم هو معها وبواسطتها وتكون متضامنة فى مسئوليتها) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستعان فيها بالمستر ريفرس ولسن .

ومنذ طلب نوبار باشا إلى المستر ريفرس ولسن معاونته فى الوزارة قام الأخير بالمفاوضة لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية . وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر إسماعيل دكريتو ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ يتزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن أملاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥,٧٢٩ فدان خلا العقارات ، واعتبرت هذه الأملاك ضامنة للقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد .

وفى شهر أكتوبر أصبح المستر ولسن وزيراً للمالية والمسيو دبلنيير وزيراً للأشغال العمومية وألغيت بذلك المراقبة الثنائية على إيرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود إذا عزل هذان الوزيران الأوربيان من منصبيهما من غير موافقة إنجلترا وفرنسا . وجعلت هذه الوزارة المختلطة جل همها أن تسدد الديون وأن تتلافى عجز الميزانية . والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغاً ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانية ملايين . وكذلك وقفت الوزارة المختلطة بعد ثلاث سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التى سبقتها وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت إلى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت إليهما أشد الحكومات عسفاً واستبداداً . وزاد الموقف حرجاً أن رأى وزير المالية الإنجليزى الاستغناء عن ألفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متأخرات رواتبهم لأكثر من سنة كاملة . هنالك هاجوا وقاموا ومن بينهم أحمد عرابى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بمظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضرباً . ولما نمى الخبر إلى إسماعيل جاء بنفسه . فلما رآه الضباط وأمرهم بالانصراف لم يعص أمره منهم

أحد مما دل على أن له فى تدبير هذه الفتنة يداً . وقد ثبت بعد ذلك أنه كان المدبر لها بالفعل بأن أوعز إلى أكثر الضباط إقداماً وجرأة بالقيام بها .

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين . ولعل ذلك هو الذى أدى إلى استمرار الحركة فى المستقبل والذى كان نواة الثورة العرابية . فإن الموظفين والضباط من الشركس والأتراك والأرمن وغيرهم – ممن كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب – شعروا بفشلهم وبعجزهم إذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة . ثم إن ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر أدى إلى تحرك العناصر القومية الصميمة فى البلاد . فقد طلب إلى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها . هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجاً ماليًّا يخالف برنامج ولسن محتجين على القول بإفلاس مصر . ولم تكن يد إسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج . ثم لم يكتف النواب ببرنامجهم الذى تقدموا به ، بل تقدموا كذلك بعرض للخديو يبينون فيه استياءهم من الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم . وانضم الخديو لهذه الحركة وعضدها ، لأنه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته إليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت إلى أيدى الأجانب . وبلغ من تعضيده إياها أن رفض النواب الارفضاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن إليهم انتهاء الدورة . وكذلك أصبح هذا المجلس الذى خلقه إسماعيل فى سنة ١٨٨٦ صورة يوهم بها الدول الأوربية أن مصر أصبحت بالفعل جزءاً من أوربا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته . فقد احتج فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لأنها لم تكن تعترف بوجوده و بمسئوليتها أمامه . وفى ٥ أبريل طلب إلى الخديو تعديل قانون الانتخاب وإعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب . ولم يقف عند ذلك

بل احتج على بقاء الوزارة المختلطة وبالتالى على وجود ولسن ودبلنيير فيها . ولم يلبث إسماعيل أن أبلغ هذا الاحتجاج حتى عزل الوزارة وعهد إلى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة . وفى الشهور الثلاثة التى انقضت بين توليها وخلع إسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب ، كما نشرت فى ٤ يونية لائحة مجلس شورى النواب الأساسية وفيها تقرر الحصانة البرلمانية وتحدد عدد النواب وتنص على المسئولية الوزارية ، ومع أن هذه الوزارة كانت جادة فى عملها ، ومع أنها سبقت هذا التشريع النيابى بتشريع مالى صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩ يكفل للأجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثنائية وصندوق الدين فى اختصاصها الواسع فإن أوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى نتائجه ، وإن خيراً للمصالح الأوربية الوقوف فى سبيله . فبدأت ألمانيا والنمسا بالاحتجاج فى ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ أبريل بدعوى أنه مخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديو . وفى ١٨ يونيو احتذت وزارتا باريس ولندرة مثال ألمانيا والنمسا . وقد حاول إسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتو ، لكن حركته هذه لم تنجح .

وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع إسماعيل . ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للأمة وإظهاره العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح إسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان . لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش . لكن إسماعيل لم ينظر إلى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ إلى جلالة سلطان تركيا آملاً أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر . وهنا خاب فأله . فقد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافاً بعزل إسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه . وعلى أثر ذلك أقلع إسماعيل من الإسكندرية قاصداً إيطاليا وقلبه خافق

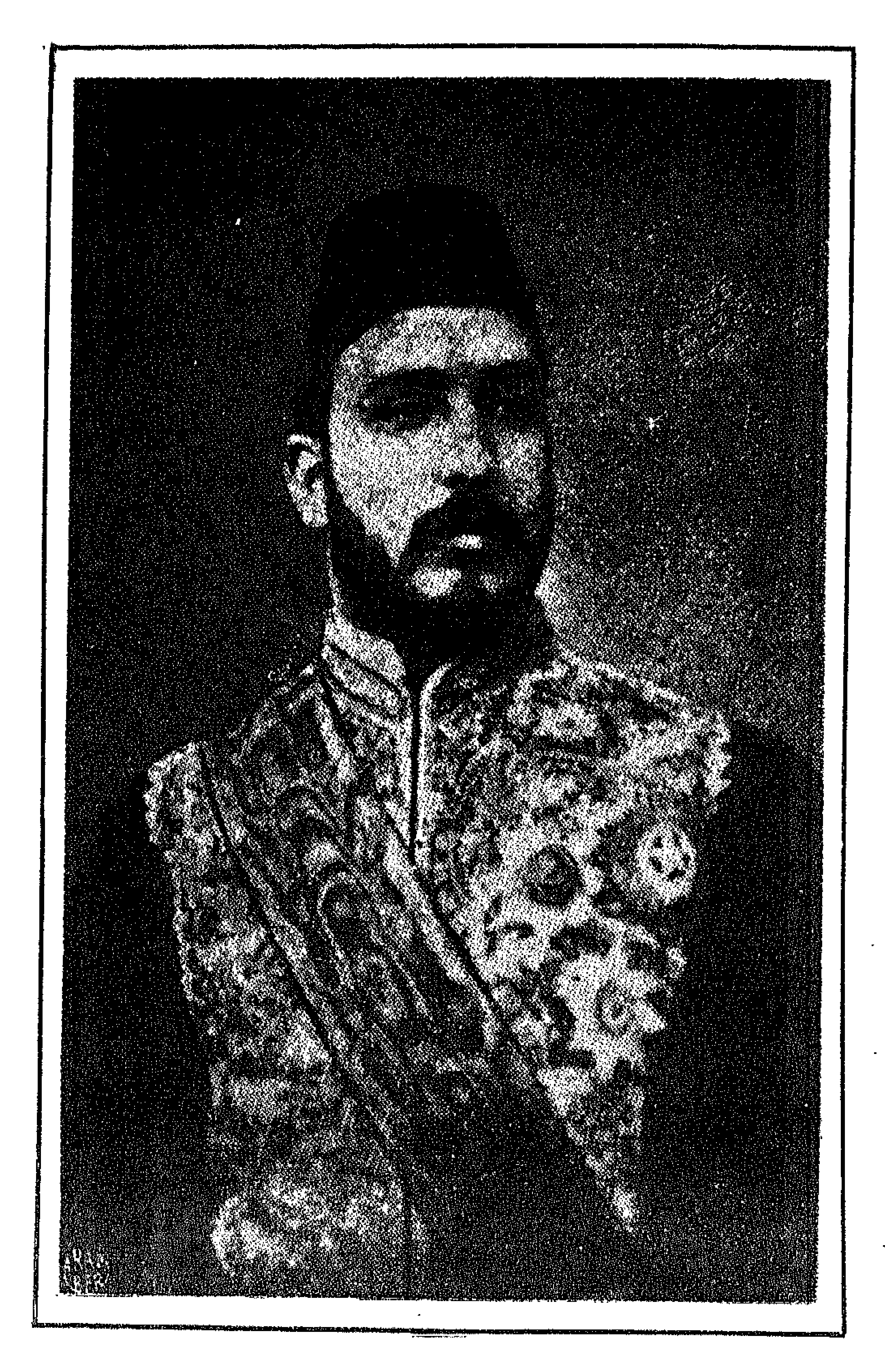
وعيونه هامية بالدمع . وأقام فى إيطاليا زمناً ثم انتقل إلى الآستانة إذ أقام بها فى قصر «أمر جيان» على شواطئ البوسفور حتى جاء أجله فى ٢ مارس سنة ١٨٩٥ .

* * *

وكم دار بخاطره فى هذه السنوات الأربع عشرة التى انقضت بين عزله وأجله أن يعود إلى نضال يسترد به عرشه . وكان أول ما صنع من ذلك أن بعث إلى السلطان بالآستانة على أثر وصوله إلى نابولى رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الإصلاح فى وادى النيل وما قام به من فتح السودان إلى خط الاستواء حيث خفقت الراية العثمانية من تلك الأنحاء فى ربوع لم تخفق من قبل قط عليها . لكن السلطان لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه . بل نسى كل ماضى إسماعيل وما أغدقه على الآستانة ورجالها من مال وأنعم . وما باله يعبأ به وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ولا يملك لمتبوعه العظيم رشوة ولا هدية . وأصحاب العروش لا يعنون إلا بصاحب القوة ماداموا يهابون قوته ويطمعون فى خيره ومعونته . ونال ذلك من نفس إسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر . هنالك حز الألم فى نفسه واذكر أنه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال . ولو أنه قاوم فربما كان له من الأقدار عون يستبقى نجمه عالياً . أما ولم يفعل فليس له أن يرجو من الأقدار مدداً وهى لا تمد الضعيف أو الخائف وإنما تحارب فى صف الشجاع المقدام .

ومنذ دخل الإنجليز مصر محتلين خيم اليأس على كل آماله فى استعادة ملكه . فظل فى إيطاليا حتى انتقل إلى الآستانة ليلقى فيها منيته وليكون فيها أسير عطف الأتراك الذين طالما تمتعوا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولايته .

الخديو توفيق باشا



ثلاثة عشر عاماً تولى فيها توفيق أمر مصر كان خلالها فى زهرة شبابه بين السابعة والعشرين والأربعين . لكنه كان فيها كذلك بين عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها إلا نابغة محنك . كان فيها بين تركيا الناقمة لضعف سلطانها فى مصر ، وإنجلترا الطامحة إلى بسط نفوذها نهائيًّا على وادى النيل ، وفرنسا المكتئبة لتقلص مكانتها رويدا رويداً من أرض الفراعنة ، والأمة المصرية المثقلة بديون إسماعيل باشا وظلم حكامها والمتأججة نفوس أهلها بالثورة طمعاً فى الاستقلال والدستور . وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمومته وبحقد أهله عليه ، ويود لو أنه كان فى مكانة أبيه بطشاً وسلطاناً ، ويخضع للأقدار التى لم تهبه من سعة الذكاء ما وهبت غيره ، ولتربيته الشرقية البحتة التى اقتضت ألا يغادر مصر وألا يتصل بالمدنية الأوربية اتصال إخوته ، وللظروف التى جعلت تتقاذفه منذ ارتقى عرش أبيه فتصدمه بكل

واحد من العوامل المحيطة به ، لينتهى به الأمر إلى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبيًّا هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير . وليودع العالم فى الأربعين من عمره فيلقى بمصائر مصر بين يدى ولى عهده الفتى عباس وما يزال فى الثامنة عشرة من عمره .

* * *

ولد توفيق باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من إسماعيل مع إحدى جواريه التى لم تنل منه إلا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجاً . ولم يكن إسماعيل يومئذ وارثاً لعرش سعيد أن كان أحمد أكبر العائلة ما يزال حياً . لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر أحد إلا ما كان من زراية أميرات العائلة المالكة لأمه . فلما حصل إسماعيل على فرمان وراثة العرش للولد الأكبر انقلبت الزراية للأم حقداً على الابن . وشارك إسماعيل أهله فى عدم عطفهم على توفيق وإن لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم . وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته إياه فى عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده . وقد كان يستطيع ذلك اعتماداً على أمومة توفيق أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر فى تركيا ، لكنه لم يكن يتعجل النظر فى أمر لم يكن فى حسبانه وقوعه قبل زمان طويل . وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه فى قصر له مقتصراً على إدارة أراضيه .

على أن عزلة توفيق وعدم إغداق أبيه أسباب الرضا عليه جعله ينظر إلى ما صنع أبوه من استدانة ومن إرهاق للمزارعين والفلاحين ومن بطش بالناس جميعاً نظرة مصرى لا نظرة ولى عهد . لذلك اتصل بطائفة من الناقمين على الحال التى آلت مصر إليها ، أمثال السيد جمال الدين الأفغانى واللقانى والشيخ محمد عبده ومن كان يلوذ بهم من أمثال عرابى ، وانخرط فى سلك الماسونية الذى انخرطوا فيه . فلما اضطر إسماعيل تحت ضغط الدائنين إلى أن يعين نوبار باشا رئيساً للوزارة المسئولة الأولى

وأن يضم إليه مستر ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير ، الأول وزيراً للمالية والثانى وزيراً للأشغال ، ثم لما رأى أن الحال المالية فى البلاد تزداد كل يوم سوءاً برغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملاكه ، ورأى الشعور العام ضد التدخل الأجنبى يزداد فى البلاد كلها ، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وإنجلترا على تعيين ولى عهده توفيق باشا رئيساً للحكومة . على أن ولى العهد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تهيج الشعور العام بإزاء ما كان يعتزمه السير ريفرس ولسن كعضو فى لجنة التحقيق الدولية من إعلان إفلاس مصر. لذلك لم يجد الوزيران الأوربيان من رئيس الوزارة الجديدة مؤيداً قويًّا لهما . وعلى أثر إعلان وزير المالية تأجيل دفع الفوائد المستحقة للدائنين فى شهر أبريل تقدمت عريضة من العلماء والوجهاء والنواب ورجال الجيش يحتج فيها مقدموها على هذا التصرف ويطلبون إلى الخديو أن يلجأ إلى نوابه للخروج من المأزق ، وعلى ذلك استقالت وزارة توفيق من غير أن تفعل شيئاً ، وكلف إسماعيل شريف باشا بتأليف وزارة تكون مسئولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يستطيع أن يقوم بما تقتضيه الأحوال وأن يحقق الأمانى القومية .

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومى الذى أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الأجانب فى الإدارة المصرية ، والذى انتهى بتركيا إلى عزل إسماعيل باشا فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وإلى إرسال برقية فى اليوم نفسه إلى توفيق باشا تعلن فيها إسناد منصب الخديوية المصرية إلى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله : «والأمر والفرمان فى كل حال لمن له الأمر أفندم » .

كانت هذه الضربة الحاسمة غير المنتظرة من جانب تركيا منبهة لكل من يعنيهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكى يقفوا على حذر . ومع أن توفيق باشا فوجئ بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذى أبلغه إليه أسوأ مقابلة بأن صفعه ،

فإنه شعر من ذلك الحين بأن التركة التى آلت إليه أعباؤها تركة مبهظة مخوفة . ترى ماذا عساه يصنع بإزاء أبيه ، وبإزاء تركيا ، وبإزاء الدول وتدخلها فى شئون مصر ، وبإزاء الأمة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟

أما إسماعيل فأيقن أن لا مفر له من الانحناء لعاصفة لم يكن يستطيع مواجهتها وإن لم ينقطع رجاؤه فى العود يوما ما إلى هذا العرش الذى انتزع منه اغتصاباً . لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجل فى عظمته وفى قوته أن يواجهها به ، وأظهر من العطف على ولى عهده ما لم يكن له من قبل به عهد . وفى الأيام التى انقضت ما بين تبوؤ توفيق عرش أبيه وسفر إسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الأبوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون فى مثل هذا الظرف العصيب .

اطمأن توفيق إذن من هذه الناحية . ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتنازل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لأبيه كى تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه . ولمناسبة رفع مرتبات البيت الخديو إليه أراد فى نفس الوقت أن يظهر للأمة حرصه على مصلحتها ومشاركته إياها فى متاعبها المالية فأمر بإلغاء الراتب المعين لوالدته وحرمه وقدرهما خمسة وخمسون ألف جنيه .

بعد ارتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفكر فى الاستفادة من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذى جعلها مستقلة استقلالا داخلياً تاماً فيما عدا سك العملة ودفع الجزية ، وقد أثار هذا الخبر فى مصر قلقاً غير قليل . على أن فرنسا وإنجلترا عارضتا الباب العالى فيما أظهره من عزمه وأنبأتا ممثليهما فى مصر بأنهما معتزمتان فيما إذا لم يكرر السلطان أحكام فرمان سنة ١٨٧٣ فى الفرمان الذى يوجهه إلى الخديو توفيق أن تطلبا الاستقلال التام لمصر . وقد اختلف فى الأسباب التى دعت تركيا إلى هذا التصرف : أهى كانت تريد بالفعل إلغاء الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها مصر فى أثناء ولاية إسماعيل باشا أم هى كانت

تتذرع بالمطل والتسويف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت فى ذلك الوقت حوالة على مصر أبت الحكومة المصرية قبولها بسبب ارتباكها المالى . على أن هذا التسويف طوع لفرنسا ولإنجلترا أن تتدخلا وأن تطالبا الباب العالى بإبلاغهما فرمان تولية الخديو كوثيقة دولية وأن تثبتا بذلك حقوقهما فى التدخل فى شئون مصر للمحافظة على حقوقهما بإزاء تركيا استناداً على ما كان من تدخلهما للمحافظة على مصالح رعاياهما الدائنين للحكومة المصرية . وكان من أثر ذلك أن شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه وحقوق البلاد التى ولى عرشها .

ولم يصل الفرمان بتولية الخديو الجديد إلا بعد شهرين من ارتقائه عرش أبيه . أى فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ .

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة ما تزال . فهو حين ارتقى العرش كان فى زمرة الماسون الذين يناصرون الحرية والعدالة . لذلك وجه خطابه إلى شريف باشا لتشكيل الوزارة الأولى فى عهده مقدراً للأمة معتمداً عليها ذاكراً « إنى عظيم الميل لبلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى أظهرت السرور بولايتى عازم عزماً أكيداً على التماس أحسن الوسائل لإزالة الاختلال المفسد لكثير من المصالح . . . إلا أن إدراكى لهذه الغاية التى هى موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها » .

وتحقيقاً لهذه السياسة تألفت لجان من الأوربيين غايتها تقديم العرائض إلى قناصلهم يلتمسون بها من دولهم منع تدخل الأجانب فى أحوال مصر وقصر النظر فيها على الوطنيين . ثم إن توفيق باشا تحدث فى ذلك الظرف إلى مكاتب التيمس فأشار بادئ ذى بدء إلى أنه لا يبرح مقيد اليد فى العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه . لكنه مع ذلك صرح للمكاتب بأنه لا يريد الرجوع إلى تعيين وزراء أوربيين ، بل ينبغى أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصح أن يعاونها رجال من الأوربيين فى

الإدارات على أن يكونوا موظفين مصريين لا أكثر . أما سير ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير شخصياً فقد صرح توفيق بأنه يعارض أشد المعارضة فى رجوعها أياًّ كانت صفتها ، لأن رجوعها يكون مخالفاً لمصلحة مصر على خط مستقيم . وطلب الخديو إلى الدول فى حديثه هذا أن تمهله بضعة أعوام « فنحن فى مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن تمسك على وعلى مصر طريق النجاح »

وكان من أثر هذه الخطة وتلك التصريحات أن هدأت أعصاب المصريين التى كانت متوترة فى الأيام الأخيرة من عهد إسماعيل . فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجند المجتمعين تحت السلاح وإنقاص الجيش العامل إلى اثنى عشر ألفاً وتأخير صرف مرتبات الكثيرين ، أمسك الرجاء بالناس عن أن يلجأوا للهياج . لكن نيات توفيق باشا الديموقراطية لم تلبث إلى أكثر من وصول الفرمان بتثبيته على عرشه . ففى مساء اليوم الذى عاد فيه مندوب السلطان الذى كان يحمل هذا الفرمان قافلا إلى تركيا بعد حفلة تلاوته أقيلت وزارة شريف باشا وألف توفيق باشا وزارة تحت رئاسته مباشرة . والحجة التى روجت تبريراً لهذا التصرف إنما هى إرادة الخديو تعجيل الإصلاح . أما الحقيقة فعدم رضا توفيق عن ميول شريف باشا الدستورية ، فنى الخطاب الذى أرسل به الخديو إلى كل من وزرائه الجدد معنى قصده العودة إلى حكومة الفرد . فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق شئون وزارته ومعلوماتها عند حضوره إلى المجلس لعرضها . على أن توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال . لذلك بعث بتلغراف إلى رياض باشا الذى كان متغيباً هو ونوبار باشا ، أو قل منفيين فى أوربا ، يستقدمه إليه لعلمه بعدم ميل هذا الوزير إلى حياة الشورى ، فلما حضر فى أوائل سبتمبر عهد إليه بتشكيل الوزارة وقطع على نفسه العهد باحترام إرادة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ التى قررت مبدأ مسئولية الوزارة وتضامنها . وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة فى مناصبها زار

توفيق ، جرياً على سنة أسلافه ، أنحاء ملكه فى الوجهين القبلى والبحرى وقضى فيهما أشهراً وعاد منهما فى أوائل مايو سنة ١٨٨٠ .

وكان الهدوء شاملا أنحاء مصر فى هذه الفترة . لكنه كان هدوء تربص وانتظار . ذلك بأن المسألة الشائكة التى انتهت بعزل إسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق ، وكانت لا تؤذن بخير كثير. فعلى الرغم مما أعلنه الخديو لمكاتب التيمس من المعارضة فى عودة ولسن ودبلنيير بعد فشل سياستهما المالية فى مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على إعادة المراقبين أن يعين أحد غير مسيو دبلنيير. أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنج (لورد كرومر) وتم تعيين المراقبين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وباشرا عمليهما وانتهيا بتقديم تقرير إلى الخديو فى أواخر عام تعيينهما يقترحان فيه تعيين لجنة تصفية للدين المصرى كله. وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعينت اللجنة فى ٣١ مارس برئاسة السير ريفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها . وإذن فقد رأى توفيق نفسه بإزاء حالة كان يراها أول جلوسه على العرش مخالفة لمصلحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها نقضاً .

وقدمت لجنة التصفية تقريرها فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فوراً وأطلق عليه اسم قانون التصفية . وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٨,٧٤٨,٩٣٠ جنيهاً . وقد روعيت فى هذا القانون ، كما روعيت فى كل تصرفات ممثلى الدول الأجنبية مصالح الدائنين الأجانب على حساب نظام الحكم فى مصر ، وبالرغم مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا الدين لم يدفع إلى مصر لم يفكر أحد فى إلزام الدائنين بالتنزل عن شىء من الديون الاسمية التى كانوا يقتضونها من مال المصريين ومن دمائهم . ولما كان تدخل الأجانب مثيراً لعواطف المصريين فى عهد إسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد

هدأة التربص. وبدأت العاصفة تتكور فى الجو لتؤذن بالانفجار عما قريب.

وبدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش تبرماً سببه امتهان العنصر المصرى فيه لمصلحة الأجانب من الأتراك والجراكسة. فلما سرح إسماعيل باشا فى أواخر أيامه ألفين وخمسمائة من الضباط أكثرهم مصريون كان إخوانهم يشعرون بالألم من أجلهم ويخشون أن يصيبهم مثل نصيبهم. على أن ارتقاء توفيق إلى العرش واستيزاره شريف باشا هدأ الحالة زمناً. فقد ظن الناس أنهم حاصلون على هيئة نيابية خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتمنع تدخل الأجانب وتعيد العدل إلى نصابه. فلما عين رياض باشا وعين معه فى وزارة الحربية شركسى قح هو عثمان رفقى، يمقت المصريين ويمتهنهم، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن الحكم النيابى بل عن شورى النواب نفسه، ثم لما بدئ بتنفيذ قانون التصفية وتبين أن حال مصر المالية لم تفد منه خيراً — لما حدث ذلك كله كان المدنيون وكان رجال الجيش تغلى فى صدورهم مراجل الحقد وتتأجج نفوسهم بنيران الثورة.

وعجيب أن يحدث ذلك كله بأعين توفيق فلا يراه ولا يقدر مداه، بل يندفع فى التيار العجيب الذى اندفع فيه مخالفاً بذلك كل ما أظهره من الميول أول جلوسه على عرش أبيه. فهذا الميل الشديد لتحقيق آمال الأمة وهذا الاعتماد على معاونتها قد انقلب فجأة عقب وصول الفرمان إلى إعادة حكومة الفرد ثم إلى إسناد الوزارة لنصير قوى من أنصار النظام المطلق. وهذا الحرص على معارضة عودة ولسن ودبلنيير وعلى أن تكون الوزارة مصرية وطنية، وهذه الدعوة لانتظار أوربا نجاح السياسة الوطنية الجديدة قد انقلب فجأة إلى قبول هذين الشخصين وغيرهما من الأشخاص، وإلى ترك التدخل الأجنبى يتوغل فى إدارة البلاد وهذه السياسة المالية التى فشلت على يد ولسن قد انقلبت فجأة سياسة الحكومة المصرية ليصدر على

موجبها قانون التصفية . وهذه الانقلابات كلها قبلها توفيق راضى النفس مطمئناً .
على أن لهذا العجيب فى نظرنا تفسيره الواضح : فتوفيق الضعيف قد رأى ما حل بأبيه حين عارض إنجلترا وفرنسا فيجب ألا يعارضهما وإنجلترا وفرنسا تريدان هذا النظام فيجب أن يريده ليتمخض ذلك كله عن انفجار أو عن ثورة أو عما يمكن أن يتمخض عنه ، فليس توفيق الضعيف هو الذى يطالب بالتفكير فى هذا . ويكفيه أن يعتمد فى بقائه فى عرشه على سند الدولتين اللتين استخلصتا له من تركيا فرمان توليته .

وكان يسيراً أن يرى توفيق نذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش . ذلك بأنه فضلا عن تسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط فى آخر عهد إسماعيل وبالرغم من تسريح عشرة آلاف جندى أول ولايته ، فإن تنفيذ قانون التصفية أسفر عن عجز الميزانية اللازمة لنفقات الدولة فى سنة ١٨٨١ عجزاً بلغ مقداره ١٦١٠٠٠٠ جنيه ، بينما كان متوافراً فى صندوق الدين بعد دفع الفوائد مبلغ ٨١٣٠٠٠ جنيه أنفقت فى استهلاك السندات بدلا من أن يسدد منها ذلك العجز .
وقد ترتب على هذا أن بقى كثيرون من الموظفين ، ومن بينهم رجال الجيش ، لا يتقاضون مرتباتهم . أضف إلى هذا أن رفقى باشا ناظر الحربية أصدر لائحة مقتضاها عدم ترقية المصريين إلى الدرجات التى يستحقونها ، بينا يرقى الجراكسة إلى أكثر مما يستحقون . ولما كان للضباط المصريين جماعة سرية بين أعضائها أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وكانوا قد قدموا لرياض باشا طلبات بالإصلاح منذ شهر مايو سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها ، فقد قرر هؤلاء دفع آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات رفقى باشا وعلى المطالبة بعزله . ورفعت بالفعل عريضة للخديو متضمنة هذا الاحتجاج .

وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى وزارة رياض على اتصال

بهؤلاء الضباط . لذلك تيسر لهم أن علموا بعد احتجاج الجيش أن الحكومة تريد محاكمة الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم وأنها أمرتهم بالذهاب إلى قشلاقات قصر النيل فى أول فبراير سنة ١٨٨١ لتقبض بعد ذلك عليهم . فما كادوا يذهبون وما كاد يقبض عليهم ويجردون من رتبهم ويسجنون حتى كانت آلاياتهم قد حضرت وأنقذتهم من سجنهم بقوة السلاح .

وسار الضباط الثلاثة على رأس آلاياتهم من قصر النيل إلى عابدين وهناك وقف عرابى بين الجند خطيباً فشكرهم على إخلاصهم له وإنقاذهم إياه . ثم تقدم إلى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه ، وخلع عثمان رفقى من نظارة الحربية ، وأردف عبارته هذه بقوله : إنهم لا يبرحون إلا بنيل بغيتهم . ولما كان توفيق قد رأى كل الأوامر التى أصدرها إلى ضباط الجند لا تنفذ ، ورأى نفسه فى مأزق لا يعرف سبيلا إلى النجاة منه سارع إلى إجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقى من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المنتقضين محمود سامى البارودى .

لو أن توفيقاً كانت له سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر النيل . لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جميعاً لأنه كان يشعر ، كما قدمنا ، بأن سنده الأخير ليس تركيا وليس الأمة المصرية مادام حليم باشا وارث العرش على النظام القديم مقيماً فى الآستانة يدس لإلغاء وراثة الابن ويعاونه أنصار من الساسة والأميرات ، ومادام هو لا يريد أن يعتمد على الأمة أو ينيلها شيئاً من الحقوق التى تشعرها بكيانها . على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقا درساً فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً معرضاً للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة به . فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعانة صورية ممثلة فى مجلس شورى النواب ، فقد ظل حفيظاً على مبدأ الحكومة المطلقة ثم إنه إلى جانب هذا كان قد بدأ يتخوف رياضاً لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض إياه فى تأييد النظام المطلق .

لذلك بدأت الوزارة تضعف شيئاً فشيئاً على حين بدأ المتمردون من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل وينضم إليهم كثيرون من غير العسكريين ويجاهرون جميعاً بضرورة تشكيل مجلس النواب . وكان سامي البارودي من أصحاب هذا الرأى ومن أقوى المحركين لعرابي ومن معه ، بل كان هو روح الحركة ومحورها .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوى فى البلاد لها فإنه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة . لذلك عمد إلى عزل سامي البارودى من وزارة الحربية وإلى تعيين صهره داود باشا يكن مكانه . وأراد داود باشا قمع الحركة فأمر بمنع اجتماع الضباط وبث عليهم الأرصاد والعيون . ولما عاد الخديو من الإسكندرية أمر الوزير الجديد بإجراء تنقلات بين الآلايات شعر معها عرابي وأصحابه بأن المراد تشتيتهم للتنكيل بهم بعد ذلك ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو بأن الجيش سيحضر بتمامه إلى عابدين لإبداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم فى البلاد وبشئون الجيش وتحسين حاله .

ترى ماذا يفعل توفيق بإزاء هذه الحركة وهى حركة تمرد عسكرى صريح . أتراه يترك الأمر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام والأمن ؟ أتراه يدعو إليه كبار رجال الدولة وأعيانها فى مجلس عام لينظر فى الأمر ؟ أتراه يأمر بتجريد المتمردين من رتبهم وألقابهم لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف صلباً ينتظر النتائج كائنة ما تكون ؟ كلا ! فهذه كلها حلول تحتاج إلى عزيمة وإلى قوة جنان وإلى شعور بالمسئولية واستعداد لمجابهة الخطر وجهاً لوجه . وتوفيق الضعيف لا يملك شيئاً من هذا . لذلك عمد إلى وسيلة عجيبة لا يعمد إليها سياسى . أخذ وزراءه وتوجه بهم إلى حيث تعسكر الآلايات المتمردة يحقق معهم ويستعطفهم . ثم ذهب بنفسه إلى القلعة حيث ألاى عرابي ليرجوه ألا يفعل ما اعتزم فعله لكنه وجد عرابي قد سبقه إلى عابدين فعاد هو الآخر أدراجه إليها .

وهناك فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابى على رأس الجيش ممتطياً جواده مستلا سيفه ووقف توفيق فى شرفة عابدين يحيط به وزراؤه وقناصل الدول .

وبأمر توفيق أغمد عرابى سيفه وتقدم بمطالبه ، وهى إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الإسلام . وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند . وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً إليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب . لكن الخديو اضطرب لساعته ورفض الطلبات جميعاً مواجهاً خطر النداء بعزله وإعلان الجمهورية فى مصر على نحو ما كان يدور برأس عرابى وأصحابه . لكن وزراءه وقناصل الدول أشاروا على الخديو بالعود إلى داخل السراى خشية أن تعجل مواجهة ما بين الرجلين الحوادث . وصار مستر كولفن القائم بعمل المراقب الإنجليزى وقنصلا إنجلترا والنمسا رسلا بين الخديو وعرابى . وتصلب عرابى التصلب كله وأشار بعض الحاضرين على الخديو ، ومن بينهم مستر كلفن ، أن يتشبث بالرفض مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش إلى أكثر من المظاهرة التى قاموا بها . لكن الخديو أوصله ضعفه وعدم احتياطه إلى التسليم فسقطت وزارة رياض لساعتها ووعد الخديو بتنفيذ باقى المطالب بالتدريج ، ودعا إليه شريف باشا كى يشكل الوزارة الجديدة . ورفض شريف بسبب ما أمامه من المصاعب وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر . فلما أظهر عرابى استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة ، ولما جاء عمد البلاد فكفلوا عرابى فيما قاله ، ثم لما استشار شريف حكومة تركيا وحكومات إنجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جميعاً ، بعد كل هذا شكل الوزارة وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا فى أنحاء مختلفة من القطر وبعث بعرابى إلى رأس الوادى وباشر الحكم فى حزم وأناة كانت البلاد يومئذ بحاجة أشد الحاجة إليهما .

وآنس توفيق نفسه فى عزلة بعد ما أذعن إلى الاستعانة بشريف الذى كان قد أقصاه عن الحكم يوم طمع فى الحكم المطلق على أثر وصول الفرمان بتثبيته فى عرشه . وأحسبه هذه المرة كان يود أن تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والأمن مستتباً وأن تجرى الأشياء فى نصابها فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى . لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى علم أن الباب العالى أرسل وفداً برياسة على نظامى باشا . ترى ما هى مهمة الوفد ؟ الخديو لا يعلم ، وفرنسا وإنجلترا لا تعلمان ، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم . لقد أرسله أمير المؤمنين بإرادة شاهانية ، فماذا عسى أن تكون هذه الإرادة ؟ ونزل الوفد مصر فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨١ بعد ما احتجت إنجلترا وفرنسا على تركيا لإرسالها إياه من غير اتفاق معها ولا مجرد إخطار لها . وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر يوماً وعاد أدراجه ، وكان كل ما فعل أن أكد للخديو ثقة المتبوع الأعظم به وإن أكد للجيش المصرى فى حديث دار بين نظامى باشا وطلبة عصمت بمسمع من الجند أن حكومة الباب العالى لا تلوم الجند على ما فعلوا وأنها ترى مصر فى طمأنينة وسكينة .

بإزاء تصرف الوفد شعر توفيق كأن الدسائس التى كانت تحاك له خيوطها على ضفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الأميرات قد آتت ثمراتها ، وأنه لولا تأييد إنجلترا وفرنسا إياه لكان معرضاً لمثل ما تعرض له أبوه من قبل . ومن يدرى ؟ فقد يكون حليم باشا قبل أن تسترد تركيا فى فرمان توليته ما شاءت أن تسترده من الحقوق المكسوبة لمصر . فليزدد توفيق إذن اعتماداً على فرنسا وعلى إنجلترا ، وليخش فى نفس الوقت تدخلها ، وليضطرب لذلك بين مختلف العوامل ، وليترك وزارته تجاهد وحدها للخلاص من حرج الموقف .

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شورى النواب كى تعرض عليه القانون النظامى لمجلس النواب ، وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقى فى ٢٦ ديسمبر سنة

١٨٨١ ورد عليه سلطان باشا رئيس المجلس ، وعرضت الوزارة القانون النظامى فاختلف المجلس معها فى أمر نظر الميزانية . ذلك أن الحكومة كانت ترى احتراماً للاتفاقات التى تمت بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية أن يكون الأمر الأخير فى الميزانية للوزارة مع مراعاة إرادة النواب قدر المستطاع فى حدود هذه الاتفاقات . أما النواب فكانوا يريدون أن يكون رأيهم الأخير أو يسار على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو سقوط الوزارة . ولم يمكن التوفيق بين الرأيين ، فكان ذلك سبباً فى استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول وزارة محمود باشا سامى البارودى محلها مع تعيين عرابى باشا وزيراً للحربية فيها .

وفى أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى النواب أرسلت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية مذكرة مشتركة إلى الخديو توفيق باشا تؤيدانه فيها فى الخديوية وفقاً للفرمانات وتعدان سكينة مصر مما يعنيهما لمصلحة رعاياهما وتعلنان استعدادهما لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من الأخطار . وكان منتظراً أن تحدث هذه المذكرة من الأثر ما يضعف تمرد المتمردين . على أن تركيا احتجت على الدولتين لتخطيهما إياها ومخاطبتهما الخديو مباشرة كما علم العرابيون أن إنجلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه المذكرة تعتبر نفسها حرة فى الخطة التى تتخذها تنفيذاً لمقاصدها . وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتراثا للحوادث وتقديراً لنتائجها . والواقع أن فكرة الثورة التى بدأها الجيش كانت قد انتشرت فى أنحاء البلاد جميعاً وأن قمع تيار هذه الروح كان قد أصبح متعذراً . وبخاصة مع وجود رئيس للدولة ضعيف ضعف توفيق .

واستمر مجلس النواب ينعقد إلى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين صدر الأمر بانفضاض دوره العادى .

وفى أعقاب انفضاض المجلس نظر عرابى إلى ما حوله موجساً خيفة مما يدبر

خصومه له . ولم تك إلا أيام حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشا رفقى بتهمة ائتمارهم به وبزملائه وبالنظام الذى أقاموه ومحاكمتهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى إلى أقاصى السودان . وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة . وزادهم اقتناعاً رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى . وعلى ذلك استعر الخلاف بين الخديو والوزارة . يصر الوزراء على تنفيذ حكم المجلس ويعترضه رئيس الدولة . وأدى ذلك إلى تخوف فرنسا وإنجلترا على الرعايا الأجانب فى مصر ، فقرروا إرسال بوارج إلى المياه المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم . وأعلنت فرنسا وإنجلترا جميعاً حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه . وفى ذلك إشارة إلى ما كانتا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه إلى استصدار قرار من النواب بعزله .

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة النيابية للاجتماع وتوسط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من كبار النواب معه يريدون الوصول إلى حل لهذا الخلاف . وكان من الحلول التى قبلها الخديو أن يقال سامى البارودى من رياسة الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمى . لكن مصطفى باشا أبى . وبينما المحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج الإنجليزية والفرنسية قد وصلت إلى المياه المصرية وأعقبتها الدولتان ببلاغ وجهه قنصلاهما فى ٢٥ مايو إلى الخديو يطلبان فيه سقوط الوزارة بتمامها وخروج عرابى من القطر المصرى مع ضمان الدولتين رتبه ومرتباته ونياشينه ، وإقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الأرياف وإصدار الخديو بعد ذلك عفواً عاماً عن جميع من كانت لهم يد فى المسألة .

وأبلغ الخديو وزراءه هذا الإنذار ، فرفضوه بحجة أن ليس للدول شأن فى مخابرة مصر إلا عن طريق الآستانة . على أن الخديو أظهر رضاه عن الإنذار فاستقالت الوزارة محتجة وقبل الخديو استقالتها ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة

جديدة . لكن شريف باشا رأى الموقف لا يطاق فاعتذر كما اعتذر عمر باشا لطفى . وفى هذه الأثناء أوفد الباب العالى درويش باشا معتمداً سلطانياً لينظر فى الخلاف بين الخديو ووزرائه بل العرابيين جميعاً ، فإن هؤلاء كانوا قد انتهوا إلى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه . وكانوا يطمعون فى نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا تؤيدها .

وفى انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاقم الخطب واضطرب حبل الأمن فاضطر الخديو إلى أن يعين عرابى وحده ناظراً للحربية ليتولى أمر الأمن فى البلاد .

ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطانى بما يدل على استعداد تركيا إذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده فى مركزه برغم العرابيين . لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة إسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابى وزيراً للحربية . وظل توفيق ووزراؤه فى العاصمة وظلت أساطيل الدول فى مياه الإسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور فى زمن قريب . وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا . فقد اقترحت إنجلترا وفرنسا أن ينعقد بالآستانة مؤتمر دولى للنظر فى حالة مصر وإقرارها على صورة من الصور . لكن تركيا رفضت رفضاً باتاً بدعوى أن الحالة فى مصر عادية وأن النظام القائم لا خوف عليه . وفيما الحديث بين الدول فى أمر المؤتمر وانعقاده دائر وقعت فتنة الإسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

وليس يسيراً معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت إلى هذه الفتنة . أهى كانت حركة فجائية نتيجة تكدس هذا الثغر بالسكان وتزايد الوافدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التى نشأت عن وجود البوارج فى مياهه ؟ أم هى كانت بتدبير سابق من عرابى وأنصاره كما يزعم بعض الكتاب الإنجليز مؤيدين زعمهم بأن الحكومة

تباطأت فى قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عدد قتلى الأجانب على قتلى المصريين زيادة محسوسة ؟ أم هى كانت على العكس من ذلك مدبرة من جانب الإنجليز على ما يذهب إليه عرابى وأنصاره مؤيدين رأيهم بأن أمير الأسطول الإنجليزى كان مأموراً بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيين ومصالحهم على خلاف أمير الأسطول الفرنسى الذى كان مكلفا بالمظاهرة البحرية لتأييد سلطة الخديو . ومهما يكن من هذه الفروض فقد وقعت مذابح ١١ يونيو وحكومة الخديو بالقاهرة . فخف توفيق وعرابى والوزراء فى اليوم نفسه وعقدوا مجلساً عسكرياً لتحقيق أسباب الفتنة وجعلوا على رأسه عمر باشا لطفى محافظ الإسكندرية الذى اتهمه الإنجليز بالتهاون فى قمعها ، وبلغوا من اتهامه أن انسحب المحامى الإنجليزى الذى حضر تحقيق المجلس العسكرى بأمر القنصلية البريطانية .

وبقى الخديو وحكومته بالإسكندرية يريدون إعادة الأمن إلى نصابه . وكان توفيق يومئذ فى مركز لا يحسد عليه ، فهو لم يكن يأمن جانب تركيا ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنها تعارضه وتؤيد المتمردين عليه رجاء الوصول يوماً من الأيام إلى خلعه وإقامة حليم باشا مكانه ، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقده من بغضهم إياه واتفاقهم مع السياسة التركية فى التخلص منه ، وهو مع اعتماده على تأييد فرنسا وإنجلترا كان يخشى ألا يتخطى أمرهما التأييد المعنوى فإذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتثبيته فى عرشه . ثم هو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لأنه شعر بالقوة المصرية تتغلب على كل شىء فى البلاد وتبتلعه .

وتجسم الشعور بهذه القوة القومية فى رأس عرابى وأعوانه حتى دفعهم إلى تقوية حصون الإسكندرية استعداداً لدفع الغارة البحرية عليها . ومع أن الدول كانت قد تخطت معارضة تركيا فى عقد مؤتمر الآستانة لحل المسألة المصرية وانعقد المؤتمر فى العاصمة التركية فعلا برئاسة لورد دفرين سفير إنجلترا لدى الباب العالى وكان طبيعيًّا

أن يكف الجميع عن تعقيد المسائل فى مصر حتى يصدر المؤتمر قراره فإن تحصين قلاع الإسكندرية استمر ، كما أن الأميرال سيمور الإنجليزى أبلغ الخديو بأنه مضطر إذا لم تقف التحصينات إلى ضرب قلاع الإسكندرية بالمدافع . وعلى الرغم من احتجاج ممثلى الدول على بلاغ الأميرال ومن إنكار طلبة عصمت الاستمرار فى التحصينات ومن أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت فى الضغط المعنوى على الحكومة المصرية كى تنتظر قرار مؤتمر الآستانة فإن الأميرال سيمور أصر على قراره وقررت وزارة فريسنيه انسحاب الأسطول الفرنسى إلى بور سعيد .

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسراى رأس التين يجعله معرضاً لقنابل مدافع البوارج ؟ لقد طلب إليه المستر كلفن أن ينتقل إلى بارجة أمير البحر الإنجليزى لأن غرض الأسطول الإنجليزى تأييد ملكه . لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التى تطلق النار عليها إلى أساطيل مهاجميها يعرضه لعزل تنفرد إنجلترا بالاعتراض عليه بينا تشترك فرنسا والدول الأخرى مع تركيا فى تأييده لما كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العرابيين ومع حليم باشا . لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال لمستر كلفن ما مؤداه :

« إنى لا أبرح مكانى ولو وقعت الواقعة وأطلقت المدافع على الإسكندرية ، فإن لى من رعيتى قوماً أمناء لم يخونونى بل خدمونى بأمانة وصداقة فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسى ، ولا يليق بى كذلك أن أترك البلاد فى وقت الحرب فإن فى ذلك عاراً عظيما » واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا إلى قصر الرمل بعيداً عن مرمى المدافع .

وفى صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الإنجليزية مدافعها على حصون الإسكندرية فجاوبت الحصون بإطلاق مدافعها . على أن الموقعة لم تدم لأكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، إذ صمتت نيران الحصون ودك بعضها

دكًّا وشعر العرابيون بأن ما توهموه من قوتهم على مقاومة البوارج الإنجليزية لم يكن إلا وهماً . على أن ذلك لم يفت فى عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم إذ اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعسكروا فى كفر الدوار ليعودوا بعد زمن إلى مهاجمة الإسكندرية . وعلى ذلك قرر عرابى ومن معه الانسحاب من الثغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذى رفض الالتجاء إلى بوارج الإنجليز قد سر لانتصارهم وأنه لذلك قد صار خصماً ظاهراً للثائرين عليهم . وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الثائرة والعساكر المقيمة مع عرابى عاد الخديو من سراى الرمل حيث كان سجيناً تحت أمر رجال عرابى إلى سراى رأس التين حيث استقبله الجند الإنجليز على بابها وحيث استقبله الأميرال سيمور وعدد من رجاله داخلها .

وكان فى الوقت متسع ما يزال لإخماد نار الفتنة فى مصر لو أن تركيا لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثائرين . فقد طلب إليها لورد دفرين ، بناء على تعليمات حكومته ، أن تعلن أن عرابى عاص وتؤيد سلطة الخديو واستعدادها لإرسال قوة لقمع العصيان وإعادة النظام . لكن تركيا أبت أن تخطو هذه الخطوة . وطلبت إنجلترا إلى فرنسا أن تشترك معها فى الدفاع عن قناة السويس ، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قنال السويس بمأمن من أن يهدده مهدد . والواقع أن عرابى ومن معه لم يفكر أحد منهم فى تحصين بناحية القنال اعتماداً منهم على حيدته وعلى تأكيد المسيو دلسبس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده . ورأت إنجلترا بإزاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لأن تخطو خطوة جديدة فى وادى النيل بعد خطوتها الأولى التى أتمها دزرائيلى فى سنة ١٨٧٥ بمشترى أسهم القناة التى كانت مملوكة لإسماعيل فقررت التدخل المسلح منفردة . ولم تعبأ بحيدة القناة بل ذهبت أساطيلها المقلة للجيش الذاهب إلى مصر قاصدة بور سعيد والإسماعيلية فاحتلتها من غير أية مقاومة ولا أى احتجاج . وعسكرت القوة الإنجليزية يوم ٢٢ أغسطس

فى الإسماعيلية . وفى هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت تركيا عصيان عرابى وأيدت توفيقاً فى عرشه . لكن توفيقاً كان قد انضم إلى السياسة الإنجليزية وعزل عرابى من نظارة الحربية واعتبره ثائراً . وقامت فى مصر إذ ذاك حكومتان : حكومة توفيق يؤيدها فريق من المصريين وتؤيدها إنجلترا ، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها . لكن هذه الحكومة الثانية لم يطل أمرها . فقد انهزم عرابى وجنده فى موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الإنجليز القاهرة فى الخامس عشر من هذا الشهر نفسه .

وعاد توفيق إلى عاصمة ملكه فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ يصحبه الدوق أوف كنوت والجنرال ولسلى والسير ادورت مالت . وكان توفيق يظن أن قضاء إنجلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولى أمور البلاد على ما تجيزه الفرمانات . ولعله لم يخطر بباله أن انتصار إنجلترا فى التل الكبير ودخول الجيوش الإنجليزية إلى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده إلى يد هؤلاء الذين ثبتوه فى عرشه . ولعله لم يخطر بباله أن عوده إلى مقر سلطانه محاطاً بالأمير وبالقائد وبقنصل إنجلترا سينتهى لا ريب إلى أن تكون الحوادث العرابية آخر ما خبأ القدر لتوفيق من نشاط . ولئن كان عرابى سيحاكم وسينفى إلى سيلان فإن ولى عرش مصر لن يكون أعظم من عرابى سلطاناً برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه .

فبرغم تبليغ اللورد دوفرين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن الحكومة البريطانية تفكر فى سحب جنودها من مصر مادام النظام قد استتب فيها فإن حكومة جلالة الملكة رأت عقب انتصارها على الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو . أليست هى التى تغلبت عليهم وقهرتهم ؟ وإذا كان الخديو وأنصاره يرون طبيعيًّا أن يقضى على عرابى وكل من معه بالإعدام جزاء فشلهم فى ثورتهم ،

فإن إنجلترا تنظر للأمر نظرة أخرى . ولذلك أبلغ القنصل الإنجليزى الخديو ألا يتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد دوفرين إلى مصر ، وكانت حكومته قد انتدبته «لينصح إلى حكومة الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لإعادة سلطة سموه» . وكان أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الإفراج عن المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم عرابى وطلبة ومحمود سامى ومحمود فهمى وعلى فهمى . ومع أن القوانين التركية للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محام عن المتهمين فقد جاء محاميان إنجليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى . وبعد صدور الحكم بالإعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل إنجلترا– ونصيحته عند توفيق أمر محترم– بالنفى المؤبد .

وكان لابد لانسحاب الجنود الإنجليزية من أن تستريح إنجلترا إلى انتظام الجيش المصرى انتظاما تطمئن معه إلى عدم تهديد الأمن مرة أخرى ، وأن تطمئن إلى شىء آخر هو ألا تتعرض مصر لغزو دولة أخرى إياها غزواً يعرض قناة السويس إلى الخطر ، وغير مرة أعلنت إنجلترا استعدادها للجلاء عن مصر وسحب جنودها منها متى اطمأنت إلى هذه الغايات . وهذه ثمان وأربعون سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهتد الحكومة البريطانية – على الأقل – إلى ما يطمئنها على ألا تغزو مصر دولة أخرى أو أن تتعرض قناة السويس الدولية للخطر !

على أنها رأت فى ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرين أن تنظيم الحكم فى البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق الأغراض التى تريد أن تتحقق لتجلو عن وادى النيل . فأمرت ، أستغفر الله ، فنصحت أن يلغى توفيق قانون مجلس النواب ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية وأخذت بيدها مقاليد مالية البلاد ونحت فرنسا قدر المستطاع عنها ودعت إلى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفية بنظام آخر ، وجعلت تتغلغل فى شئون الحكم شيئاً فشيئاً حتى وضعت

يدها على كل شيء وعلى توفيق من بين ما وضعت يدها عليه .

وسر توفيق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها . بل لقد بلغ من إخلاصه لإنجلترا أن كان لا يكتم على ممثلها سرًّا من أسرار وزارته . روى أحد الذين حضروا ذلك العصر أن رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة لا يحضره المراقب الإنجليزى كلما أرادوا النظر فى شئون تعنى مصر وحدها . وأبلغ رئيس الوزارة توفيقاً هذا الخبر . ثم لم يكن بأكثر من دهشة رياض حين نبهه قنصل إنجلترا العام إلى أنه كان يعتقد فيه الصراحة ، وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل .

ولم يكن يدور بخاطر توفيق شيء من أمر جلاء الجنود البريطانية عن مصر برغم إلحاح السياسة الفرنسية فيه بعد إذ رأت نفوذها فى وادى النيل يتقلص . وكيف تريد توفيقاً أن يؤيد السياسة الفرنسية وقد كانت منضمة للعرابيين ضده فى ظروف كثيرة ، وكانت تعطف على فكرة تعيين حليم باشا فى منصب الخديوية ؟ ! وإذن فليصنع الإنجليز لتنظيم أمر البلاد ما يشاءون . ليقرروا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضاً لمن أصابهم ضرر من جراء فتنة الإسكندرية ، وليوطدوا نظام الحكم الذى يرون توطيده فى مصر ، وليوفدوا إلى السودان ما يشاءون من الجيوش لقمع ثورة المهدى ، وليقرروا الانسحاب من السودان وإخلاءه فيأبى رئيس وزارته شريف باشا ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بمصر ما شاءوا وليعينوا من الوزراء من شاءوا فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه ولن يكون لهم إلا أخلص المخلصين .

ولعل ما كتبه لورد كرومر عن توفيق وخلقه خير ما يوضح لنا مبلغ اطمئنان توفيق للحالة الجديدة ، حالة الاحتلال الإنجليزى قال جنابه ما مؤداه :

« ما أحسب خير أصدقاء توفيق يذهبون إلى أنه كان رجلا عظيماً أو خديويًّا

مثاليًّا. فالواقع أنه لم يكن من العظمة فى شىء. ولقد كان مكتفياً بزوج واحدة فضرب بذلك مثلا صالحا لأهل بلاده. وكان أبا صالحاً نشيطاً معنيًّا بحسن تربية أولاده. وقد اشتهر بالتقوى ولكنه كان خلواً من أية ظاهرة للتعصب مما يصطبغ به أتقياء «المسلمين» ووصلت تقواه بينه وبين رعاياه المسلمين وكانت لذلك عاملا سياسيًّا له بعض الخطر. وكان بالقياس إلى من حوله مستقيماً وفيًّا. وكان كأكثر أهل بلاده يخاف المسئولية ويجتهد ما استطاع ليلقى كل ما يقدر على إلقائه منها على أكتاف الآخرين. فكان يشكو من كثرة عدد الأوربيين فى الحكومة المصرية، فإذا قصد إليه أوربى يلتمس منصباً أجابه بأنه يكون سعيداً لإجابة الطلب ولكن سلطة بريطانية تمنعه من السير بما يمليه عليه قلبه. وكان عديم النشاط يعوزه الابتكار، ولكنه كان إذا اضطر إلى أن يقر قراراً أبدى فى غير قليل من الأحيان ما يدل على الكرامة وحسن التقدير وبعد النظر. وكان طيب القلب حتى يكاد فى بعض الأحايين يبدى من الاعتراف بالجميل عما قدم إليه من خدمة ما يندر أن يكون من صفات حاكم شرقى. وكان يظهر أعمق المقت لكل أنواع التحكم والإرهاق والقسوة. ولم يكن أبداً مسئولا شخصيًّا عن عمل من هذه الأعمال، وإن كان تباطؤه وإهماله قد أتاح ارتكاب كثير من الظلامات باسمه. ولم يكن متعلماً تعليما عالياً. وقل أن قرأ كتاباً. ولكنه كان يطلع على الصحف ويتحدث مع رجال من كل طراز ومكانة. وكان متوسطاً فى إدراك الحوادث التى تلقى إليه وفى تتبع المناقشة التى تحدث أمامه. أما من حيث حدة الذكاء فربما كان فوق متوسط أهل بلاده.

«وإذا لم يكن عظيماً فى الرجال فهو لم يكن خديوياً مثلا. فلو أنه كان رجلا قوى الإرادة سامى الخلق حاد الذكاء لوضع نفسه على رأس حركة الإصلاح فى مصر، ولظهرت سلطته، ولما توقدت غيرة الإنجليز الذين كانوا موظفين فى حكومته. على أنه مع ذلك كانت له الفضيلة السلبية أنه لم يكن ملوثاً برذائل

الحاكم الشرقى . وهو إذا لم يكن قد قام بالفعل بشيء فى حركة إصلاح فكفاه أنه كان مغتبطاً لقيام آخرين بدله بهذه الحركة . وهو إذا لم يكن قد ساق غيره فى سبيل الخير فكفاه أنه اتبع الغير فى هذا السبيل . وأشهد أنى اقتنعت برأيه فى أحيان أكثر من التى اقتنع هو فيها برأيى عند وجود خلاف بيننا » .

وهذا الحكم يبين للقارئ السبب فى أنا لم نقف بعد حوادث الثورة العرابية عند شيء من حياة توفيق ، فقد كانت حياة عادية لا تتخللها الحوادث لأنه لم يكن له فى الحوادث يد ولا تصريف ، وبقى كذلك إلى أن توفى فى سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم .

* * *

والآن فهل على توفيق تبعة فى الحوادث الجسام التى حدثت أول أيام حكمه والتى أدت بمصر إلى موقفها الحاضر ؟ هذا ما لا يصعب الجواب عليه . فعلى توفيق التبعة إذا كانت على إنسان تبعة ضعف نفسه واضطرابه بين قوى لا سلطان له عليها . وإنما التبعة أكبر التبعة على الحوادث التى أحاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويرها بما يتفق ومصلحة بلده . إنما التبعة على تركيا ، وعلى فرنسا ، وعلى إنجلترا ، وعلى عرابى . وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كتوفيق أن يصنع بين هذه القوى جميعاً إلا أن يترك نفسه يتقاذفه موج الحوادث ليصل بملكه وبلاده إلى ما وصلا إليه !

محمد قدرى باشا



نقلت هذه الصورة عن مجلة المقتطف الغراء

من الكتب ما ينبه ذكره ويعظم أثره بمقدار يجني على ذكر المؤلف حتى ليكاد يعفى خبره . من هذا الطراز كتب ثلاثة ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محام ولا قاض ولا طالب حقوق ولا رجل من رجال الشرع الإسلامي . هذه الكتب الثلاثة هي : «مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان» ، وكتاب «الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية» ، وكتاب «قانون العدل والإنصاف للقضاء فى مشكلات الأوقاف» .
بل إن معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال القانون والشرع ، بل تمتد كذلك إلى عدد عظيم من سواد الناس . فقد نظمت ثلاثتها أحكام الشريعة على مذهب أبي حنيفة فى تقنين ذى مواد يفى بحاجة كل من يهمه الوقوف على هذه الأحكام إذ يجدها مبوبة مرتبة مدققاً فى اختيار ألفاظها حتى تعنى مدلولاتها على صورة من

التحديد الدقيق الذى يقضى به فن الفقه القانونى . وهذه الكتب الثلاثة هى الأولى والأخيرة فى بابها ولذلك نبه ذكرها وعظم أثرها وتناول الناس ما فيها بالدراسة ، فإذا سألت أكثرهم عن واضعها قيل لك هو قدرى باشا . لكن أكثر الناس لا يعلمون من أمر قدرى باشا إلا اسمه ، وإلا أنه واضع هذه الكتب الثلاثة ، وقد يكون ذلك كافياً لتاريخه . فهذه الكتب الثلاثة هى فى الحق أثر كاف لتخليد واضعه . وإذا كان نابليون قد جعل من قانونه المدنى عنوان مجده واعتبر ما إلى جانب ذلك من مجد النصر والظفر وحكمه العالم ثانويًّا ، فكتب قدرى باشا فى تقنين أحكام الشرع فى المعاملات والأوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باق على الزمان .

لكن ، من كان قدرى باشا ؟ وماذا كان تاريخ حياته ؟ لابد أنه كان فقيهاً عظيماً من علماء الأزهر معهد دراسة الشريعة الإسلامية وموضع العناية بها . فالرجل الفذ الذى يقنن شريعة من الشرائع يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة . فليس طبيعيًّا أن يخرج هذا المعهد الألوف من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن الشرع غيرهم ! غير أن الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط فى سلكهم ، ولم ينضم إلى زمرتهم . وكتبه الفقهية هذه ليست كل تواليفه وإن كانت أبقاها وأخلدها . فقد كانت تربيته ودراسته مدنية بحتة . وكانت الوظائف التى تقلدها بعيدة عن أن تمس الأزهر الشريف أى مساس .

وقد ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ من أب أناضولى هو قدرى أغا الذى كان من أعيان بلد وزير كوبرلى . وحين جاء إلى مصر أقطعه والى مصر بعض العزب بمركز ملوى على طريقة الالتزام التى كانت معروفة يومئذ . فتزوج من مصرية أولدها ولده محمداً وأدخله مدرسة صغيرة بملوى ، حتى إذا أتم الدراسة بها بعث به إلى القاهرة فى مدرسة الألسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجماً مساعداً .

وكانت مدرسة الألسن هى المعهد الذى أسس لبث الثقافة الحديثة فى مصر.

فقد أدرك أهل ذلك العصر إدراكاً تامًّا أن المدنية الغربية قوية التيار جارفته ، وأن الحضارة الإسلامية التى يمثلها الأزهر أصبحت غير قادرة على الوقوف فى وجه هذا التيار ، كما أنها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تطعم بالتعاليم الحديثة ، فلا يمكن معالجة التوفيق بين المذهبين . وكانت اللغات – أو الألسن على ما كانوا يسمونها يومئذ – هى موضع عناية مدرسة الألسن الكبرى . فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية . وكانت العناية فيها باللغة العربية عناية فائقة يدل عليها ما وضعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة . قال قدرى باشا صاحب هذه الترجمة فى كتابه (معلومات جغرافية) الذى نشر فى سنة ١٨٦٩ : «وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثر من ألفى مجلد» وأتى بأسماء كثير ممن ترجموا والفنون التى ترجموا كتبها الغربية . وكان القصد من تعليم هذه (الألسن) والقيام من بعد ذلك بترجمة الكتب فى مختلف الفنون نقل الحضارة الغالبة إلى مصر ليتمكن أهلها من السير سيرة أهل أوربا . ولعل أكثر ما ترجم إنما ترجم عن اللغة الفرنسية . فقد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الكبرى ، كما تأثرت بها دول أوربا المختلفة . وكان من أثر ذلك أن قام محمد على باشا فيها بحركة تشبه الحركة التى قام بها نابليون فى فرنسا ، وكان مرجوًّا أن تؤتى خير الثمرات لولا أن تألبت أوربا على مصر وحرمتها يومئذ ثمرات الظفر ، كما وقفت بعد ذلك عائقاً فى سبيل تقدمها تقدماً يرفعها إلى الصف الذى يجب أن تشغله بين أرقى أمم الأرض وأقواها .

عين قدرى باشا إذن مترجماً مساعداً بمدرسة الألسن على أثر تمام دراسته بها . وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوربية . فكان لذلك يحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وكان مكبًّا على مطالعة كتب الشرع منذ حداثة سنه . لكن آثاره فى ذلك لم تظهر إلا بعد سنين طويلة .

وبقيت الترجمة عمله الرسمى الذى كان يتقنه أيما إتقان . ولذلك نقل من مدرسة الألسن إلى نظارة المالية مترجماً لا مساعد مترجم .

ولما احتل إبراهيم باشا الشام عين شريف باشا والياً لها . فأخذ هذا الأخير قدرى باشا (وكان ما يزال قدرى أفندى) سكرتيراً له ، ثم سافرا إلى الآستانة وعادا بعد ذلك إلى مصر وظلا متلازمين حتى عين قدرى باشا أستاذاً للغتين العربية والتركية فى مدرسة الأمير مصطفى فاضل باشا . ثم اختاره الخديو مربياً لولى العهد . ثم عين بالمعية فالمعارف فمجلس التجار بالإسكندرية فرئيساً لقلم ترجمة الخارجية .

وفى أثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب فى مواضيع مختلفة . لكن أكثرها كان فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وكان معاجم عربية — فرنسية . من ذلك الدر النفيس فى لغتى العرب والفرنسيس ويقع فى سبعمائة صفحة ، والدر المنتخب من لغات الفرنسيس والعثمانيين والعرب ، وأجرومية فى اللغة العربية ، ومختصر الأجرومية الفرنساوية مترجمة إلى العربية ، والمترادفات باللغة العربية والفرنساوية . هذا عدا بعض كتب فى التاريخ والجغرافيا ككتاب (معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية) . وهذا الكتاب تم طبعه فى سنة ١٨٦٩ .

يدل كثير من هذه الكتب على مبلغ تضلع قدرى باشا فى اللغتين العربية والفرنسية وعلى مقدرته الفائقة فى الترجمة . لذلك كان طبيعياً أن يدعى للاشتراك فى التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذى كانت الحكومة المصرية تفكر فيه والذى كان مقدمة لانتشار المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية . فقد كان القضاء المصرى فى ذلك العهد منوطاً بالمجالس الملغاة التى كانت تحكم بالعرف وكانت تجمع من الرجال من قلت درايتهم بقواعد العدالة . وإذ كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد تسربت إلى مصر من طريق الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ومن طريق الشبان

المصريين الذين أوفدوا إلى فرنسا ثم عادوا إلى مصر ، فقد اتجهت الفكرة إلى تعريب القوانين الفرنسية التى وضعت أيام نابليون ، وعهدت الحكومة إلى جماعة من أفاضل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فعرّب القانون المدنى الفرنسى رفاعة بك رافع وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة وأحمد أفندى حلمى وعبد السلام أفندى أحمد . أما قانون المرافعات فعربه أبو السعود أفندى وحسن أفندى فهمى أحد مترجمى وزارة الخارجية ، وعرب قدرى باشا قانون العقوبات ، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها وطبعت بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٢٨٣ هـ .

وإذ كان ميل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع إلى أيام الدراسة ، على ما قدمنا ، فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع بصاحبه إلى التفكير فى تقنين أحكام الشريعة الإسلامية . وزاده إمعاناً فى هذا التفكير أن عهد إليه بالاشتراك فى ترجمة قوانين المحاكم المختلطة إلى اللغة العربية مع اللجنة التى أنشئت فى وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيداً لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التى أزمع إنشاؤها من يومئذ . ولما كان التشريع للمصريين يقتضى التوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذى أخذ عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الإسلامية التى كان عليها القضاء إلى يومئذ ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات ، فوضع كتاباً لم ينشر بعد وما تزال نسخته المخطوطة فى دار الكتب المصرية عن (تطبيق ما وجد فى القانون المدنى – الفرنسى – موافقاً لمذهب أبى حنيفة) . وجاء فى مقدمته أنه (بيان المسائل الشرعية التى وجدت فى القانون المدنى مناسبة وموافقة لمذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) .

هذه الترجمة لقانون العقوبات الفرنسى ولقوانين المحاكم المختلطة وهذه البحوث المتصلة فى المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدنى الفرنسى مضافة إلى ميله

الأصيل ، جعل من قدرى باشا فقيهاً فى القانون . ولقد نقل من رياسة قلم ترجمة الخارجية مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وظل فى منصبه هذا إلى أن عين وزيراً للحقانية فى أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا ، ثم استقال مع الوزارة وعاد بعد ذلك وزيراً للمعارف ، ثم انتقل وزيراً للحقانية من جديد . وعمل فى منصبه هذا على وضع القوانين للمحاكم الأهلية التى أريد إنشاؤها ، واشترك بنفسه فى وضع القانون المدنى وقانون تحقيق الجنايات والقانون التجارى . وفيما كان لا يزال ناظراً للحقانية صدرت لائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، ثم أحيل إلى المعاش ، وصدرت القوانين التى اشتغل فى وضعها أيام كان فخرى باشا ناظراً للحقانية .

كان طبيعيًّا إذاً أن ينصرف قدرى باشا فى الشطر التالى من حياته عن الاشتغال بما شغل به فى الشطر الأول – من ترجمة ونحو وصرف – إلى العمل فى القانون والتشريع . وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوافرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه . ولذلك وجه كل همه إلى تقنين مذهب أبى حنيفة بوضع الكتب الثلاثة التى ما يزال اسمه مقروناً بها : «مرشد الحيران فى المعاملات ، والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف» . وقد ظلت هذه الكتب كلها مخطوطة إلى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ولم تطبع إلا بعد الوفاة بسنوات طويلة . وهى مع ذلك التى خلدت ذكره وما تزال سبب مجده ، هى هذا الجهد العظيم الذى لم يضطلع به من رجال الشرع الإسلامى أحد ، فاضطلع هو به وأداه على خير وجوهه . واقتران اسمه بها دليل على أنها أثر خالد حقًّا .

فلقد كان فى أعماله الأخرى ما يكفى ليجعل منه واحداً من رجالات مصر وفى مقدمتهم . كان يكفى اقتران اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية وصدورها . وكان يكفى أنه تقلد الوزارة ثلاث مرات فى حياته . وكانت تكفى كتبه الأخرى . لكن

مناصب الحكومة واقتران الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيه صاحب الذكر عن الحكومة لا يخلد اسم صاحب المنصب إلا على أنه اسم لا أكثر ، اسم من هذه الأسماء التى قد تصل إلى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الأسباب الكثيرة الوضيعة التى يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلماً يرتقون به درجات الحياة ، اسم مكون من حروف هجائية لا من أعمال جليلة ، اسم جف على نقائص الحياة يلاشيها الموت ولا نصيب له من خير يبقى على الحياة أثره . فأما هذه الكتب الثلاثة التى لم تظهر إلا بعد موت مصنفها فقد أعادت اسمه إلى الحياة متألقاً شديد الإشراق سقطت من حوله حياة المادة وضعفها وبقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله إلى أبده .

ويقول الذين عرفوا قدرى باشا أيام حياته إنه مع إكبابه على العمل أشد الإكباب لم يكن من المتجهمين للحياة العابسين فى وجهها ، بل كان ظريفاً غاية الظرف ، وكان يتقن الضرب على العود ، وكان لا يأبى أن يجلس من إخوانه خريجى مدرسة الألسن فى حفلة طرب يسمعهم من أنغام عوده ما يهون على النفس أعباء العمل . وإنك لتجد أولئك الذين وهبتهم الطبيعة من قدرتها ما يجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم أحرص الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظًّا يعينهم على أداء الواجب العظيم الذى فرض الوجود عليهم أداءه ، والذى يقتضيهم من الجهد ما ينوءون به لولا هذا الحظ القليل . وما كان لأحد أن يأخذهم بذلك ، وهو ، أيًّا كان لونه ، ليس إلا رياضة لنفوسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأتى عليها الملال . وإذا أبهظ الجهد قوى الأفذاذ الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملايين الذين يعيشون فى كنف مواهب هؤلاء وينعمون بعملهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم .

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف بصره وأن انطفأ نور عينيه ،

وكانتا قبل ذلك ذواتى جمال وحدة . وقد سافر إلى النمسا أملا فى معالجة نفسه من هذا المرض ، ولم يمنعه عدم نجاحه فى هذا من متابعة عمله الذى أخرج للناس فى تقنين الفقه الشرعى كتبه الثلاثة .

وتوفى ، فأحدثت وفاته فراغاً فى عالم النهضة القومية . ولكن هذه النهضة كانت حين وفاته فى منحدر أدى بها إلى وقوف تيار النشاط العظيم الذى قام به هو وزملاؤه . فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصيبت فى مطامعها فى الحرية بضربة لا تقل قسوة عما أصيبت به على أثر انتصارات محمد على باشا على تركيا . وكانت أوربا هى صاحبة الضربة الأولى وصاحبة الضربة الثانية .

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا يقل عظمة عن قانون نابليون . ولئن ينس الناس من حياة قدرى باشا كل شىء فلن ينسوا هذه الكتب الثلاثة وهى كافية لتقيم مجد رجال لا مجد رجل واحد .

بطرس باشا غالى



لعلك إن طلبت مثلاً أعلى بين بلاد العالم لشعب وديع هادئ لا ترى خيرا من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك إن طلبت مثلاً أعلى لشعب طموح لا تفتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعاً إلى الكمال وإلى العظمة والمجد ، لا ترى خيراً من شعب مصر محققاً لهذا المثل . فقل أن عرفت مصر وسائل العنف فى السعى إلى أغراضها . ولم يقع أن ذلت مصر واستكانت ويئست من تحقيق هذه الأغراض . ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير فى قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها . فهى أبداً فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها وإذلالها ، وهى أبداً لا تذل لقاهر وإن كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها إلى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهر من الهدوء والسكينة . ولذلك كان حتماً بحكم هذه الظروف أن ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهمم يحفزها ،

ولنشاط الجماهير يدفعه إلى الغاية السامية التى تطمع مصر بحق فيها ، وأن ينشأ إلى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمل لتلافى الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة فى مصر اصطداماً عجز الكل حتى اليوم عن تقدير نتائجه : أهو ينتهى إلى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر إلى جانبهم قوية اليد كما أنها قوية النفس ، أم هو ينتهى إلى تحطيم أمل النفس المصرية فى بلوغ المكانة التى تطمع فيها ؟ وإذا تحطم أمل أمة فترت أجيالا بعد أجيال عن بعثه واستعادته ، حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث ويدفع إلى نفس الأمة الأمل حارًّا قويًّا ينبض به قلبها ثم يتدفق ثورة قوية تخلع النير وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة إلى المثل الأعلى ورجل السياسة والسلم ، خصمين فى أكثر الظروف . وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبداً للمثل الأعلى لأنه غذاؤها فى الحياة بل هو ذاته حياتها . أما السياسى الذى يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول إلى خير ما يمكن أن تصل إليه بلاده فالحوادث اللاحقة هى التى تحكم عليه أو له . ولقد كان بطرس باشا غالى سياسيًّا ، وكان من أكثر المصريين اتصالاً بحوادث عصره من ناحيتها السياسية . فلنجعل للحوادث وحدها الحكم عليه ، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وإنصاف .

* * *

ولد بطرس غالى بالقاهرة فى ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته الأولى فى مدرسة حارة السقايين التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع الملقب عند الأقباط بأبى الإصلاح . وبعد ثمانى سنوات أمضاها فى هذه المدرسة انتقل إلى مدرسة مصطفى فاضل باشا ، وكان له من الصلة بها أن والده غالى بك نيروز كان يشتغل فى دائرة مصطفى فاضل . فلما تخرج منها اشتغل مدرساً بمدرسة حارة السقايين وظل مع ذلك يتلقى علوم الترجمة فى مدرسة الترجمة التى أنشأها المرحوم رفاعة باشا .

وكان فى أثناء دراسته مثلاً للذكاء ولقوة الذاكرة المنقطعة النظير : كان يكفيه أن يقرأ ما يدرس له مرتين أو ثلاث مرات ليستظهره استظهاراً تامًّا . ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات المختلفة . فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية . وهاتان اللغتان الأخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلى ، إذ كان يتلقى عليه مقابل دفع (شبرقته) له . ثم إنه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنه لمناسبة تدل ، إلى جانب قوة الذاكرة ، على قوة فى الإرادة امتاز بها . ذلك أنه سافر إلى إنجلترا فقابله أحد العلماء العارفين باللغة القبطية . ولما علم أنه قبطى كلمه بها فلم يجبه ، ولكنه لم يلبث بعد أن عاد إلى مصر أن أكب على دراستها . فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحبه العالم الإنجليزى خطاباً بها .

وأعانه فى الحياة إلى جانب ذكائه وقوة ذاكرته ومضاء إرادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول . كما كان بريق عينيه بريقاً عجيباً يدل على ذكائه وحيلته . لذلك لم يكد يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الأمر يومئذ وعهدوا إليه بأعمال ذات خطر ومسئولية . فقد دخل فى مسابقة حين كان مدرساً بمدرسة حارة السقايين انتقل بها إلى وظيفة كاتب بمجلس تجار الإسكندرية الذى حلت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله . وجعل يرتقى من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذى حكم سنة ١٨٧٣ فى قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على إسماعيل باشا المفتش . وإذ كان مجلس التجار تابعاً لنظارة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الأمر إلى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليد فى إصدار ذلك الحكم الجائر . فدعا الناظر بطرس إليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعرفته للغات ، ولذلك نقله من عمله وعينه رئيساً لكتاب نظارة الحقانية التى كلف شريف بإنشائها استعداداً لتطبيق نظام الإصلاح القضائى الجديد .

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير فى الحقانية بسبب التحضير لإنشاء المحاكم

المختلطة . وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلاً بترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية . فانضم إليه بطرس وعنى وإياه بتعريب التشريع الذى ما يزال أكثره سارياً فى مصر إلى الوقت الحاضر.

وأتاح له الاشتغال فى التحضير للمحاكم المختلطة التعرف إلى رئيس النظار نوبار باشا ، فكان اتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى . وما فتئ هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمرًّا داعياً إلى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية ، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية فى وزارته التى ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية .

ويرجع اختيار رياض باشا إياه لوزارة المالية ، إلى سبب خاص : ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من إنشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الضائقة المالية التى جرتها إليها الاستدانة الفادحة منذ أول حكم إسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٣ . ففى سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين . لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وإرهاقهم بأقسى وسائل الإرهاق وأبعدها عن كل معانى الإنسانية ، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ماكان يحصل ، حتى اضطرت الحكومة إلى عدم دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الإنجليز الموظفين فيها يومئذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيهما طعام لإعوازه إلى كل ما يسدبه رمقه . وإذ كان الدائنون الأجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعهدات ولى نعمتها ، فقد انتهوا إلى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر . وعين رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعداً له . ثم عين رياض رئيساً للجنة ، وعهد إلى بطرس بالنيابة عن الحكومة . وفى ذلك الظرف الدقيق اضطر إلى أن

يدرس من مباحث اللجنة ومن الشئون المالية ما مكنه من أن يضع تقريراً عن نظام الضرائب فى مصر كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التى تلت تقرير لجنة المالية إلى إقصاء إسماعيل باشا عن العرش فخلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد بدأت تفكر فى إلغاء المجالس القضائية القديمة وفى إنشاء نظام قضائى جديد هو النظام القائم الآن . وإذ كان بطرس ممن عملوا فى التشريع للقضاء المختلط فكان طبيعيًّا أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع للقضاء الأهلى . لذلك عين فى سنة ١٨٨١ وكيلا للحقانية وألقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائى الجديد .

وإلى يومئذ كانت مناصب الحكم فى أعمال الدولة لا يليها إلا المسلمون . فأما الأقباط فكانوا يلون وظائف إنجاز أعمال الحكومة . فكانت المناصب الكتابية وما إليها مفتوحة وحدها أمامهم . فأما القضاء وإدارة الأعمال فكانت وقفاً على أبناء الأغلبية الدينية فى البلاد . ويسير تفسير هذا التقسيم فى ذلك الظرف الذى كان الحكم فيه للأتراك والذى كان الحاكم فيه تابعاً لدولة الخلافة الإسلامية . على أن بطرس غالى رأى فى ذلك منافاة لروح الزمن ، وبخاصة فى عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الأوربية بإنشاء المحاكم المختلطة وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم فى الدين فقط ، بل فى الجنسية وفى اللغة أيضاً . لهذا عين حين وجوده فى الحقانية عدداً من الأقباط فى وظائف القضاء . ولعل هذا التصرف وما إليه من مثله هو مادعا جماعة من الذين خاصموه فى أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لأهل طائفته .

وبقى فى وكالة الحقانية حتى عين ناظراً للمالية فى سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت فى هذه الفترة تغيراً كبيراً كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك أنه لما حدثت الثورة العرابية وانتهت إلى تدخل الإنجليز وهزيمة

العرابيين فى التل الكبير وتشاورهم فى الأمر كان من رأى بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يركنوا إليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة إلى الخديو توفيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر فى الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين إليها ، فإن التجاء العرابيين إليه يدل على أنه كان موضع عناية الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا إليه ورأوا فيه خير واسطة للتفاهم بينهم وبين الحاكم الذى ثاروا عليه .

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية لم تكن الحاجة إليها ماسة أيام حكم توفيق لما كان بينه وبين الإنجليز من تمام التفاهم ، ولكنها كانت ضرورية وكانت منتجة أيام حكم الخديو عباس الذى كان يثق به ويطمئن إليه فى حل الخلاف الكثير الحدوث بينه وبين لورد كرومر قنصل إنجلترا العام فى مصر .

ولعل الحوادث التى مرت بمصر وشهدها بطرس باشا قبل أن يصل إلى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسته وزيراً . فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية فى لجنة التصفية ووقف على ميول الأجانب وعلى أطماعهم ، ثم رأى جهود إسماعيل للوقوف فى وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهى إلى إقصائه عن العرش . ثم إنه حضر وشهد تطورات الثورة العرابية وما آلت إليه من تشتيت الثوار والحكم على زعمائهم بالإعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفى . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات والمحادثات التى حصلت بقصد جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر ، وما كان من وعود الإنجليز فى ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعود فى الشئون المصرية ووضعهم يدهم على الإدارة المصرية . ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقوف إنجلترا فى وجه تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر ، كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديو عباس برغم اعتزازه بملكه الشاب للقائد كتشنر .

وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة إرادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن . مما جعله بعيداً عن الحركة العرابية إلى أن جاء دور السلم والوساطة ، كما كان من طائفة الأقلية الدينية فى وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة أخرى . أضف إلى هذا كله اتصاله بنوبار وتكوين عقله تكويناً سياسياً لا تكوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعوة للمثل الأعلى . هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه إلى منصب وزارة المالية فى سنة ١٨٩٣ وانتقاله إلى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة فى سنة ١٩٠٨ برغم ماجرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان ، برغم ما قدمنا من ميله للسلم وللحيلة ، موضع ثقة الخديو الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة فخرى باشا التى أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمى فى سنة ١٨٩٣ برغم لورد كرومر والتى لم تبق لذلك فى مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم إنه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التى كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على أن عمله فى وزارة المالية وفى وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفء حريص على بقاء المساواة فى المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلا لحكم التاريخ حتى كانت سنة ١٨٩٩ إذ وقع مع إنجلترا فى ١٩ يناير اتفاقية السودان التى كانت بعض ما حاربه به خصومه فى حياته وبعض ما اتخذه قاتله إبراهيم ناصف الوردانى حجة له فى إقدامه على ارتكاب جريمة القتل السياسى ، والتى ماتزال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن .

وقد نعجب إذ نرى بطرس غالى ولم يكن فى سنة ١٨٩٩ إلا ناظراً للخارجية متضامناً مع سائر زملائه النظار فى سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزر هذه

الاتفاقية . فإخلاء السودان فى سنة ١٨٨٤ بأمر إنجلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر إنجلترا أيضاً لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها ، بل كان من عمل مجلس النظار كله . وقد كان بطرس وزيرا للمالية فى سنة ١٨٩٣ مع فخرى ثم مع رياض باشا الذى ألف الوزارة حلا للإشكال بين الخديو ولورد كرومر ، ثم انتقل وزيراً للخارجية لما شكل نوبار الوزارة فى سنة ١٨٩٤ وظل فى منصبه بعد استقالة نوبار وحين شكل مصطفى باشا فهمى الوزارة من جديد . وفى هذه الأثناء كانت الأعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وأم درمان وتمت استعادة السودان فى سنة ١٨٩٨ ، فهل يسأل وزير الخارجية وحده إذا هو وقع بعد ذلك اتفاقاً باسم حكومته !

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الأول والمباشر ، فهو الذى وقع باسمه وبيده . ثم إنه فضلاً عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لأنه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذى أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمى والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستماتة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوى الوحيد فيهم ، فهو لذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق أيضاً . إن بطرس قبطىٌّ وكان للأقباط زعيماً ، والأقباط كانوا يومئذ وفى نظر دعاة الحركة الوطنية المصرية متهمين بممالأة الإنجليز على بلادهم . فبطرس إذن قد وقع اتفاقية السودان ممالأة للإنجليز وتفريطاً فى حقوق بلاده .

كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك مايزال البعض يحسب ، ولو فى دخيلة نفسه ، حرصاً على وحدة الأمة المقدسة فى الأيام الحاضرة . لكن للتاريخ حكماً آخر تجب المجاهرة به إحقاقاً للحق . فمصر يوم اتفاقية السودان كانت تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضى اتفاقاً تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أى جزء من الأجزاء التابعة لها ، أو التى كانت تابعة لها وعادت إليها . وقد أبلغت

الحكومة المصرية حكومة الباب العالى أن إنجلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقاً مقصوراً على إدارة السودان ، لتتمكن بذلك من إلغاء الامتيازات الأجنبية فيه ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة فى الإدارة أن تسهر على أملاكها الإفريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر فى السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديو . وبالرغم من تكرار الكتابة فى هذا الأمر إلى الحكومة التركية فإنها لم تحرك ساكناً ولم تشر بنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعضيد مصر إذا هى وقفت بإزاء إنجلترا موقفاً خاصًا . وعلى ذلك ألفت مصر نفسها وحيدة بإزاء إنجلترا مضطرة أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك فى حادثة فاشودة بما قطع كل رجاء فى مداخلتها كما انقطع الرجاء فى مداخلة غيرها من الدول . مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية صاحب عرش مصر ولم يجعل إنجلترا شريكة فيه . بل هو اتفاق مقصور على إدارة السودان بنصه وبتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من كتاب الإنجليز وساستهم إياه وبتنفيذه فى المدة التى تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام ، برغم أنه حاكم عسكرى فى بلاد خاضعة للحكم العرفى ، لا ينفذ أمراً ولا ينشر قانوناً إلا بعد أن يبعث به إلى مجلس النظار فى القاهرة ، وبعد أن يرد المجلس إليه الأمر أو القانون أو الإرادة السنية كما هى أو منقحة بما تراه الوزارة المصرية . فإذا كان قد حدث بعد ذلك أن استفادت السلطة الإنجليزية من ضعف الوزارات التى وليت الحكم فى مصر وأن مدت ادعاءاتها إلى أكثر مما يبيحه اتفاق سنة ١٨٩٩ ، فليس الذى وقع الاتفاق المذكور فى الظروف التى أشرنا إليها مسئولاً عن شىء منها .

هذا هو حكم التاريخ ، وهو الحق فى أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالى منها . على أن ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة المغفور له مصطفى باشا كامل ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة للهجوم والمقاومة ، جعل الوزارة

المصرية أشد ميلاً للتفاهم مع الإنجليز تفاهماً يخفف من حدة هذه الحركة إن كان ذلك مستطاعاً ، ويقف فى وجه طغيانها على النظام وعلى الأمن إذا خشى منها عليهما ، ويعطى لاتفاقية السودان معنى غير معناها الأول يخول إنجلترا فيه سلطاناً لم يقصد الاتفاق تخويلها إياه .

وكانت الحركة الوطنية فى ذلك الحين متجهة إلى الاستفادة من خلاف الدول ، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة فى تحرير مصر . وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضعضع سلطان فرنسا لهذا السبب ، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى متجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودى الذى التزمت به فرنسا ألا تعترض إنجلترا فى مصر . فلما تم هذا الاتفاق شعر المصريون جميعاً بازدياد مركز إنجلترا فى مصر قوة . وكان النظار المصريون المتصلون بالسلطة الإنجليزية فى مصر بسبب مراكزهم أكثر من غيرهم شعوراً بهذه القوة بل إيماناً بها واستعداداً لتقديم القرابين لتهدئة ثوائر غضبها .

وفى هذه الظروف بلغ سلطان إنجلترا فى مصر أوج قوته . فلم يكن أمر ما ، بالغة ما بلغت تفاهته ، يبرم أو ينقض من غير إقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين مهما يكن منصب الموظف الإنجليزى صغيراً ومنصب الموظف المصرى كبيراً . كان تلغراف جرانفل ، الذى يقرر أن مشورة إنجلترا واجبة الاتباع فى مصر ، لا يقف عندما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدها من رأى ، بل يمتد إلى المستشار الإنجليزى وإلى مفتش الداخلية وإلى ملاحظ الطرق وإلى كل إنجليزى أيًّا كانت مكانته . وبإزاء هذا السلطان الإنجليزى النافذ فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعاً قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها . وكمظهر لهذا التنافر بين

السلطة الحاكمة من ناحية والشعب المصرى من ناحية أخرى ، وقعت حادثة دنشواى بإصطدام جماعة من الضباط الإنجليز الذين كانوا يصيدون الحمام فى أثناء ذهابهم من القاهرة إلى الإسكندرية مع أهل قرية دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداماً انتهى إلى موت الكابتن بول الإنجليزى ، وإلى تأليف المحكمة المخصوصة برئاسة بطرس باشا غالى الذى كان وزيراً للحقانية بالنيابة لغياب وزير الحقانية بالإجازة ، وإلى صدور وتنفيذ ذلك الحكم الجائر الذى يعتبر مثلاً من أمثلة البربرية والوحشية فى أشد عصور الإنسانية ظلاماً ، والذى أعدم بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواى المفجوعين فى أهلهم وعائليهم ، عدا الذين زجوا منهم فى غيابات السجون .

وكانت رياسة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التى أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه ، ولكن دون لومه ومؤاخذته على اتفاقية السودان . ويقول المدافعون عن بطرس باشا فى هذه المسألة : إن حكم دنشواى كان حكماً سياسيًّا أملته السلطة الإنجليزية التى أمرت بإرسال المشانق قبل أن يصدر ، إذ أرادت أن تضرب بكل صرامة وحزم – وأنه كان صادراً من أغلبية انجليزية لأعضاء المحكمة ، فلم يكن للأقلية الموجودة فيها ، بحكم القانون ، بد من إقراره وتوقيعه . وبطرس باشا كان رئيساً للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذى ألقى بهذه الرئاسة إلى ناظر الحقانية ، فكان لا مفر له من الخضوع لرأى أغلبية الهيئة التى برأسها والتى أصدرت ذلك الحكم الجائر.

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجاهة لا ينهض حجة لتبرير عمل بطرس باشا إلا إذا كان هو معتقداً عدالة الحكم الذى أصدره وإنسانية تنفيذه مما لا يصدق على رجل كان له من عواطف الخير والإنسانية ما كان لبطرس . ذلك بأن الرجل الذى يجلس رئيساً لهيئة قضائية يعهد إليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير

صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل المجرد من كل هوى . فأما أن كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئة قضائية وكانت صورة هزلية لعدل لا وجود له وإنما تملى السياسة أحكامه ، فكان حرِيًّا برجل له ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور إلى أقل حدوده وألا يرضى هذا التنفيذ الذى بعث إلى قلب الإنسانية جمعاء رعشة اشمئزاز وتقزز واستفز فى نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الإنسانية المهذبة ولا من الإنسانية المتوحشة فى شىء .

وكان حكم دنشواى خاتمة سيئة لحياة سياسى ماهر هو لورد كرومر . فعلى أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة إنجلترا ، كأمة مدنية ونظام ، تتزعزع فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم . وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجأ العدالة فى مصر وكانت ألوف العرائض والشكاوى ترفع إليها طلباً للنصفة من ظلم الحكام بل من حيف القضاء ، تراجع المتظلمون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والمجالد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الإنسان فى التحديق به بل يولى منه فراراً و يمتلئ منه رعباً . لذلك لم تطق الوزارة الإنجليزية أن تؤيد عميدها فى مصر فاضطر إلى الاستقالة فى مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية إلى الموافقة على العفو ، بفضل جهاد مصطفى كامل ، عن مسجونى الدنشويين .

وخلف السير الدون غورست لورد كرومر كعميد لإنجلترا فى مصر ، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هى التقرب إلى الخديو الذى كان مؤيداً حتى يومئذ لمصطفى كامل وللحركة الوطنية . وربما خيل إلى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديراً على توجيه حركة مصطفى كامل وجهة أخرى مادام هو الذى خلق هذه الحركة وغذاها ، متناسياً أن الزعيم الشعبى مرتبط دائماً بالمبادئ والمثل العليا التى نادى بها ولو اعتقد عدم إمكان تنفيذها . أو لعله قصد بسياسة الاتفاق مع الخديو إلى

ما حدث بعدها من انفصال الحزب الوطنى عن عباس الثانى ووقوفه منه موقف العداوة الصريحة فى بعض الظروف . على كل حال فقد خلقت سياسة غورست فى مصر جوًّا جديداً ووجهت الأنظار إلى نواح لم تكن تتجه إليها طويلاً من قبل .

ومما اتجهت إليه الأنظار يومئذ اتجاهاً خاصًّا المطالبة بالدستور وتقرير سيادة الأمة . فقد تألف حزب الأمة وجعلت «الجريدة» ، وعلى رأسها الأستاذ لطفى بك السيد ، يدعون إلى الدستور بكل مالديهم من قوة ، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فساداً بيناً . وإذ كان حزب الأمة يعبر عن الرأى المعتدل فى مصر فلم يكن فى مقدور الحكومة ألا تستمع له فى هذا الشأن . لكن وزارة مصطفى فهمى كانت قد سلخت فى دست الأحكام ثلاث عشرة سنة منفذة لسياسة خاصة لا تتفق مع السياسة الجديدة التى جاء بها السير غورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية . لذلك استقالت فى سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو إلى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . فشكلها ، وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علنية جلسات مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللإجابة عَمَّا يوجه إليها من الأسئلة ، وأن عينت البرنس حسين كامل (السلطان حسين) رئيساً للمجلس زيادة لهيبته وإحترامه . لكن هذه الخطوة الأولى كانت دون ما تطلب الأمة بمراحل ، فلم تخفف لذلك من المطالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفاعاً . وإذ كان بطرس يميل إلى تحقيق هذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمد إنجلترا كى يضع نظاماً يقرب مصر من الحكم الذاتى .

وكان السير غورست لما يصل أمام الرأى العام البريطانى إلى شىء من مثل مكانة لورد كرومر . لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة عنيفة فى مصر قد تحول بينه وبين موافقة الحكومة البريطانية على طلب الحكومة المصرية ، كما رأى أن حالة الأمن ليست كذلك مما يؤيده عند وزارة خارجيته . لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة

الذى سن فى سنة ١٨٨٢ مبيحاً للإدارة حق إنذار الصحف وتعطيلها ، وأن يوضع قانون النفى الإدارى لإرهاب الجناة . والظاهر أن حرص بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة فى سبيل الحكم الذاتى كان شديداً . وكثيراً ما يلجأ السياسى الشديد الحرص على تحقيق غاية معينة يراها ذات خطر فى حياة أمته ، إلى قبول أشياء لا يقبلها غيره ، مادام يعتقدها أشياء مؤقتة قليلاً ضررها إلى جانب الغاية العظيمة المرجوة . لذلك لجأ بطرس بإزاء رفض زميليه سعد زغلول ومحمد سعيد لطلب المعتمد البريطانى بعث قانون الصحافة وإصدار قانون النفى الإدارى ، إلى وساطة الخديو عندهما ، فأوفد سموه من رجاله من أقنعوهما . فصدر القانونان فى سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورهما فى البلاد دويًّا هائلاً ووقفت الصحافة ووقف الرأى العام يندبان الحرية المضاعة بغير ثمن إلا إرضاء المطامع الإنجليزية فى حرصها على قهر مصر وإذلالها .

وامتدت هذه الضجة إلى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد الوقت فى الصحف ، ولكنها تنوولت هذه المرة بحدة لم يسبق لها نظير . ذلك أن الصحافة القبطية فى مصر كانت تدافع دائماً عن بطرس باشا وكانت تتهم الصحافة الإسلامية بالتعصب الدينى فى مهاجمتها إياه . وكانت النعرة الدينية قوية فى ذلك الحين كما قدمنا . لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الكتاب إلى حدود غير معقولة ولكن لها نظائرها حتى فى أشد الأمم تحضراً . وأقرب هذه النظائر مالا يزال يبدو الوقت بعد الوقت فى صحافة الأمم المسيحية خاصًّا باليهود . وكانت بعض الصحف الإسلامية من جانبها لاتنى عن مجاراة الصحف القبطية فى هذا المضمار وسبقها . على أن ما وقفنا عليه من مصادر مختلفة أكثرها إسلامى يقنعنا بأن بطرس باشا لم يكن متعصباً لأبناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية . يؤيد ذلك أنه لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم افتتاحها الأستاذ

الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله نديم وغيرهم ، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثير من أصدقائه المسلمين متصل البر بكثير من العائلات الإسلامية . من ذلك أنه كان أول من ذهب إلى المغفور له الشيخ سليم البشرى على أثر إقالة الخديو إياه من مشيخة الأزهر يسأله ما يستطيع أن يقدمه له من خدمة . وكان كثيراً ما يقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم كبير معرفة ، كما كان يصلهم صلة أبناء طائفته . على أن بره بأبناء طائفته أمر طبيعى . وخير ما سمعنا عنه فى هذا أنه كان يتوافى للأقباط جميعاً كما كان يتوافى لأفراد من المسلمين ، وأنه هو الذى صنع الطائفة القبطية فرفعها من مستواها الضعيف الذى كانت فيه إلى مستوى أسمى منه بكثير . فالجمعيات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية القبطية يرجع الفضل فى أكثرها له هو أكثر مما يرجع لأى شخص آخر ، كما يرجع الفضل له فى فتح أبواب الوظائف العامة للأقباط أسوة بالمسلمين .

واستمر يتابع ، بالاتفاق مع المعتمد الإنجليزى ، وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية ، وقبل أن يتمه كى يصدر القانون به طلبت شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٩٦٩ . وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب . لكن حركة الرأى العام المصرى فى هذا الشأن كانت قوية اضطر أولو الأمر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعيًّا . وفى أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفى فرصة هياج الرأى العام وتوتر أعصابه ، فكر إبراهيم ناصف الوردانى فى قتل بطرس معتبراً إياه خائناً لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواى . روت «الجريدة» الصادرة فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ وصفاً للحادث ما نصه «بقى — الباشا — كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته فى جماعة من الموظفين ، وعند باب نظارة الحقانية صافحهم وانصرف ومعه النائب العمومى ، فما كاد يضع رجله على

سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ما تصور وتجسمت فى نفسه الخيالات فلم ترعه هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب . . . أصابه الرصاص فى العنق والكتف والبطن فخر صريعاً فحمل إلى أودة ناظر الحقانية ثم إلى مستشفى الدكتور ملتون . وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسير غورست والأمراء وأعيان الأمة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل . فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لإخراج الرصاصة الباقية ، ولكن كانت ، مع الأسف ، قد نسفت الأمعاء ونفذت فى صدر المعدة » .

وقضى رحمه الله فى الساعة الثامنة والربع من صبيحة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن فى اليوم التالى فى مشهد مهيب . واليوم ترقد رفاته فى كنيسته القائمة على جانب شارع الملكة نازلى الذى كان من قبل شارع عباس[١] .

* * *

هذه حياة بطرس غالى . والقارئ يرى كيف كانت حياة سياسى عظيم ومحسن كبير . ولئن كان قد أخطأ التقدير فى بعض مواقفه فهو لم يقصد يوماً إلى غير خدمة بلاده . ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره « يعلم الله أنى ما أردت غير الخير لبلادى » . وكانت كلمة حق .

(١) شارع رمسيس الآن .

مصطفى كامل باشا



فى عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينا أنا جالس مع أحد زملائى طلبة مدرسة الحقوق الخديوية إذ ذاك على باب داره ، جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جواداً ، فلما كان بإزائنا وقف برهة فحيانا وقال «أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى» . وكان زميلى من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم . فلما سمع قول الناعى سأله فى لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقاً جواده : نعم ! ولكم طول البقاء ! وتركنا أنا وصاحبى واجمين من هول الخبر وإن كان حديث الباشا ومرضه والخوف على حياته بعض ما تواتر فى ذلك الحين . وبعد زمن قصير تركت صاحبى عائداً إلى بيتى فألفيت على الناس فى الشوارع والحوانيت من أثر الذهول ما يدل على أن نعى الباشا إليهم مس من قلوبهم أدق أوتار الحزن والألم . ولم يستقر بى المقام فى البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغنى الخبر ويعلن إلى ما قررته المدارس كلها من

الاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم العظيم : وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام فى العاصمة وفى مصر كلها لم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الشاب . فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الأمن والنظام ، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد كانوا يفكرون فى العمق الذى تغلغل إليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة . فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل ما فى المدينة ولم يبق بها أثر لحياة إلا فى مشهد وداع هذا الراحل رحلة الأبد . قال المرحوم قاسم أمين فى كلماته التى نشرت بعد موته ، أى بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل ،

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى .

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة .

« ولكن هذا الإخاء فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان .

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع

أنحاء القطر .

« هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » .

ولم يكن عجيباً أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب . ولم يكن عجيباً أن يحرك مصر من أقصاها إلى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب . فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم إسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن إلا بتخفيف الأعباء المالية ناسياً كل اعتبار غير تخفيض الضرائب . ليخيم على البلاد الجهل ، وليكن الغرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير مادامت الضرائب المرهقة ومادامت السخرة والكرباج قد ألغيت . فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الإنسانية ، بعث القدر مصطفى بشيراً بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت ، عالى الكلمة ، طلق اللسان ، قوى الجنان ، حلو الأسلوب ، يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها . فكان طبيعياً أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذاً ومتنفساً . ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء . ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير فى طريقها ، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئاً . ألست ترى إلى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذى المال جزاء كدحه طول نهاره ، ثم ما يلبث أن يذهب

لسماع الشاعر أو المغنى يروى عنده ظمأ روحه . وهو لهذا المغنى أشد حباً منه لمن يمسك عليه حياته المادية ، لأنه يحس فى الشاعر معنى إنسانياً ، فى حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه إلا الإبقاء على حياته الحيوانية البحتة .

لذلك كان جزاء وفاقاً أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل . وكان حقاً أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته ، وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر .

* * *

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ ، أى فى السنة التى ولد فيها الخديو عباس حلمى الثانى . وقد بعث به أبوه على أفندى محمد ، وكان مهندساً ، إلى مدرسة أم عباس ، فمدرسة القربية الابتدائيتين حيث تلقى دراسته الأولى . وفى أواخر أيامه بهما توفى أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق ، وبعد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة التجهيزية — الخديوية الآن — لتلقى دراسته الثانوية . وفيها ظهر جريئاً أكثر من زملائه جميعاً . وجرأته هى التى جعلته دون سائر إخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف إذ ذاك على باشا مبارك يشكو له حيف نظام الامتحان حيث أدى إلى رسوبه ورسوب زملائه . وإعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذى جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدى ذلك إلى نجاح مصطفى وكثيرين من زملائه . فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية فى العام المدرسى ١٨٩١ — ١٨٩٢ . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رسائل ومقالات فى الصحف ، كما أنه ، على ما يذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديو السابق عباس حلمى الثانى برابطة كانت ذات أثر مباشر فى حياته كلها بعد ذلك .

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذى اصطفاه عباس الثانى ، ولا كان

هو وحده الذى أثر ارتباطه به فى حياته ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذ ممن توسم فيهم الذكاء والإقدام فعاونهم فى دراساتهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدهم إلى أوربا لمهمات سياسية يؤيد بها سلطته ومركزه كحاكم مصر الشرعى .
وسياسة عباس الثانى كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الإنجليز ، فإنه ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد نداً له فى قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية فى الحكومة . وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد ، مدفوعاً بحماس الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التى اضطر معها إلى الاعتذار عن ملاحظته التى أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصرى بالسودان . وكان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد إسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عرابى واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الإنجليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر — كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس تردداً فى مشاركة الأمير الشاب الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهون عليهم ظلم إسماعيل استبداد الإنجليز والذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم . فقد جمع إلى الشباب إقداماً جاوز حدود الإقدام مع نشاط عصبى لا يهدأ إلا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات فى الصحف بل أنشأ ، وما يزال فى أول سنى طلب الحقوق ، مجلة أسماها «المدرسة» ، صدر أول أعدادها فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيماً لزملائه فى الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم إلى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التى يرشده إليها اختياره الشاب فى بطون

الكتب والنشرات الدورية .

وفى يونية سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة إلى فرنسا ليؤدى امتحان الحقوق الأول بباريس . وكان طبيعياً أن تأخذ بلبه الغض حضارة الغرب وأن تؤثر فى أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة . وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها ألمانيا ، وجعلت تذكر فى حسرة تدليها من الصف الأول فى تصريف سياسة العالم . والشعور بالألم يحفز الإحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل . وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضاً كما تأثر بالحضارة وبالحرية . وزاده تأثراً معاودته الحضور للامتحان فى سنة ١٨٩٤ بباريس وفى أواخر هذه السنة بتولوز حيث نال إجازة الحقوق . ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وآمالها . ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ما وقع له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كرومر وما دار بينهما من حديث كان له فى العالم السياسى قيمة وترتبت عليه حملة صحفية اشترك هو فيها فحالفه الفوز فاتجهت إليه الأنظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته . فقد نشرت جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (حديث ذو شأن) موقعاً بإمضاء مصطفى كامل حاوياً لما دار بين المصرى الشاب وبين الضابط الإنجليزى من مناقشة أفضى فيها الضابط بكل سياسة إنجلترا فى مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذى لا يعرف حجة ولا جدلا : دليل قوة السيف والمدفع . وأفضى فيها المصرى الشاب بحجة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوته فى ذاته وعلى أوربا التى لا تنظر إلى إنجلترا فى وادى النيل بعين مطمئنة . ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه فى المستقبل وتفسر السياسة التى اتبعها إلى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا اتفاقاً انضمت إليه ألمانيا والنمسا . قال مصطفى : «إن لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها . . . . ولنا أوربا بأسرها التى تناديها صوالحها العدة

بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها » .

وربما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر فى اعتمادهم على أوربا والتجائهم إلى بعض دولها لمناوأة البعض الآخر . فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت يومئذ على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها إلى أنها نالت من الغنيمة الحظ الذى يكفيها والتى تكفى قواها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه . بل كانت المنافسات ما تزال على أشدها بين إنجلترا وفرنسا . وكانت ألمانيا الناشئة متطلعة إلى مثل الإمبراطورية البريطانية . وكانت النمسا تنظر إلى ماضيها بعين الوجل إذ تراه يرتجف . وكانت سياسة الباب العالى فى الآستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضاً ؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعاً إليها لتتخلص منها جميعاً ولتصل إلى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلى الواسع النطاق الذى وصل إليه إسماعيل باشا ؟

والواقع أن فرنسا كانت ماتزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد إحجامها عن الاشتراك مع إنجلترا فى التدخل المسلح سنة ١٨٨٢ . وكان ألمها أشد لأن هذه الضربة كانت فى حكم القاضية على ما نالته فى وادى النيل من نفوذ منذ حملة نابليون فى سنة ١٧٩٨ ، ومنذ اصطفائها محمد على وسعيد من بعده ، ومنذ قيامها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية فى بلاد الفراعنة . وزاد الجرح إيلاماً أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول نفوذ فرنسا فى الشرق الأقصى بسبب تغلب إنجلترا عليها فى الهند وفى غير الهند من الممتلكات .

وقد أراد الخديو مستتراً وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية

الاستفادة . وكانت القاعدة التى رسمت أن تطالب الدول الأوربية إنجلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر ، وأن تدفع الدول الأوربية إلى هذه المطالبة ببيان ما تقوم به إنجلترا فى وادى النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه . وكان حديث مصطفى كامل مع الكولونيل بارنج خطوة أولى وخطوة قوية فى هذا السبيل . ولم تمض على هذه الخطوة أسابيع حتى استصدرت إنجلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه . وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضا . ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسى إلى مصر فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ . ولعله وحده ، بل لعل الحكومة الفرنسية وحدها لم يكونا كل السبب فى حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالإسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائداً إلى بلاده فى ١٣ أبريل من ذلك العام . وفى يوم ١١ أبريل أولم دلنكل للصحفيين بالإسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكراً إياه وشاكراً فرنسا منتظراً منها معونة مصر وتأييدها .

ويذكر المرحوم على بك فهمى كامل فى السيرة التى وضعها لأخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الأورطة البيادة الأولى أسر إليه مصطفى بأنه مسافر إلى باريس . وقد دهش على لهذا السفر المفاجئ على غير ميعاد وبلا سبب . وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره إنما تدعو إليه « المسألة المصرية » لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقة .

وسافر مصطفى إلى باريس . والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة تدل على مهارة لا تتاح لفرد ، بل تدبرها جماعة ، وعلى نشاط لا يؤتاه كثيرون ، فذكر بداءة أنه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى . والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلفه مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ . لكن

الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين . وإذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذى تغلب عليه الإنجليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل .

ثم إنه جعل أساس دعوته فضلا عن ذلاقة لسانه لوحة فنية بديعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذى نقشها ومن الذى أمر بنقشها ، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة فى قوس نصر قام على نصب رفيع يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين إلى فرنسا يستنجدونها لتفك أسار وطنهم . ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الأبيات :

أفرنسا يا من رفعت البلايا   عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء   واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى   تجتلى الخير أمة تهواك

ومن هذه اللوحة طبعت ألوف وزعت فى أنحاء العالم ونشرت فى كل صحيفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة إلى رئيس مجلس النواب الفرنسى نيابة عن المجلس . ومما جاء فى هذه العريضة قوله :

«جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة — فرنسا — التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها ؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الإسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها . . فلتحى فرنسا محررة الأمم» .

كان لهذا العمل الذى قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطنى ضجة كبيرة فى العالم لفتت إليه الأنظار من كل صوب وجعلت الصحف فى مختلف الدول تهتف باسمه ، خلا الصحف الإنجليزية التى تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته إلى

مقامات خاصة فى مصر . وشد هذا النجاح الأول من عزيمة مصطفى كامل ومكن له من الاتصال بكبار الساسة وما يزال فى مقتبل شبابه . وزاده جرأة وإقداما فجعل يطوف عواصم أوربا يتحدث فيها إلى الصحفيين والساسة مذكراً إياهم بوعود إنجلترا بالجلاء عن مصر وبمصالح دولهم فى أن يتم هذا الجلاء . ثم عاد إلى باريس فنشر فيها رسالة عن أخطار الاحتلال الإنجليزى لمصر . وفى ١٣ نوفبر سنة ١٨٩٥ كتب إلى لورد سالسبرى رداً على خطاب كان الوزير الإنجليزى قد ألقاه فى جلد هول عن سياسة أوربا نحو تركيا . وفى خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافة . وفى ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب إلى المستر جلادستون يطلب إليه ، برغم وجوده بعيداً عن الحكم ، تصريحاً فى شأن مصر . فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيه العبارة المأثورة : « وافى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين » . وعاد بعد ذلك إلى مصر حيث أقام بها حتى أغسطس إذ شد رحاله إلى أوربا من جديد . وفى أثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الأول بالإسكندرية كما كثر المتصلون به من المصريين . وفى هذه الفترة أيضاً نشرت له جريدة الإكلير الفرنسية التى تصدر بباريس حديثاً عن الحملة المصرية الإنجليزية إلى السودان معتبراً إياها وسيلة إلى إطالة أمد الاحتلال الإنجليزى إطالة لا نهاية لها . وفى هذه الفترة أيضاً اتصل علنا بالخديو اتصالا زاد العلاقات بين لورد كرومر وعباس توتراً . ثم سافر فى أول أغسطس إلى باريس حيث استمر هناك فى نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوربا على التدخل لمصلحتها . وفى هذه المرة كان يذكر الخديو عباس وميوله نحو مصر وأن « خطته هى انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة » . ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة ، وبعد أن قام بنشر الدعوة فى باريس سافر إلى برلين ومنها إلى فينا فالآستانة حيث وصلها فى أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان . قال فى كتاب له إلى أخيه على فهمى كامل

«وكان جلالته ، كما أبلغنى الباشكاتب ، يود الإنعام على برتبة أو نيشان ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شيء من ذلك حتى لا تروج بضاعة الأعداء ضدى ويتهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حباً فى الظهور وفى مثل هذه الألقاب الكاذبة» .

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسى فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلا بين عواصمها متحدثاً إلى رجال الصحافة والسياسة فيها داعياً إياهم ليستوفوا إنجلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثاً عن المصريين تارة وعن المسلمين طوراً ، كل ذلك فى لهجة أدنى إلى الاعتدال وإن وصفها الإنجليز بالتطرف . وقد بقيت من أساليبه فى الدعاية السياسية إذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الإسكندرية وغير ضرب الإسكندرية من الحوادث التى أدت إلى الاحتلال البريطانى لمصر . لكن السياسة الإنجليزية من جانبها كانت جادة فى السعى لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج إلى مصطفى كامل مما نشره فى يناير سنة ١٨٩٥ . فكانت الحملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفى مقدمتها فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناوأة إنجلترا فى مصر . ولكن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه وإقدامه وإن يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير فى وسائل أخرى . وكان الالتجاء إلى الباب العالى بعض هذه الوسائل .

ولعل التفكير فى هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية فى الحرب البلقانية . وفى هذه الأثناء كثر تردد مصطفى كامل على الآستانة وازداد إعجاب السلطان عبد الحميد به فأنعم عليه فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الأولى ، وذلك فى ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنين قلائل .

ولم يكن فى مقدور تركيا أن تقاوم إنجلترا فى مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الأوربية . وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم

ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لإجلاء إنجلترا عن مصر ، وليفكروا فى استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية . وبهذه الفكرة تأسست مدرسة مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الإسلامية القوية التى يمكن أن تتجه الشعوب الإسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى . أما فيما يتعلق بسائر الدول الأوربية فقد ضعف رجاؤه فيها وإن ظل مستمسكاً منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الأمل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته عالياً خمس سنوات تباعاً فى عواصم أوربا ، أو لعلها الحرص الطبيعى فى الإنسان على ألا ينكر شيئا من ماضيه . أما سياسته فى استنهاض الشعب المصرى فكانت تقوم على غرس الكراهية فى نفوس المصريين للإنجليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالإيمان بحق الوطن وبالتفانى فى محبته والإخلاص له وبالأمل دائماً فى ثمرة السعى الصالح لفائدته .

وعجيب مع ذلك كله ، ومع أن مصطفى كامل كان ذكياً جريئاً ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين فى أوربا ، ومع إعجابه بالمدنية الأوربية إعجابا تكرر ذكره فى كتبه ورسائله — عجيب مع ذلك أنه كان رجعياً فى دعوته الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ . وكان منطقياً أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها فى يناير سنة ١٩٠٠ . لكن الأمر كان على نقيض ذلك . فقد كان اللواء خصما لدوداً لقاسم أمين ولأفكاره وكان ميداناً لأشد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك فى شأن الإصلاحات الاجتماعية كلها محافظاً بل رجعياً مستمسكا بالقديم أشد الاستمساك . ولئن جاز لنا أن نعلل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجهماً حرم عليه وهو مستشار

بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فإن تعليل رجعية اللواء فى الشئون الاجتماعية قد يبدو عسيراً إلا إذا كانت العلة هى بعينها التى دعت الأمير ورجاله للوقوف فى وجه قاسم وأفكاره . هذه العلة فى رأينا هى تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية التى يريد الأمراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هى علة تمليق الأمراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والأوهام . فلو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل عضد قاسماً فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك لفتور الشعب عنهم وتردده فى اتباعهم . ولو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد فى الناحية التى تعرض الشيخ محمد عبده لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد . والداعية السياسى تاجر يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه . ومادام غرس كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالإيمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للإصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى وليكن الأمير محافظاً بل رجعياً بل عدواً ظاهراً محارباً لكل فكرة حرة .

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح . ذلك بأن نفوس الشباب فى مصر كانت متعطشة إلى نغمة جديدة تحيى فيها الأمل بحياة عزيزة . وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية إلى أن جاء مصطفى كامل . وبرغم وجود كثيرين ذوى مقدرة لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير أنضج من تفكيره ، فلم يكن أحد منهم فى إقدامه ولم تكن حمية الشباب ملتهبة فى نفس هؤلاء التهابها فى نفسه . وعاون على نجاحه أسلوب جديد فى الخطابة لم يكن مألوفاً من قبل ، هو الأسلوب الوجدانى الذى امتازت به خطابات الثورة الفرنسية . هذا الأسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التى تندفع بها المجاميع من غير روية عادة إلى الغاية التى يريدها الزعماء . «لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة» ، «بلادى

بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر» ، «لو انتقل قلبى من الشمال إلى اليمين . . . إلخ» بهذا الأسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه همتها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب أن ينهض بأعباء دعوته مؤيداً من الخديو عباس وأصدقائه بادئ الأمر ، شاعراً بقوته بعد ذلك ، مملياً إرادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه إرادتهم ، مستأثراً بكل أمر وبكل رأى ، مطاعاً من كل أنصاره وأتباعه الذين لم يتسام واحد منهم ليتطلع إلى مثل مكانته ، متقدما دائماً إلى الأمام يتبعه شباب الأمة كلها ، رافعاً بذلك علم النهضة مردداً نشيد الأمل فى المجد والعظمة بصوت تهتز له الأفئدة وتخفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه بل بوقوعه .

بإزاء هذه الحركة الوطنية المتدفقة حرارة وإيماناً لم يكن لإنجلترا إلا أن تضاعف المجهود لبلوغ غاياتها السياسية فى مصر . ولم يكن لورد كرومر ممثلها فى مصر يومئذ بالرجل الذى يستهان به ، فحارب هذه الحركة وطعنها من جانبين . اتهمها بالتعصب الإسلامى ليستثير أوربا المسيحية . واتهمها بالعداوة للأجانب ليؤلب الدول فى صف إنجلترا . وما أيسر ما تصدق الأذن الأوربية كلمة التعصب الإسلامى وعداوة المصريين المسلمين للأجانب المسيحيين . لذلك أنفق مصطفى كامل كثيراً من جهوده فى مصر وفى أوربا لنفى التهمتين ، وكان من ذلك أن أنشأ جريدتين فى مصر إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية . على أن إنجلترا لم تقف من مجهوداتها عند هذا الحد . بل واصلت المسعى السياسى حتى عقدت الاتفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على إطلاق يدها فى مصر على ألا تغير نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث

بذلك معاهدة السودان التى عقدت فى سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودى انهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار مجهوده منذ سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقتضوا إنجلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل .

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمة قوية . فرنسا هذه التى طالما علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنسا محررة الأمم ومعلنة حقوق الإنسان والمنادية بالحرية والإخاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفاق الودى تؤيد به سياسة الاستعمار فتترك إنجلترا تطلق يدها فى مصر مقابل ترك إنجلترا إياها تطلق يدها فى مراكش ! ! يا لخيبة الأمل ! وأين إذن محل الرجاء ؟ !

لكن «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» ! فلنجاهد . ! واستمر مصطفى كامل فى جهاده ، وما يزال له فى دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الإسلامية للالتفاف حول دولة الخلافة كوسيلة لتحررها محور دعوته . فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر فى الدولة العلية هى الأخرى . ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته حين تبوأ عباس عرش أبيه فى سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الأراضى المصرية ، فوقفت إنجلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هى المبينة فى الفرمان الذى أصدره السلطان لإسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٣ . وقد قبلت تركيا ذلك فى تلغراف أرسله الباب العالى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٥ . لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف فى سنة ١٩٠٦ تفسيراً خاصاً فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح إلى السويس فإلى العقبة . فوقفت إنجلترا مرة أخرى . ولما احتلت القوة التركية طابة ، وهى قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير إدوارد

جراى وزير الخارجية البريطانية إذ ذاك سفير تركيا فى لندرة بما معناه : إن قوات الإمبراطورية على استعداد لتأييد مركز إنجلترا فى مصر . وقد استمرت المشادة فى هذا الموضوع بين تركية وإنجلترا زمناً وقف فى أثنائه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته . على أن تركيا انتهت آخر الأمر بالتسليم بمطالب إنجلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل أمل فى معونة تركيا . وكذلك تداعى الركن الثانى من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل قائماً بها .

ولقد كان من شأن تداعى هذه الأركان واحداً بعد واحد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال . على أن حادثاً جديداً وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والإنسانية بمعناها الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالى . ذلك هو حادث دنشواى . فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الإنجليز من القاهرة قاصدين الإسكندرية فمروا فى طريقهم بقرية دنشواى فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها . واعترضهم الأهالى وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وبإصابة بعض الضباط الإنجليز إصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متأثراً بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر فى هذه القضية وحكمت على أربعة من الأهالى بالإعدام وثمانية بالجلد وآخرين بالأشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للإنسانية بها منذ عصورها المظلمة . فقد نصبت المشانق التى أرسلت إلى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالى مباشرة ونصبت إلى جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن . فكان كل محكوم عليه بالإعدام يعلق فى المشنقة ويبقى معلقاً أمام أنظار أهله وأبنائه إلى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد . وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها

بقطعة من الرصاص . ومن حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ، ومستشار الداخلية الإنجليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى ابدعته إنجلترا فى مطلع القرن العشرين . ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عالياً دفاعاً عن الرحمة وعن الإنسانية وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت الإنسانية أجيالا وقروناً لتثبيتها فى النفوس . وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه ! وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بإزاء قوة إنجلترا فى أوربا وفى مصر لابد أن تنجح إذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس . وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجاح . والحق أنه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل إذ قال : إن عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيى شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث . لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى إنجلترا بياناً لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر إلى اعتزال منصبه فى مصر مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثراً فى حياة الإمبراطورية .

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الأولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ، وقدر جماعة منهم أن لابد من الأخذ بسياسة أخرى هى إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الإيمان بنفسها فى نفسها لا لمجرد كراهية الإنجليز ولا حباً فى الباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولكن حباً فى الاستقلال والحرية لذاتها . وكان لطفى بك السيد وزير المعارف السابق لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم

إصدار جريدة «الجريدة». على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه. لذلك هاجم «الجريدة» قبل صدورها وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه. ولعل هذا الخلق فى الزعيم الشاب هو الذى دعاه أن يبعث من أوربا على أثر إعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجاً على عملهم بأنه سبقهم إلى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته.

وخلف سير الدون غورست لورد كرومر كمعتمد لإنجلترا فى مصر، فجرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التى كانت سائدة بين عابدين وقصر الدوبارة إلى ذلك التاريخ، وطمع الخديو فى أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعى لها هو الذى دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان ليعملوا باسم مصر كى يخليها الإنجليز فتبقى السلطة فيها محصورة فى يد حفيد إسماعيل. وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل. وذلك شأن الملوك. يصطفون من يصطفون ما دام لهم فى ذلك مأرب خاص. فإذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وأنكروه. ثم إن مصطفى رأى دعوة لطفى السيد إلى الاستقلال التام أبعد مدى من الدعوة إلى جلاء إنجلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا. لذلك قال فى الخطبة البديعة التى ألف بها الحزب الوطنى وألقاها فى تياترو زيزينيا بالإسكندرية ما نصه: «فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها. وأننا إذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون». ومع هذه الكلمة الصريحة فى المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الأولى من برنامج الحزب الوطنى هى استقلال مصر الداخلى وفاقاً لمعاهدة لندرة فى سنة ١٨٤٠. ولعل ذلك إنما نص عليه تفادياً من معارضة القانون والتعرض لتهمة التآمر

لقلب النظام الذى كان موجوداً .

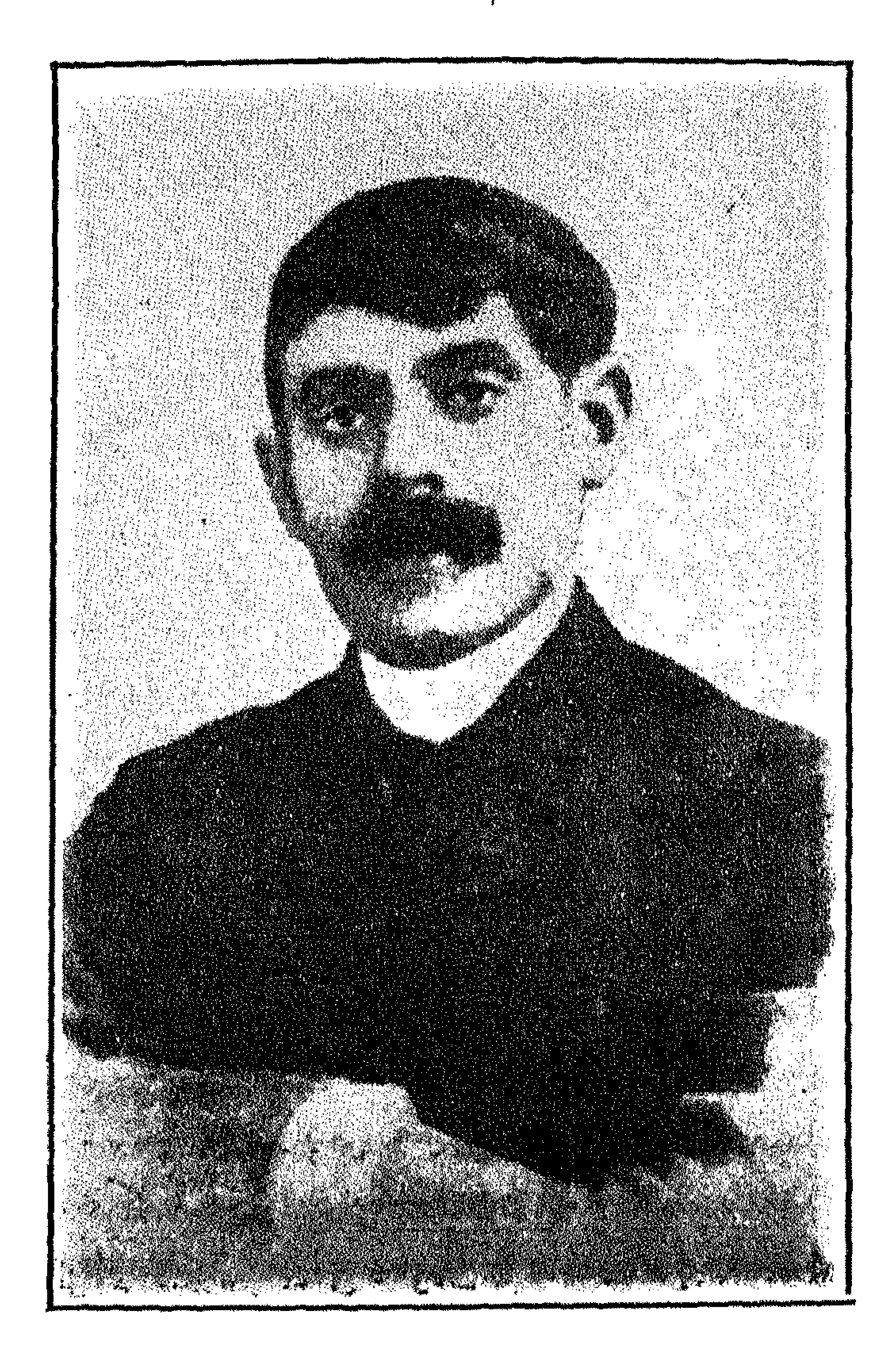
ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الأحزاب المصرية الأخرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الأمر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨

* * *

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والأمة من حوله يخفق قلبها فرقاً على هذا الابن البار الذى أذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها . فلما كان يوم ١٠ فبراير أطبق الموت جفنى الزعيم الشاب وما يزال فى مقتبل عمره ، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التى جاهد فيها مصطفى (من ١٨٩٥ - ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة . لأنها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها ، جليلة بإيمانها وسعيها . وفى عصر ذلك اليوم بينا أنا جالس مع زميل لى من طلبة الحقوق مر بنا من نعى الزعيم لنا . وفى اليوم التالى خفق قلب مصر من أقصاها إلى أقصاها حزناً عليه وجزعاً ألا يخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة إيمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه فى عشر سنوات ما لم يعمله غيره فى عشرات السنين ، بل ما لم تعمله أجيال بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عام . ومن حيث ذكراهم فأولئك لهم الخلد فى ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفوراً .

قاسم بك أمين



كلما ذكر اسم قاسم أمين* ذكر معه تحرير المرأة فى مصر . فأول صيحة ارتفعت لهذا التحرير هى صيحة قاسم فى كتابيه : «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» . وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم فى الموضوع ماتزال حواشيه باقية إلى يومنا هذا . مع ذلك ، ومع أن قاسما لم يمت إلا من عشرين سنة ، فلو أنه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الإجبارى للبنين والبنات ، وهذه النهضة النسوية العظيمة فى مختلف جوانب الحياة ، وهذه الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة ، وهذا الإصلاح فى التشريع للأحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم ، إذن لأخذته الدهشة ، ثم لانقلبت دهشته اغتباطاً أى اغتباط بهذه الآثار ، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر إليه فى كتبه من محافظة ألزمه إياها روح عصره الجامد . ثم لترك

* اقرأ من قاسم أمين أيضاً فى «فى أوقات الفراغ» طبعة ١٩٦٨ ص ٩١ – ١٤٣ .

ميدان المرأة وتحريرها يسير فى طريقه الطبيعى ، ولفكر فى ميدان آخر من ميادين الإصلاح الاجتماعى الخطير الذى تحتاج مصر اليوم إليه أشد الحاجة . ولعل الأدب القومى وخلقه وتوطيده والارتفاع به إلى سماوات الإنتاج الذاتى الخصيب يكون بعض الميادين التى يصرف إليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد واضعى أسس هذا الأدب القومى فى كتبه الثلاثة كل ما يكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد .

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب ، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التى لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الانزواء فى كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياً وإلهاماً أكثر مما تؤدى إليها المباحث الجافة منطقاً وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع . وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقى بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ، كذلك الكاتب الأديب يجد فى وصف ما فى الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعو غيره إليه . وحياة قاسم كانت كلها متجهة إلى هذه الدعوة . وكانت متجهة إليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الإيمان بها إيماناً صادقاً .

ولد قاسم مصرياً يجرى فى عروقه دم كردى ، أورثه إياه جده الأمير الكردى . وولد فى أسرة متوسطة اليسار لم يفسدها ترف الإكثار ولم تجن عليها آثار الحاجة . وتربى منذ نشأته تربية أمثاله ، ثم سافر إلى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد فى سنة

١٨٨٥ . وليس فى ظروف صباه شيء غير عادى إلا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه . وليس فى حياته بعد ذلك شيء من المجازفات التى تجذب لأصحابها أنظار الجماهير ، بل ظل منذ أتم دراسته إلى أن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو فى ريعان قوته قاضياً ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف .
لكنه كان مع حيائه الجم عيوفاً يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته ، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفاً . ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأى . وتلك ظاهرة كثيراً ما تلقاها فى ذوى الحياء . فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريته ومع مبالغتهم فى هذا الاحترام إلى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية إلى حد يضايقهم ، تراهم إذا أراد مريد حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون فى سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة . وذلك سر نجاحهم دائماً . على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأى إلا بعد تمحيصه وتقليبه على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعاً يحل منهم مكان الإيمان ، وهذا ما عبر عنه قاسم فى مقدمة كتابه «تحرير المرأة» حين قال «هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى إلى مزاياها وتنبهنى بالحاجة إليها ، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر» .

وهذا الخلق فيه هو الذى جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا إلى خاتمة حياته قاضياً ممتازاً . فهو لم يقض يوماً لينال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له . ولم يكن من بين القضاة الذين قال عنهم : «أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل .» ولم يتقيد فى قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر

القضاة حجة لا محيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالا للرأفة فى قضائه نافراً أشد النفور من حكم الإعدام . فقد كان يرى : «أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لإصلاح الذنب» وأن : «معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر» وأن : «التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله» وأن : «الخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الإنسان» . فإذا كانت الجماعة لم توفق بعد لإدراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التى وُكِّل إليه تطبيقها كقاض ما تزال تجرى على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشة ، فلا أقل من أن يتحاشى الإعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التى لا سبيل لعلاجها إذا ظهر خطأ القاضى أو ثابت الجماعة إلى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح .

وكذلك كان رأيه فى قضائه المدنى : لم يكن يتقيد بالإجراءات إذا رأى العدالة توشك أن تهدر لأن واحداً من هذه الإجراءات لم يراع المراعاة الواجبة . ثم كان أشد القضاة ميلا لمصالحة المتخاصمين ولإحلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو فى هذا ككثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديداً فى العدالة وفى التشريع والذين خطوا بنصوص القوانين إلى معان تتفق مع الرقى الإنسانى الذى يصبون إليه ويودون لو يتحقق . وأنت إذ تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعانى التى ربما خيل إلى رجال القضاء بالمهنة أنها إلى الأدب والخيال أقرب منها إلى النصوص المقدسة ، والتى كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعى فى سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال .

وهذه الآراء المتقدمة التى اعتنقها قاسم فى نظره إلى الإنسان وفى تحليله نفسيته ،

وهذه الأعصاب الثائرة التى تهتز لكل ما فى الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به ، وتربية قاسم فى وسط فرنسا الحر الذى كان متأثراً بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ ، ذلك كله هو الذى دفعه ليعلن رأيه فى تحرير المرأة مع علمه بما يثيره إعلان هذا الرأى عليه من حملات شعواء . فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذين درسوا فى أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذى كانوا فيه بالوسط الذى عادوا إليه . بل لعل هذه الحال على حد تعبير الأستاذ لطفى السيد : « اعترته على نوع أشد مناسب لمقدار أطماعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسى إلى ملكة ينم عنها سكونه وإطراقه ويفسرها كثير من كلماته إلى حد يجعل المرء يراه متطيراً أكثر منه متفائلا » . وكثيرون ممن تعتريهم هذه الحال يثورون ثم ما يلبثون أن يهدءوا إذ يرون أنفسهم عاجزين عن أن يهزوا الوسط الذى هم فيه أو يبدعوا فيه جديداً . ولعل قاسماً حدثته نفسه غير مرة بالسكوت والاكتفاء بجاهه العريض وبمنصبه العظيم . ولعله كان يصف نفسه أيضاً حين كان يقول عن الشيخ محمد عبده : « كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل فى شىء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى الغد منغمساً فيه أكثر مما كان ، ذلك لأنه ، بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم ، كان عنده أمل لا يزعزعه شىء فى إصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها . لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة فكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده[1] » وكذلك لم يستطع هو أن يسمع لداعى الطمأنينة إلى منصبه وجاهه بعدما

(١) تأبين الشيخ محمد عبده .

رأى أن لا مناص من إبراز دعوته من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر .

وفى ظننا أن الدعوة إلى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعى ، وإنما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها . ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته ، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لإنشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوطيد أركانها إلى أن وافته منيته بعد ما أعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة . وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح ، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقاً يتناول ثورة فى اللغة والأدب كالثورة التى أحدثها كتاباه فى تعليم المرأة وفى رفع الحجاب .

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه فى تحرير المرأة . فقد تناول الكتّاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين سنة . وكل ما يمكن لقارئ كتابيه « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم فى شأن برنامجه ما اضطر إليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التى كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للآراء والعادات المتداولة ، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الأحيان فى تقدمها وسبقها .

ومعنى هذا أن دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وآرائهم . وإذا كان شىء مما دعا إليه كتنظيم تعدد الأزواج وكجعل الطلاق بإذن القاضى ما يزال موضع النظر ، فإن الرجاء منعقد بتمامه عما قريب ، كما أنه لم يبق من يعترضه إلا الجامدون والذين فى قلوبهم مرض . على أن كتابىّ « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة » ليسا مقصورين على الدعوة إلى تعليم المرأة وإزالة الحجاب ، بل فيهما

مذهب جديد فى التفكير والكتابة لم يكن معروفاً من قبل قاسم ولم يسبقه إليه أحد ، فيهما شيء من «الرومانتسم» الغربى ومن تحليل الطبيعة الإنسانية فى أرق عواطفها وأدق وجداناتها . فقد كان قاسم ينظر إلى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وكان يقول : «إن العارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات فى هذه الدنيا . وإذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها»[1] وكان يراه غذاء روحيًّا لا غنى لنفس عنه فى جميع أدوار حياته . وعنده أن : «كل عشق شريف . فإن كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما . وإن كان بين وضيعين أكسبهما شرفاً وقتياً حتى إذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا إلى أصلهما» . ورجل ذلك نظره للحياة أدنى إلى تغليب حكم العاطفة وإلى اعتبارها الهادى والمرشد الأول فى الحياة . وإنك إذ تقرأ فى كتابيه ما كان صادراً عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحوثه الفقهية التى التجأ إليها لتبرير مذهبه بإزاء الشريعة الإسلامية ، إذ ذاك ترى العاطفة الحية الحساسة ، عاطفة المحبة والرحمة والتسامح والسلام هى السائدة فى كل نواحى الكتاب ، وهى مقدمة كل أسبابه ونتائجه . وهل الحياة إلا محبة ورحمة وتسامح وسلام ؟ وهل فى الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؟ وقاسم يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحياة وبالحياة كلها استمتاعاً كاملا . وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل أسمى قد تصل الإنسانية إليه وقد لا تصل ، ولكنه يريده حقيقة تتم . وهو يريده لنفسه بمقدار ما يريده للناس ، وأكثر مما يريده للناس . وأنت ترى هذا فى كلماته التى لم تنشر للناس إلا بعد موته والتى كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه . ترى فى هذه الكلمات مبلغ إيمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل . وترى مبلغ ألمه لعدم تقدير بنى وطنه بدائع الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع . قال : «وصلنا قصر اللوفر

(١) تحرير المرأة .

وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم . فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا ذا منتظركم هنا . وقال الثانى : أتبعكما لأنى أحب المشى وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح : « هذا ألطف ما فى هذه الدار» ، ووصلنا إلى تمثال إلهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع فسألت دليلنا ماذا تساوى هذه الصورة إذا بيعت ؟ فقال إنها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الإنسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمناً لها إذ لا حد لقيمتها » .

* * *

ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة . وإذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظهر من مظاهر الفنون الجميلة محبباً إليه فإن مصدر الوحى الذى تصدر عنه هذه الآثار جميعاً هو المرأة ، هى التى تجعل للطبيعة وما فيها جمالا لأن عيونها تقع عليها ، وهى تلهم الرجل هذا الجمال لأنها تحب الزهر وعطره والنسيم وأرجه والقمرى وشدوه ولأنها تحب كل جميل . وقد لا ترى ذلك واضحاً صريحاً فى كتب قاسم ، ولكنك تراه واضحاً فى عباراته الملتهبة عن العشق والحب . وفيما قدمنا من عباراته فى تحرير المرأة وفى الكلمات ما ينهض دليلا على رأينا . وأكثر منه فى الدلالة قوله : «كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل» وقوله : « الحب إحساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج العليل إلى الشمس والغريق إلى الهواء ، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا . . . نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل أنه ماش فى

طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر فى المرتفعات العالية ، فوق فوق قريب السماء» وهو ، وذلك إيمانه الصحيح ، قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعانى السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب إليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة . لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعاً .

* * *

لكن هذا الوحى والإلهام لا يكون إلا إذا استعد الرجال لتلقيه . وإذا كان لدعوة قاسم أن تنجح فى ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستوارت ميل أو شبيهاتهما من النساء اللواتى أوحين إلى النوابغ ما غير وجه التاريخ ، فلابد من إعداد الرجال لتلقى هذا الإلهام السامى ولإبرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة . وذلك لم يكن ممكناً والتعليم العالى ، كما كان يومئذ ، مقصور على أن يعد موظفين للحكومة وللأعمال الحرة ممن لا يرون العلم إلا وسيلة للكسب «ويعملون على مبدأ – اكسب كثيراً واتعب قليلا – وليس فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل كل قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته» . أمثال هؤلاء لا يوحى إليهم جمال العالم فكرة جديدة ولا يرتجون من الحياة إلا اعتزازاً بمنصب أو بمال طائل يحصلونه . وهؤلاء لا يمكن أن تنهض أمة بهم لترقى إلى سبيل الكمال . فأما الفئة التى : «تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول ، الفئة التى يكون مبدؤها التعلم للتعلم» والتى تحس جمال الحياة فى مختلف مظاهره ، الفئة التى ترى فى المرأة الجميلة المهذبة معواناً على النهوض بالجماعة – هذه الفئة لا تكون إلا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعى . وهذه الفكرة هى الأساس الذى دعا قاسماً للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر

ليؤسسوا الجامعة المصرية التى استظلت لجنتها برياسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار فى الاستئناف وعين وزيراً للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنة إلى أن عاجلته المنية .

وقد ظل قاسم عاملاً مع أصحابه مجداً يستنهض الهمم ويجمع الأموال ويهيئ كل أسباب نجاح الجامعة . وقد بين فكرته عنها فى خطاب القاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فداناً للجامعة قال فيه : « إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقاتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل . .

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر ، كما نرى فى البلاد الأخرى ، عالماً يحيط بكل العلم الإنسانى واختصاصياً أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة ، وكاتباً ذاع صيته فى العالم ، وعالماً يرجع إليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمدبرون لحركة تقدمها . فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون .

« إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى إزالته . وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى

الأشياء التى يجب بطبيعتها أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب .

«إن الارتقاء فى الإنسان تابع على الخصوص لإحساسه ، وإن أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مُصَادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو عالماً حكيما أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً .

«ولى أمل عظيم أن يكون إنشاء الجامعة المصرية سبباً فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال» .

كان أول أمل لقاسم من إنشاء الجامعة إذن هو الأمل العلمى البحت . هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقاً إليها وحرصاً على كشف ما يحيط بهذا العالم من الأسرار . وهذه الحقيقة لا يصل إليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعى لها والدأب فى سبيلها . وإنما تصل إليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالأستاذ اتصال دراسة واتصال بحث . اتصال تعليم واتصال تضامن فى زيادة ثروة الإنسانية العلمية . هذه الثروة النورانية التى تضىء ما حولها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق ، والتى تهدى الإنسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود . ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول إلى تركيز أدب قومى صالح يجدد الأدب العربى الذى كان متداولا إلى عصره . وقد كانت لقاسم فى تجديد اللغة والأدب آراء لا تقل تقدما عن آرائه فى مسألة المرأة وتحريرها . وكان يرى : «أن اللغة العربية مرت عليها القرون

الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام بينا أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة ، وصارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث » . وفى كلماته كثير عما كان يراه من أوجه النقص فى اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية . . لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل . بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الإفرنجية واللغة التركية أيضاً ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال إلخ . بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هى » .

ولم يكن جزعه على الأدب بأقل من نفوره من جمود اللغة . فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على « تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن » . وكم أسف على الفتور العقلى الذى يجعلك : « إذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتدعاً ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه » وكم استهجن الأساليب التى تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا إلى جدة تخرج بالكاتبين من ذلك النوع البالى الذى لا يعرف البحث والتحليل والتسمع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة مكتفياً بالعبارات المحفوظة التى توارثوها عن كتّاب العرب أيام مجدهم . وإنك لتجد فيما خلف قاسم صورة من هذا الأدب الجديد الذى يدعو هو إليه والذى غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هذا

العصر الحاضر . ولئن كنا ما نزال نرجو للأساليب الجديدة ثروة وقوة فإن فضلا كبيراً يرجع لقاسم فى هذه الجدة التى دعا إليها والتى كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التى جاهد فى إنشائها والتى قامت بعد موته قوة تقربها من المثل الأعلى الذى يرجوه .

واختطف الموت فجأة قاسما وما يزال فى ربيع قوته . مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات فى نادى المدارس العليا . مات وهو فى ميدان هذا الجهاد الشاق الذى خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق إليهما كلال . فقد وقف الرأى العام فى وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة . ولم يكن هذا الرأى العام مقصوراً على السواد ولا على الجامدين . بل ساير هؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأى واحترامه والحرية وقداستها ، بل ممن كانوا مقتنعين بصواب رأى قاسم . وبلغ الأمر أن حرم قصر عابدين عليه . ولم يثبطه شىء من هذا ولم يبال بذم الناس « بل وجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطاً لقواه مغرياً إياه بالاستمرار والثبات » . ورد على خصومه بكتاب « المرأة الجديدة » ثم قام بالمجهود العظيم الذى قام به فى إنشاء الجامعة . وكان فى إبان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير محباً للحياة وجمالها غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك يناله فى رفق ما كان بعيداً عن مصر ، فإذا عاد إليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذين كانوا « يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه فى بقائها » .

مات فجأة فى ليل ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته فى نفوس الناس جميعاً ، أصدقائه وخصومه ، رنة حزن وأسى ، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوى الرأى فى مصر . وكانت جنازته مظهراً صامتاً لإجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله . وغادر هذا العالم تاركاً وراءه ذكراً باقياً هو ذكر الصدق والإخلاص لبلاده لم يبتغ عليهما فى حياته أجراً من جاه أو نشب . فكان أجره عليهما الخلود بعد موته فى ضمير الأجيال المتعاقبة . ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل فى أسمى

معانيه ، وبعث إلى الروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الأمم المتحضرة .

وفى يقيننا أن مجهود قاسم من أبقى المجهودات على الحياة ، وأن الصحائف المعدودة التى كتبها ستظل أبداً موضع إجلال العصور واحترامها .

إسماعيل باشا صبرى



لم تمض على وفاة المغفور له إسماعيل صبرى باشا غير سنوات قليلة ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه إلا أنه كان شاعراً مجيداً فأما أنه كان وكيلاً للحقانية فى آخر أيامه ، وأنه درج قبل ذلك فى وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصص ، فهذا ما يسحب النسيان عليه ذيله رويداً رويداً ، وهذا ما يعتبر الجانب القليل الخطر من حياته . ولا عجب فى ذلك . فلقد كان الشعر هو الجانب المنير من روح إسماعيل صبرى والذي يجعله أحد رجال التاريخ الحديث . والناس لا يذكرون من الكبراء إلا مواضع عظمتهم الحقة ، المواضع التى تتصل فيها نفوسهم بنفس الإنسانية كلها اتصالاً تتأثر به النفس الإنسانية تأثراً باقياً على الأجيال فى تعاقبها . فأما هذا العمل اليومى الذى يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحل محله فيه ، فأما هذا الجانب من الحياة الذى يتكرر فيه الفرد من غير أن تظهر له

شخصية خاصة ممتازة ، فأما النيابة والقضاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومى ووكالة الحقانية مما تقلب فيه إسماعيل صبرى ، فتلك المراكز على خطرها وجلالها وما تخلعه على صاحبها فى حياته من جاه ومقام عظيم ، إنما يتصل صاحبها بالجيل الذى يعيش فيه إلا أن يمتاز فى أعمال هذه المناصب امتيازاً يترك أثراً تتناقله الأجيال . ولم يترك إسماعيل صبرى فى هذه الناحية من حياته ذلك الأثر . لذلك كان له من جاهها مدى حياته ما يكون لغيره . فأما ما بقى له فذلك الضياء النفسانى الذى يتجلى فى شعره القليل ، والذى يعتبر على قلته آية فى الجمال تهتز لها نفوس كل الأجيال ، والذى يبقى من أجله اسم إسماعيل صبرى على الزمان ، لأنه — على حد قول الأستاذ على الجارم فى مرثيته إياه :

لم يمت من يزول من عالم الحس وتأبى آثاره أن يزولا

* * *

ولد المرحوم إسماعيل صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتديان التجهيزية فمدرسة الإدارة . وفى سنة ١٨٧٣ التحق بالإرسالية المصرية لفرنسا فنال إجازة الحقوق فى سنة ١٨٧٨ . وهذه الإجازة هى التى فتحت أمامه أبواب السلك القضائى من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلطة إلى وكيل وزارة الحقانية . على أن الجانب النفسى الأقوى منه لم يكن الجانب التشريعى أو الجانب القضائى ، بل كان جانب تجاوب الأوزان والأنغام والشعر . وكثيراً ما رأيت رجالاً يكونون دون غيرهم من أهل حرفهم فى الكفاية والمقدرة ، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ . هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر ويجعله يبدو ضعيفاً . بل كثيراً ما يجنى جانب النبوغ على الجانب العملى للحياة ، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعة إياه من مجهود مستمر وحياة خاصة ، فإذا الجانب العملى يكاد ينسى إلا ما تمليه عليه الملكات الممتازة من قوة واقتدار .

ولم يكن لجانب النبوغ الشعرى فى إسماعيل صبرى تاريخ قديم معروف . وقد عبر شوقى فى رثائه إياه عن ذلك بقوله :

إن فاته نسب الرضى فربما   جريا لغاية سؤدد وطراف
شرف العصاميين صنع نفوسهم   من ذا يقيس بهم بنى الأشراف
قل للمشير إلى أبيه وجده   أعلمت للقمرين من أسلاف

وكثيراً ما كانت المواهب الممتازة لا ترجع إلى تاريخ قديم معروف ، بل كثيراً ما رأيت هذه المواهب الممتازة تتجلى فى أشخاص لا تلمح فى تاريخهم أية مقدمة لها . وهى قد تجلت فى نفس إسماعيل صبرى مذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقبل أن يختط طريقه إلى السلك القضائى . فقد نشرت له مجلة روضة المدارس ومايزال فى هذه السن مقاطيع شعرية تلمح خلالها روح الشاعر ، وإن كانت فى تلك الحين قد كانت متأثرة أشد التأثر بأغراض الشعر فى عصر إسماعيل من مدح الأمراء وذوى السلطان . وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة أدبية تعمل لإحياء اللغة العربية والشعر العربى .

ولما سافر فى الإرسالية وأقام بمدينة اكس أتيح له الإطلاع على الأدب والشعر الفرنسى . ويدل شعره فى السنوات الأخيرة على أنه تأثر بهذا الشعر كثيراً وأنه انطبع منه فى نفسه حظ غير قليل . على أنه لم يستطع فى أول أمره أن ينقل إلى الشعر العربى روحاً غربية مثلما فعل شوقى مثلاً . فأنت ترى فى شعر صبا شوقى الشىء الكثير المتأثر تأثراً بادياً بحياة شوقى فى أوربا . أما إسماعيل فكان منذ أول حياته شاعراً مقلاً . وكان ، على ما يظهر من شعره ، لا يتأثر سريعاً ، ولكن ما يؤثر فيه يبقى عالقاً بنفسه حتى يكون له مظهره ولو بعد حين .

والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقية والغربية والشعرين الشرقى والغربى فى نفس إسماعيل صبرى ، أحدث أثراً عميقاً امتزج مع غريزة حياته . فقد كان رجلاً رقيقاً

كل الرقة دمث الأخلاق حاضر البديهة ، اجتمع له كل ما يعرف من صفات « ابن البلد » وظرفه . وإنك لتسمع ما يرويه عنه أصحابه من ذلك الشيء الكثير : فكان إذا سئم إنساناً من الناس ولم تطاوعه نفسه الرقيقة على الإغلاظ له فى القول ، طلب إلى صديقه حافظ إبراهيم أن يوقع بينه وبين هذا الثقيل حتى لا يضطر لمقابلته أو التحدث إليه . وكان كثير التندر ، حتى لقد تحكم عليه النكتة فلا يرى بأساً من أن يقول : إنه لو نزل كتاب مقدس فى القطب الشمالى لوعد الله عباده النار أعدها للمتقين . وكان ظرفه وخفة روحه وسرعة بديهته يلهمانه فى كثير من المواقف ما لا يلهم المنطق . اعترف أمامه متهم بجريمة القتل فلما خلا مع زملائه للمداولة ورأى أن العقوبة هى الإعدام ، ذكر لهم أنه يشك فى اعتراف هذا الرجل لأنه لا يرى فى سيماه معنى شجاعة يمتاز به على سواه من أمثاله . وجيء بالرجل إلى غرفة المداولة وقال هو له : أتدرى أن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالإعدام فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم يقل هذا ، بل قال لى حين دفع لى الجنيهين إنى سيعفى عنى لأنى كنت فى السجن حين ارتكاب الحادثة . وتبين فعلاً أن الرجل كان فى السجن فلم يكن له فى الحادثة يد . وقضى ببراءته .

إلى جانب هذه الصفات التى يمتاز بها « ابن البلد » المصرى مما تأثرت به نفس إسماعيل صبرى الشاعرة بمخالطتها الوسط المصرى ، كان رجل اجتماع بالمعنى الإفرنجى الصرف ، أى رجل دنيا إذا أردت ترجمة العبارة الفرنسية homme du monde ترجمة حرفية . وكان له أصدقاء كثيرون جداً من الجاليات الأوربية المقيمة بالقاهرة . وكان يغشى اجتماعات من يختارهم من أهل هذه الجاليات بمقدار ما يغشى اجتماعات الظرفاء وأولاد البلد .

على أنه مع كل هذه الوداعة والظرف ومع ما كان يسيل به خلقه من رقة ، كان أبيًّا لا يقيم على ضيم . ذكر لى أصدقاؤه الذين عرفوه طوال حياته أنه برغم ما تقلب

فيه من كبرى مناصب الحكومة كان المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كرومر ولم يدخل الوكالة البريطانية فى مصر ، وأنه حدث بينه وبين رياض باشا ، وكان رئيس النظار ، جفاء لحكم أصدره ماساً ببعض المحسوبين على رياض باشا . فلما جاء فى أحد المواسم إلى عابدين ومثل بين يدى الخديو توفيق ثم خرج من لدنه إلى رياض باشا مهنئاً إياه كرئيس حكومة أوقفه رياض باشا ولم يأذن له بالجلوس . وكان ابن رياض باشا واقفاً عند باب الحجرة التى يجلس فيها أبوه ، فقال إسماعيل صبرى مخاطباً الابن بمسمع من الأب : قل لأبيك يحترم الناس كى يحترموه . وروى عثمان باشا مرتضى فى حفلة تأبين إسماعيل صبرى أن أحد قناصل الدول الأجنبية طلب إليه ، وكان محافظاً للإسكندرية ، أن يشيع جنازة غنى من أهل جاليته ترك ثروة طائلة كسبها فى مصر وأوصى بها كلها لبلاده . فكان جواب المحافظ أن اعتذر ، لأن المحتفل بجنازته لم يفكر فى مصر التى أثرى فيها ، فليس يطلب من مصرى أن يفكر فى مجاملته حياً أو ميتاً .

دعة وظرف ورقة وحسن معاشرة وإباء ، اجتمعت كلها فى نفس شاعر التقت فيه الحياتان الشرقية والغربية وألهمتها الطبيعة ذوق الجمال ، وبخاصة ما كان منه متعلقاً بالنغم الشعرى– فماذا ترى يكون أثر ذلك كله فى شعره ؟ فأما الرقة فقد تنفست فى شعر صبرى غزلاً بالمرأة وهياماً بجمالها أياً كانت هذا المرأة . وأنت ترى من ذلك شيئاً غير قليل حين تذهب إلى مراجعة شعر صبرى الغنائى . لكنك تراه ماثلاً بصورة حلوة جميلة آخذة باللب فى قصيدته البديعة (تمثال جمال) وبخاصة فى هذه الأبيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها «لواء الحسن» :

إن هذا الحسن كالماء الذى ... فيه للأنفس رى وشفاء
لاتردّى بعضنا عن وِرْده ... دون بعض ، واعدلى بين الظماء
ساعفى آمال أنضاء الهوى ... بقبول من سجاياك رخاء

وتجلى واجعلى قوم الهوى ... تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ... ضمنته من معدات الهناء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت ... لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا ... أن روضاً راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر إذا حدثتنا ... ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى ، روحانية لا تدعى ... أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن ... للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحىّ مَلكٍ ... خلف تمثال مصوغ من سناء

وتراه كذلك فى هذه الأبيات يخاطب بها امرأة لا ندرى أية واحدة هى من ألْوِيةٍ الحسن التى تزدحم عادة فى نفس ذوى الظرف والرقة ممن لا تحتمل نفوسهم طغيان الحب المستبد يذعن له الفؤاد والقلب والنفس والجوارح جميعاً إذعان خضوع وإيمان واستسلام ، وهو مع ذلك بإذعانه راض وبذله سعيد :

زيّنى الندى وسيلى فى جوانبه ... لطفاً يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة ... من الرياحين حبانا بها الله
إن غاب ساقى الطلا أو صد لا حرج ... هذا جمالك يغنينا محياه

لعلك تلمح فيما نقلنا من هاتين القصيدتين — أو المقطوعتين إن شئت — شيئاً غير الغزل بجمال المرأة من غير تقيد بامرأة معينة . ولعلك تلمح فيها من الموسيقى أكثر مما اعتدت أن تلمح فيما تستمع إليه من شعر غير إسماعيل صبرى . وإنك لواجد هذه النغمة الموسيقية الحلوة الرقيقة فى أكثر شعره وإن لم يكن فى شعره جميعاً . بل إنك لواجدها حتى فى القصائد التى يكلف الشاعر نفسه أن يكون حماسياً فيها كقصيدة فرعون وقومه . بل إنك لواجدها حتى فيما يتكلف فيه الحكمة كقصيدة الساعة وما نظمه عن نجم هالى . وذلك طبيعى وقد كان إسماعيل صبرى مشغوفاً بالغناء

طول حياته إلى غير حد حتى كانت الحياة عنده قطعة من الموسيقى ، أو قل كان خير ما فى الحياة عنده قطعة من الموسيقى . وكان سمعه أكرم حواسه عليه . أليس فى رثائه يقول حافظ إبراهيم :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زها وازدهر
واعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

والحق أن إسماعيل صبرى لم يولع فى حياته بشىء ولعه بالغناء ، ولم يجاهد وهو فى مناصب القضاء لترقية شىء فى مصر أكثر من جهاده لترقية الغناء . كان ذلك شأنه منذ عهد الخديو إسماعيل باشا ، أى منذ أن نشأ يقول الشعر إلى أن مات . وكان لا يقف من شعره الغنائى عند الشعر العربى بل كان يختلط بالمغنين ورجال الموسيقى وكان يضع لهم أدواراً باللغة المصرية . وكان لذلك موضع محبة رجال الفن الموسيقيين والمغنين واحترامهم .

ولقد كان له فى هذا الباب فضل كبير : رفع الأدوار الغنائية من درك كانت فيه ، فجعلها ذات معان رقيقة تمثل عواطف طاهرة وميولاً سامية . وأدواره (قدك أمير الأغصان) و (الفجر لاح قوموا ياتجار النوم) وغيرهما لا تزال من أفضل الأدوار المصرية التى تغنى إلى وقتنا الحاضر . وقد عرفه الناس جميعاً بذلك حتى كان حجة يرجع إليه . روى لى أحمد شوقى بك حادثة غاية فى اللطف . تلك أنه كان عنده وهو يشغل منصب النائب العمومى يوماً وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها . وفيما هما جالسان يتحدثان دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى الحادث السياسى وما يجب اتخاذه من الإجراءات بإزائه . فلما فض إسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسماً . ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث فى

هذا المظروف بدور غنائى وهو يطلب إلى النائب العمومى إصلاحه . ولهذه المناسبة قص إسماعيل باشا صبرى حادثاً وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دماً لاقتتال الناس فيها . ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة تطلب إليها وتراً تصلح به عودها . وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام أن يصلح له دوراً غنائياً بينما تموج البلاد بحادث سياسى لا تعرف نتائجه .

ولهذا الولع بالنغمة وبالغناء ترى الكثير من شعر إسماعيل صبرى صالحاً لأن يكون صوتاً يغنى فيه . اسمع إلى قوله يخاطب سيدة تدعى ألكسندرا :

انثرى الدر يا سمية أسكنـ ـدر لأفض عقدة من فيك
وأميطى عن الحقيقة ما يحـ ـجب عنا جمالها من شكوك

وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحماً فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر إسماعيل صبرى كثير .

أنت لا تستطيع أن تطلب إلى شاعر بلغ من الرقة ما بلغ إسماعيل صبرى وشغف بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة ويحاولون إخضاعها لرأيهم أوأن يكون قوى الإيمان مما فى الحياة بشىء . فالمرأة وجمالها والغناء وألحانه والموسيقى وأنغامها صور يطرب لها الحس وينطبع طربه فى النفس فيدعوها إلى الطمأنينة للحياة والاستهتار بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شئون ، والتوافر على المتاع بهذا الطرب والحرص على استدامته والفزع لذلك من الموت . ويذكر الذين عرفوا إسماعيل

صبرى معرفة صحيحة أنه كان كذلك . لكنك مع ذلك ترى فى شعره نزعات تكاد تكون صوفية . وترى إلى جانب ذلك شيئاً من التبرم بالحياة ومن إيثار الموت واستعجاله . أليس يُذكِّر بتغزل عمر بن الفارض شيخ الصوفية فى الذات الإلهية قول إسماعيل صبرى :

يارب أهلنى بفضلك واكفنى ... شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى ... غضب اللطيف ورحمة الجبار
ياعالم الأسرار حسبى محنة ... علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ... ألا تضيق بأعظم الأوزار

أوليست الحكمة كل الحكمة فى قوله :

أواه لو عقل الشباب ... وآه لو قدر المشيب

أو لم يقل الفلكيون أن نجم هالى المذنب الذى مر بالأرض فى سنة ١٩١٠ كان سيحرق الأرض ويقيم القيامة فابتهج إسماعيل لذلك وقال :

أنت نعم النذير يانجم هالى ... زلزل السهل والرواسى ذعرا
إن يكن فى يمينك الموت فاقذفـ ... ـه شواظاً على الخلائق طرا
أغداً تستوى الأنوف فلا ينظر ... قوم قوماً على الأرض شزراً
أغداً يصبح الصراع عناقاً ... فى الهيولى ويصبح العبد حرا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع ... بالذى قد أمرت حييت عشرا

بل ألم يدعُ صبرى الموت كما دعاه فوست مستعجلاً إياه كى ينقذه من عذاب الدنيا حين قال :

يا موت خذ ما أبقت الأ ... يام والساعات منى
بينى وبينك خطوة ... إن تخطها فرجت عنى

فكيف مع هذا كله يكون بشًّا للحياة طروباً بما فيها فزعاً من الموت ومن

العدم ، وكيف مع هذه الحكم التي نراها فى شعره يكون كل شغله بجمال المحسوسات من منظور ومسموع ؟ هذا اعتراض يرد للذهن لأول وهلة . لكن الشاعر لا يكون شاعر حكمة ولا شاعراً نفسانياً لمجرد ذكره خواطر فلسفية وعتها ذاكرته أكثر مما اهتزت لها نفسه . ثم هو لا يكون برماً بالحياة مؤثراً الموت لبعض أبيات قد تدفعه إلى قولها شئون خاصة . فالبيتان الأخيران اللذان رويناهما لإسماعيل صبرى — فى رواية بعض من عرفوه — لما كان يلقى فى حياته العائلية من أسباب الشكوى . وأما ذلك التصوف الذى نراه فى الأبيات الأولى فليس إلا مظهراً لما وعت الذاكرة راجع نفس الشاعر فى ساعات تغص فيهما النفس بنعيم الحياة حين يفيض عنها فيضاً يجعلها تستغفر وتتوب برهة لتعود إلى نعيم الحياة وفيضه بعد ذلك مباشرة . فأما الشاعر النفسانى فهو الذى يحس فى أعماق نفسه بمعان قوية تظهر فى شعره ولو تحدث عن ظواهر تعدها أنت وأعدها أنا تافهة فى الحياة . من ذلك كثير من شعر أبى العلاء المعرى . ومنه كثير من شعر الإفرنج . كنت أعيد منذ بضعة أيام قراءة قصيدة (موت الذئب) لألفرد دفينى وأستعيد منها المعانى القوية التى تجيش فى نفس الشاعر الفرنسى وتتجلى فى كل قصائده . مثل هذا الشاعر النفسانى إن كان دينياً يرى فى جمال المرأة وفى تجاوب الموسيقى وفى ألحان الغناء معان دينية . وهو يرى هذه المعانى الدينية فى موت طفل وفى موت ذئب كما يراه فى الحب وفى كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها . وإن كان شاعر عاطفة أو شاعر فلسفة تجلت العاطفة والفلسفة فى شعره كله . فإذا رأيت له شعراً لا يعمره الجانب النفسى القوى من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره كان لك أن تحكم بأن ما اختزنته الذاكرة مما لم يؤثر فى النفس أثراً عميقاً هو مبعث هذا الشعر . وما تختزنه الذاكرة مما ينظمه الشاعر ليس هو المعبر عن نظرته للحياة وتقديره لما فيها .

كان إسماعيل صبرى إذن متأثراً بما تتأثر به العين والأذن من صور الحياة

وألوانها . وكان هذا هو الذى يوقع على وتر عاطفته أنغام شعره . وكان شعره لذلك جميل اللفظ غاية الجمال . وكان تأثره هذا يجعله معنيًّا بالجمال اللفظى أكثر من كل شاعر سواه . وإنك لتجد أمامك فيما نقلنا لك هنا من شعره مظهر ذلك واضحاً جليًّا . فرب فكرة عادية أو صورة تمر أمامك كل يوم تجدها فى هذا الشعر فإذا بها قد اكتست رونقاً وبهاء ماكان لها أن تكتسيهما لو أن شاعراً آخر هو الذى صاغها . والظاهر أن هذه النزعة القوية عند إسماعيل صبرى كانت ذات أثر كبير فى الشعر العربى فى هذا العصر. فحافظ إبراهيم لا يأبى أن يدعو إسماعيل صبرى أستاذه وأستاذ شوقى . وشوقى لا يأبى أن يعترف بأن هذه النظرة التى كان ينظر بها إسماعيل إلى الشعر أثرت فيه هو تأثيراً غير قليل . ولم ينشأ من الشعراء فى العهد الأخير من كانت له فى الشعر نفسية خاصة تخالف نفسية إسماعيل صبرى لتطبع الجيل الجديد كما طبع هو جيله بطابعه .

ولا أستطيع أن أختم هذا البحث العجل عن إسماعيل صبرى من غير أن أضع أمام القارئ أبياتاً أرتجلها تسيل رقة وتعبر أرق تعبير عن هذه النفسية التى كانت ترى العاطفة كما كانت ترى كل ما فى الحياة حساً منظوراً أو مسموعاً . ارتجلها يوم دفن ابن صغير للمرحوم الشيخ على يوسف فقال :

يامالئ العين نوراً والفؤاد هوى ... والبيت أنساً تمهل أيها القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به ... والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يانعيمهما ... وفيهما إذ قضيت النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى ... ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة ... يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ماكان عيشك فى الأحياء مختصراً ... إلا كما عاش فى أكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة ... فى ذمة الله بعد القبر يا عمر

لعلك وقد رأيت من إسماعيل صبرى وشعره هذه النفسية المشغوفة بالألوان تشعر إلى جانب هذا بما يشعر به كل من يقرأ شعر إسماعيل صبرى من أنه كان شاعراً مصرياً حقاً ، ومن أن النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلاً إلى نفسه ، وإن الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة النضرة التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس فى نفس إسماعيل صبرى بقوة لا تراها فى كثيرين غيره من الشعراء . ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه به معاصروه : لقب شيخ الشعراء .

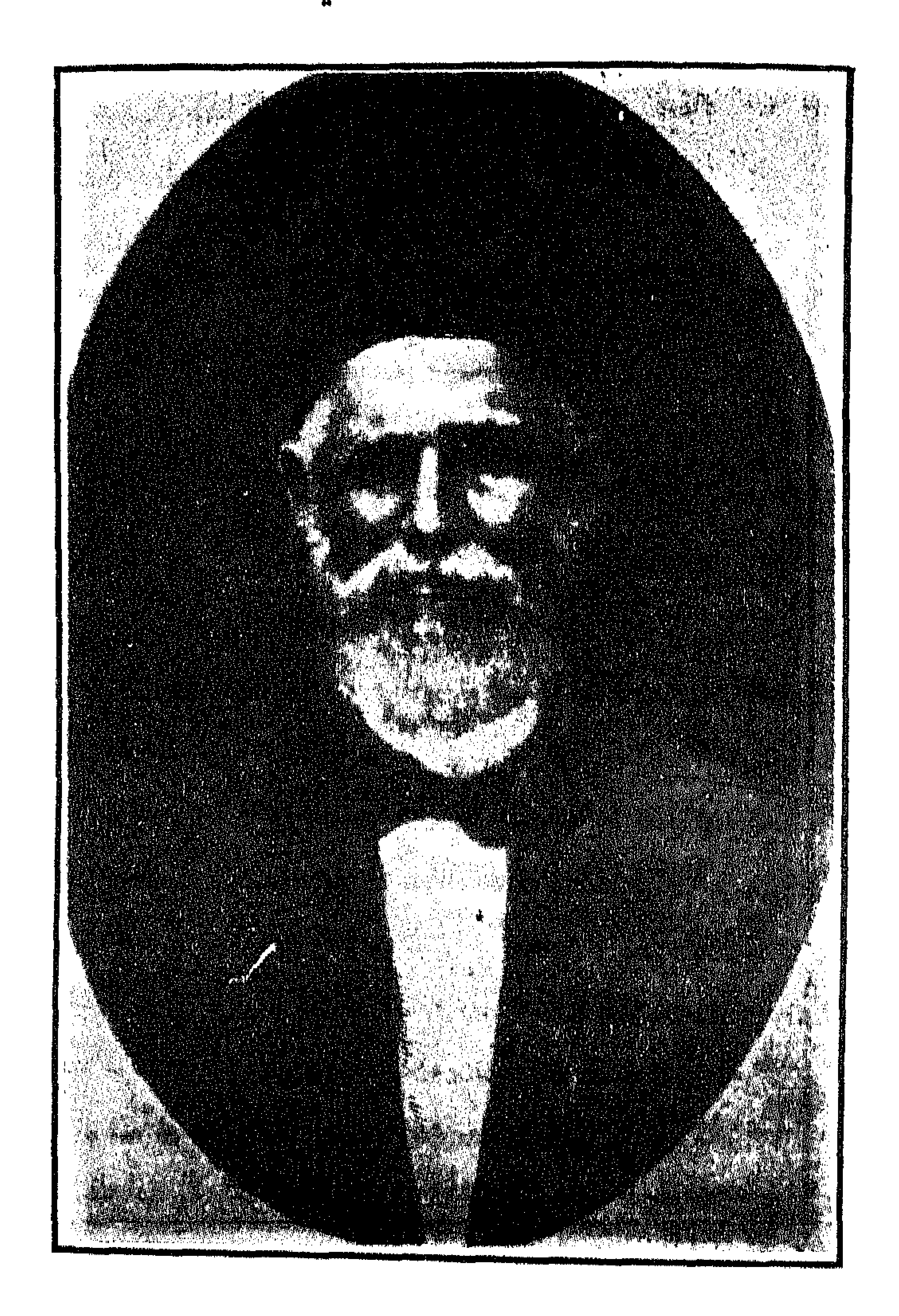
وقضى حياته مغتبطاً بالحياة ، حتى إذا كان فى أخريات أيامه أصابته ذبحة صدرية قعدت به عن أن ينعم بشىء من الحياة خمس سنوات تباعاً ، ولعل بيته يخاطب الموت :

بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

كان يصدق عليه خلال هذه السنوات الخمس الصدق كله .

وقد خطى إليه الموت هذه الخطوة فى منتصف ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ . وقضى يومئذ متحملاً معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهباً جليلاً من مذاهب تقدير الجمال . قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لأنه كان يقول إنه وهب شعره للنسيان . وتلك هبة لن تتم . فالنسيان لا يتطرق إلى الكمال ولا يعدو على الجمال . لذلك نشر من شعره الشىء الكثير وحفظ أصحابه ما لم ينشر . ولعلنا نسعد برؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب .

محمود باشا سليمان



. . . وهذا أيضاً محمود سليمان باشا قد مات ، فأضاف حلقة إلى سلسلة عظماء مصر الذين ودعوا عالمنا فى السنتين الماضيتين[1] . لكنه ودعه على صورة غير تلك التى ودعوه عليها . هم كانوا بين مجاهد تحفزه قوى الشباب للجهاد ، وآخر بعض طبعه الكفاح ، وثالث اضطر لاعتزال الناس اضطراراً . أما هو فجاهد لخير وطنه فى شبابه ، ثم جاهد له فى كهولته ، ثم جاهد له وقد نيف على التسعين ، وبعد اعتزامه الانقطاع إلى الله وعبادته . فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة فى البلاد نأى عن الفتنة مختاراً وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى ، وظل فى تقواه وفى عبادته ينتظر بقلب مطمئن ونفس هادئة اليوم الذى يختاره الله فيه إلى جواره . فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضى أغمض عينه عن عالمنا هذا ليفتحها هناك

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته فى ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ .

فى العالم الذى قضى سنيه الطويلة يرجوه ، عالم أجر وسعادة لا يعرفان الزمان ولا المكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان .

وليس كثيرون من أبناء هذا الجيل من يذكرون شخص محمود باشا سليمان ، وإن كانت أجيال مصر المتعاقبة ، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر . وليس كثيرون من يذكرون هذا الرجل المهيب فى وقاره النحيف فى جسمه الطويل القامة فى اعتدال ، الحاد النظرات الأسمر اللون الجليل المشيب . ولئن كانت قد مضت سنوات لم أره فيها ، فإنى ما أزال أذكر أول مرة رأيته ، وكنت ما أزال طالباً بالحقوق ، وكنت أتردد على دار «الجريدة» عند أستاذنا لطفى بك السيد . فبينا أنا هناك فى أحد أيام ربيع سنة ١٩٠٨ دخل محمود باشا سليمان فحياه الحاضرون فى إجلال واحترام وقدمنى له لطفى بك . وأشهد لقد جلست وفى نفسى شىء من الرهبة أمام هذا الشيخ الذى يحمل طى تجاعيد وجهه صحفاً مجيدة من تاريخ مصر . جلست وجعلت أحاول أن أختلس ، فى نظرات يداخلها الحياء والخوف ، صورة رئيس حزب الأمة آتياً يتحدث إلى كاتب حزب الأمة . وانتظرت أن يتكلم ، فمضت لحظات خلتها طويلة طويلة وخلت معها أن وجودى قد يحول دون الشيخ والكلام ، فاستأذنت وانصرفت . ولم أره بعد ذلك غير مرات قليلة كانت الأخيرة منها حين كان رئيساً للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق باسمه آمال الوفد المصرى فى أوربا ، وآمال المصريين فى مصر .

هذا الرجل قد غادرنا بعد أن طوى رحلة الحياة فى أناة وتؤدة ووقار ، وانتقل منها فى مثل هذه التؤدة والأناة والوقار إلى جوار ربه وما يرجو من حسن ثوابه . غادرنا بعد إذ خلف وراءه تاريخاً حافلاً جليلاً وذكراً لا تشوب سواطع نوره شارة من ظلام . فلقد وهب هذا الرجل حياته كلها لله ولوطنه ولأبنائه . كان فى عهد إسماعيل باشا الخديو رجلاً كاملاً مسموع الرأى نافذ الكلمة ، ترك عمدية بلده

ساحل سليم ونظارة القسم التى تتبعه إلى وظائف وكيل مديرية فى جرجا وفى أسيوط . فلما صدر القانون النظامى بعقد مجلس النواب فى عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الأمة وانتخب عضواً بمجلس النواب وألقى عليه أن يلقى خطاب العرش ، وكان له فى هذا المجلس مواقف يذكرها له التاريخ . فلما شبت نار الثورة العرابية كان من بعيدى النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائها ، فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك فى النظام الذى أعقبها . فمع هذه المكانة الكبيرة التى كانت له ، ومع ما أظهر من مقدرة فى مجلس النواب الذى سبق الثورة ، ومع أنه لم يكن من أنصار الثورة وأعوانها ، فإنه لم يربعد فشل الثورة واحتلال الإنجليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذى سنه الإنجليز لمصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بل تنحى عن العمل العام وترك القاهرة إلى الصعيد ، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء . وظل كذلك من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٥ حين أخرجه ظرف محلى خاص من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى ، وما لبث أن عاد إلى القاهرة وإلى العمل العام حتى انتخب وكيلاً للمجلس وحتى كانت له فيه مواقف مشهودة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى مطالبة الإنجليز بأن يخلوا بين مصر ووضع نظام الحكم فيها ، فلقد كان المغفور له محمود باشا فى مقدمة هؤلاء . كان فى مقدمتهم منذ كان عضواً فى مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الأمة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى الأحزاب المنظمة ، فإن محمود سليمان باشا هو أول من ترأس حزباً ذا برنامج ونظام فى مصر . فلقد كانت الأحزاب المصرية إلى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل واحد معين . فالحزب الوطنى أيام عرابى باشا كانت مطالبه محصورة فى الدستور وفى التسوية بين المصريين والأتراك من رجال الجيش . والأحزاب والهيئات التى جاءت

بعد ذلك كانت تطلب مطلباً واحداً كجلاء إنجلترا عن مصر أو ما هو من ذلك بسبيل . أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التى وضعت لها برنامجاً مفصلاً يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعاً . وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك .

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة فى أخريات سنة ١٩٠٧ وسبقته الجريدة ، التى كانت بعد ذلك لسان حاله بشهور . وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان . فلما حدثت بعد ذلك بسنوات أسباب للخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها إن عقد الأخيرون مؤتمر أسيوط يتهمون فيه حكومات ذلك العصر بأنها تنئى الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها ، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج ، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليها ولإعادة الألفة بين العنصرين . ولذلك تألف المؤتمر المصرى بهليوبوليس واختار رياض باشا رئيساً له ومحمود سليمان باشا وكيلاً له ، وفند مزاعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير ، ودعاهم إلى أن يكونوا فى وحدة الأمة صفاً .

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز الثمانين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه لله فى انتظار لقائه إياه . والحق أن صفحات الجهاد التى كانت له فى ماضيه وما قام به كأب من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافياً وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحيفة مجد باقية . وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع لله حتى لقد خرج من ماله لأبنائه فى سنة ١٩١٦ واعتزم عيش الزهادة والنسك وتمام الانقطاع لله . وما أجمل هذه الشيخوخة الطاهرة المنزهة عن شوائب الهوى والتى قامت فيما سبق لها من سنى الحياة بما يطلب إلى الرجل من جد وبر وتقوى ، تقضى فى حساب النفس والقربى إلى الله ورجاء

مغفرته وثوابه . ما أجمل الشيخ يصل إلى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهوائها ومطامعها ومالها ومجدها فتدعوه الحكمة إلى أن ينظر إلى الأهواء والمطامع والشهوات جميعاً نظرة إصغار أن كانت لا بقاء لها ولا متاع للنفس بها ، وإنما المتاع بإمعان النظر فى الكون واستكناه مافيه من خير وحق وجمال .

على أن الأقدار كانت قد احتفظت لمصر بصفحة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشا . ليكن لشيخوخته عليه حق ، ولتكن خير خاتمة المرء أياماً تقضى فى العبادة والتقوى ، وليكن محمود سليمان قد خرج من دنياه تاركاً إياها إلى أولاده وانقطع لنفسه ولربه — ليكن ذلك كله فإن للوطن مع ذلك عليه حقًّا ، وهو لم ينس يوماً حق الوطن عليه ، لذلك ما كادت الحرب العامة تضع أوزارها ، ثم ما كادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ ، حتى إذا هذا الشيخ خرج مرة أخرى من عزلته وجاء ينضم إلى صفوف المجاهدين لإعلاء شأن الوطن ورفع مناره وتقديس كلمته . ولئن كان قد نيف على الثمانين فلن تزيده سنة ولن يزيده مجده ومقامه وعظمته إلا حرصاً على الوقوف فى الصف الأول من صفوف المجاهدين ، وأن يكون فى مقدمة من يتعرض لما يصاب به من يتعرض للدفاع عن عظمة هذا الوطن واستقلاله . وكان منظراً يبهر النفس ما فيه من مهابة وإجلال . فقد جلس محمود باشا فى رياسة لجنة الوفد المركزية يوم كانت البلاد تضطرب أحشاؤها من أقصاها إلى أقصاها ويوم كانت الأحكام العرفية بالغة قسوتها أعظم مبلغ ، جلس فى رئاسة لجنة الوفد المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح إلا أن تزحزحه القوة . وأرادت القوة يوماً أن تبتلى ثباته وعزمه فأصدرت له الأمر أن يبرح القاهرة ، فإذا به لا يبرحها حتى ذهبوا إلى ذهبيته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسى على كره منه . ولقد كان فى ذلك ، كما كان فى غيره سباقا إلى مثل التضحية والمكانة العلية . وكان فى هذا مثلا عاليا من النزاهة والتضحية لخير الوطن .

ولما آن للبلاد أن ينقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها الفتنة ، اعتزل الميدان نهائياً وإن لم ينس قديم صلاته بأصدقائه سواء منهم من كان فى فريقه السياسى أو من كان فى فريق مخاصم له . وعلى اشتداد الخصومة فى وقت من الأوقات بين الأحرار الدستوريين وسعد زغلول باشا فإن محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل إلى سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق يهنئه بسلامة مقدمه . وكذلك كان فى هذه كما كان فى غيرها عظيماً سامياً فوق شهوات الساعة ، كبيراً عن أن يتأثر بالأهواء الطارئة .

ومن يوم اختلفت الأحزاب فى مصر عكف هو على ما كان قد اعتزم منذ سنوات من الانقطاع لله ولعبادته . وظل كذلك حتى ارتضاه الله إلى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ . ارتضاه إلى جواره فخلف هذه الدنيا فى أناة وتؤدة وحكمة كما عاش فيها فى أناة وتؤدة وحكمة .

عبد الخالق ثروت باشا



ما أحسب فجيعة من الفجائع التى منيت بها الأمم كانت أشد وقعاً على النفوس من فجيعة مصر فى المغفور له عبد الخالق ثروت باشا . وما أحسب رجلاً وجل خصومه كما وجل أصدقاؤه لفقده ، كما اشترك أصدقاء هذا الفقيد العظيم وخصومه فى وجلهم لرحلته رحلة الأبد . ثم ما أحسب العقل والعاطفة والحواس جميعاً اهتزت بالحسرة وبالأسى اهتزازها لهذا الحادث الذى رج نفوس الناس رجاً بل دكها دكاً ، ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الأسيفة التى عرفت فيها الخبر إثر الوفاة بسويعات حين دخلت إلى صالون السيدة المحترمة هدى هانم شعراوى بباريس فألفيتها وألفيت الأستاذ الكبير هلباوى بك وألفيت زائريها وكلهم باكو العين والفؤاد وكلهم فى شبه ذهول لما أصاب مصر فى مصرع هذا الرجل الذى كانت تعتبره مصر كلها ملاذها إذا حزب الخطب وضلت بساسة مصر وساسة إنجلترا

السبل . ثم لن أنسى ما حييت إسراع المصريين وأصدقاء مصر الأجانب إلى سكنه فى باريس بشارع أناتل دلافرج Anatole de la Forge وليس منهم من يقف فزعه لوفاة رجل كان له بعد فى الحياة سغة ، بل كلهم أشد فزعاً لمصر وما أصابها بفقد هذا الربان الذى اختاره القدر ليسير بدفة سفينتها حين الزعازع الهوجاء فينقذها من أدق المواقف . لن أنسى هذا ، ولن أنسى صاحب الدولة عدلى باشا يكن فى منزل الفقيد وفى مشهد جنازته بباريس وهو يتساءل عن الوفاة وكيف كانت فى جزع دونه جزع الأخ لفقد أعز أخ له عليه ، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين شهدوا صندوق جثمان الفقيد ينقل من عربة الجنازة إلى عربة السكة الحديدية . وكيف ينسى إنسان هذا وما أحاط بالفاجعة ولكل إنسان من هذه الفاجعة الأليمة نصيب لأنها فاجعة مصر وفاجعة السلام ؟

ويأبى القدر إلا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدها هولاً ، إذ يختطف الرجل فى بلاد نائية عن وطنه ويختطفه على عجل ، كأن للقدر عند مصر ثأراً لا تهدأ ثائرته إلا إذا أشعرها ألماً موجعاً ينقض الضلوع بعضها على بعض . فلقد كان ثروت فى صحته حين جاء إلى باريس من سان مورتز يوم الإثنين السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ – أى قبل وفاته بخمسة أيام . فلما كان يوم الجمعة الحادى والعشرين من سبتمبر خرج فى الصباح كعادته وعاد بعد الظهر بقليل يشكو ألماً فى الكتف وفى الظهر . واستدعى طبيب الحى ففحص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول فى زمن قصير . لكن الآلام تزايدت فى أثناء الليل . فلما جاء محمد على دلاور بك فى الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة استدعاء أستاذ أخصائى أجابهم أنه سيكون هناك فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، لأنه لا يستطيع ترك المستشفى الذى يعمل فيه قبل هذا الموعد . وحضر الأستاذ الطبيب فى الموعد ، فلما فحص المريض فى سريره وخرج إلى قاعة الاستقبال خرج دلاور بك فى أثره يسأله

رأيه . وكان رأياً مروعاً . فالباشا اعترته ذبحة صدرية إن استطاع احتمالها ساعتين كان فى نجاة حياته شىء من الأمل : لكن الطبيب فى شك من استطاعة احتماله إياها وهو ماكاد يغادر غرفة الاستقبال إلى سلم الدار حتى إذا ثروت باشا قد شعر بالتنفس يضيق ثم يضيق ، فيؤلمه ذلك ويوجعه . ولكى تخفف من هذا الألم رفعت السيدة المحترمة زوجته إياه إلى صدرها . ثم لم تك إلا لحظة حتى شعر الباشا بشىء أنطقه فى دهشة وعجب بلفظ «الله» وكانت هى آخر كلمة قالها . فإن شرياناً متصلاً بالقلب انفجر فى هذه اللحظة أشعره الخطر حين لم يك إلى دفع الخطر سبيل ولا إلى اتقاء الكارثة التى تفجر لها فؤاد مصر وسيلة . ونودى بالطبيب فعاد فإذا به أمام جلال الموت وكان من برهة أمام رجل ألبسته الحياة وألبسها كل حلل الجلال .

وكأنما أراد القدر إذ كتب لوح أجل ثروت فى باريس بعيداً عن بلاده وكتب على زوجه أن تكون فى هذه الساعة العصيبة إلى جانبه ، أن يحيط الفجيعة المفزعة بما يخفف من هول وقعها ، فجمع بباريس فى هذه الفترة جماعة من أخصاء ثروت وأصدقائه ومحبيه وعارفى فضله فى خدمة بلاده . جمعهم ليكونوا إلى جانب جثمانه وليحاولوا عزاء زوجته وولده مصطفى المقيمين معه . وقام المصريون المقيمون فى باريس وطائفة كبيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين فى اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة وتشييع الرفات فى سفرها لتستقر فى ثرى الوطن بكل ما يجب لثروت من إكرام وإجلال .

وفى هذين اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة والتشييع إلى ثرى الوطن كنت تسمع من المصريين جميعاً عبارة ملكت عليهم ألبابهم : من ذا يحل عقد المشاكل إذا انعقدت بعد ثروت ! كنت تسمع هذه العبارة تصدر منهم جميعاً على اختلاف نحلهم وأحزابهم ، أو لم يكن هو دائماً الموئل الذى يلجأ إليه المصريون مهما علت أقدارهم والذى يلجأ إليه الإنجليز حين يحزب الأمر ولا يكاد إنسان من الناس يرى

له من طريق السلام فرجاً ولا حلاً ؟ لذلك كان الكل ينظرون إليه كأنه الربان الذى ينقذ السفينة كلما ارتطمت على الصخر وخيف عليها أن تتحطم . فطبيعى أن يتساءل الكل عمن يحل عقد المشاكل إذا تعقدت بعد موته .

ولعل أحداً لم يذكر فى وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه ، لأن الناس نسوا فى هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن . مع هذا فمصاب بنى ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأب وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء . فلقد كان أبر أب بأبنائه وأوفى صديق لأصدقائه . بل إن الذين عرفوه أباً ليذكرون كم كان بره عظيماً وكم كان حنانه أعظم من بره . وكم كان صديقاً لأبنائه بمقدار ما كان أباً لهم . وكم كان يجد فى صداقتهم له ما يزيد فى عواطف الأبوة والبنوة سمواً ورقة . وإن الذين عرفوه صديقاً ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل أن يكون له فى صديق مثال . ثم هو إلى جانب ذلك كان حصافة الرأى ونبل الشمائل والشهامة والذكاء صورت كلها رجلاً .

* * *

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ وفى بيت جاه ونعمة . كان أبوه المغفور له إسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبد الخالق أفندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكام فى عهد محمد على الكبير . وكانت أمه من بيت تركى هى الأخرى . وقد أرسل به أبوه إلى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره ، ثم تابع دراسته فى مدرسة النورمال حتى إذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى إجازة الليسانس سنة ١٨٩٣ .

وكان ثروت الطالب . على ما ذكر الأستاذ لطفى بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق ، «شابًّا حسن الطلعة ، تعلوه سيما الجد فى غير عبوس ، مترفعاً فى غير كبر ، سهل الأخلاق دون فناء فى الأغيار . وكان فى ألمه وفرحه معتدلاً محتفظاً فى

كل حال بكرامته ، نافذ الرأى فى بيئته ، ودوداً من غير إلحاح ، ومتحفظاً من غير انقباض ، محبب العشرة فى رقته . وكان فى جاذبيته وحلاوة حديثه متفوقاً كما كان فى ذكائه واجتهاده . نعم فقد كان ذكياً حاد الذكاء مواتى البديهة كثير الاشتغال ، فوق درس الحقوق ، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الآداب الفرنسية والعربية . وأكثر ميله فى هذا الباب إلى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الأخيرة من حياته نوعاً من الشغف» وكان لشغفه هذا مظهر عرفه عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص . فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفذت طبعاتها ، وكان لا يأبى أن ينفق فى هذا البحث أياماً متتالية حتى يقع على طلبته . فإذا وقع عليها أمعن فيها بحثاً وتقليباً حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره .

ولما نال إجازة الحقوق التحق موظفاً بوزارة الحقانية سكرتيراً للمستشار القضائى بها . وكان المستشار القضائى يومئذ جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة . وسرعان ما قدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل ثقته وحتى وضع فى يده كل نفوذه . ونفوذ المستشار الإنجليزى يومئذ كان أقوى من نفوذ الوزير المصرى ، بل كان نفوذ أى موظف إنجليزى أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم فى مصر . لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم فى وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنهى فيها وما يزال شابًّا لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه . وعاونت هذه الحرية فى السلطة ما وهب من مقدرة وذكاء ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى تقدم فى وظائف القضاء وحتى عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديراً لأسيوط ثم عاد إلى الحقانية نائباً عاماً واختير وزيراً لها فى سنة ١٩١٤ .

على أنه لم يقصر نشاطه فى هذه الفترة من حياته على المناصب التى تولاها والتى أسرع به الزمن فيها إلى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلاً عالياً للموظف الكفء القدير . بل لقد أسلس من نشاطه إلى أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر إليها فى كثير من الأحيان بشىء من الريبة والحذر . انتخب عضواً فى إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وعضواً فى إدارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ ما يزال يشغل منصب النائب العام . وكانت له فى الجامعة وفى الجمعية سلطة نافذة وإرادة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا فى العالم السياسى نجمه ما زاد الهيئتين قوة واقتداراً على القيام بالأعمال الجليلة فى البر وفى الثقافة مما أنشئتا من أجله .

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفاً فى الدوائر الخاصة بالقضاء وعند المسئولين عن شئون مصر العامة ، حتى عين فى منصب النائب العام . وكان المسئولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه إلى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوسم فيهم الكفاية والمقدرة من الشبان وممن يطمع فى أن يقوموا لبلادهم بمثل الدور الذى قام به هو لبلاده . فلما كان صاحب الدعوى العمومية أتاح له حادث خطير أن يتصل بالجمهور اتصالاً مباشراً ، فقد اعتدى إبراهيم ناصف الوردانى على حياة المرحوم بطرس باشا غالى فى سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة فى الدعوى . هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص . وهنالك بدأ الجانب السياسى من حياة الرجل تظهر نواته وتكاد تتحدد سياسته . فالعبارة التى ننقلها من تلك المرافعة تلخص إلى حد كبير ما جرى عليه ثروت كوزير وكرجل سياسى بقية حياته ، قال :

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعى بالطرق المشروعة

فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصرى ، وأن كل مصرى مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وهمته فى خدمة بلاده . نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال أشق المشقات فى إعلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها . كذلك نرى أن من مرقيات الأمم الدارجة فى رقيها النظر فى أعمال القابضين على أزمة الأمور فيها ونقدها . ولكنا لا نسلم بحال من الأحوال أن يتطلع إلى مقام ناقد الحكام إلا رجل جمع إلى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان فى القول والفعل حتى يقدر الأعمال قدرها وينظر فى الأمور بفكر صحيح ، فلا يتعدى حد المشروعية وإلا انقلبت الخدمة وبالا وإرادة الخير شرًّا »

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياسية المستقبلة عن جانبين : الأول تقديره السعى لتقدم البلاد واستقلالها على أنه فرض من فروض العين على كل مصرى . والثانى أن يكون ذلك السعى بالطرق المشروعة لا بالفوضى ولا بالاعتداء . ولئن كان هذا التعبير – بالطرق المشروعة – هو الذى اتخذته مصر من بعد شعاراً لها فى المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الأوفى منها ، فإن هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة . فالشاب ، وإن قدر بعقله ما للحق فى ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متعجل يريد أن يرى الحق فى قبضة يده أو هو يصفق وإن فى أطواء قلبه لمن يعتدى على من يحسبه الحائل دون هذا الحق . لذلك كان الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وإن لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الأشياء بنتائجها من المسئولين ، ولذلك كان ثروت بمرافعته موضع إعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع إعجابهم بمقدرته كالمسئولين سواء بسواء .

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب فى غضبة أى عصب من أعصاب ثروت . ذلك بأن جانباً ثالثاً من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو

وبعقيدته لا برأى الجمهور وعقيدته فيه . فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابىء برأى الناس فى إقدامه . وهو مقدم فى جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها إلا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم إلى البر والرحمة .

وحرك الحكم بالإعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشىء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم فى قضية دنشواى ، وكان بطرس رئيساً لمحكمتها المخصوصة . تحركت النفوس ذاكرة دنشواى واتفاقية السودان ، ملتهبة غيرة بما سمعت فى الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردانى مرافعات حارة تفيض تقديراً لوطنيته التى دفعته إلى جريمة ارتكبها مدفوعاً بعوامل لا قبل له بمقاومتها . والحق أن هذا الحادث الذى عقب حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشوائيين فى سنة ١٩٠٨ ثم وفاة مصطفى كامل ، الذى جاهد حتى استصدر العفو ، بعد صدوره بشهر واحد . نقول إن هذا الحادث حرك النفوس فى مصر إلى المزيد من السعى فى المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأ متزايداً بأن الاحتلال الإنجليزى القابض على أزمة الأمور فى مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيراً . وكان من أثر هذا الشعور ، الذى ازداد التهاباً حين أحس بتخلى أوربا عنه بالاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وإنجلترا فى سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالى الذى انهزم أمام إنجلترا فى حادث طابه فى سنة ١٩٠٦ ، أن بدأت فى البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود المصريين لوطنهم بما جعل الحكومة المصرية التى تقوم لتستر الحكومة الفعلية ، حكومة المستشارين الإنجليز ، تحس بغضاضة على نفسها وحرج فى مركزها . وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التى تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها حرصت على أن تظهر فى مظهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات فى مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك فى مظهر الحكومة

الوطنية حين استصدرت ، بموافقة إنجلترا وعميدها فى مصر لورد كتشنر الذى خلف سيرالدون غورست بعد وفاته ، قانوناً جديداً لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩١٣ ، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدما انتخب فيها من أقوياء الحجة فى مصر وذوى المكانة منها ما جعل الحكومة لا تستطيع متابعة طول مناقشة الجمعية إياها ، فاستقالت وإن لم يكن من ثم نص فى القانون النظامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيراً للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت فى أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من إرجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويذكر الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجاً ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجاً ، فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا ، وخديو مصر عباس حلمى الثانى كان غائباً عن مصر مقيماً بالآستانة متهماً فى نظر الإنجليز بالتآمر مع تركيا ومع ألمانيا على إنجلترا وعلى الحلفاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا وللخديو بالإخلاص والولاء . وإنجلترا صاحبة اليد العليا فى مصر والجيوش الجرارة على أرضها تملك بكلمة أن تضمها إلى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعاً عنها . وهيهات إذا ضمت مصر إلى أملاك إنجلترا أول الحرب أن يكون أمل فى أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب إذا انتهت هذه الحرب بانتصار إنجلترا وحلفائها ، أو أن يكون أمل حتى فى مركزها كولاية عثمانية ممتازة إذا انتهت الحرب بانكسار إنجلترا وانتصار الألمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى فى هذا المركز الدقيق ؟

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجاً أن الشعور العام فى مصر كان ميالاً إلى جانب ألمانيا آملاً فى فوزها طامعاً فى أن تحرر من نير إنجلترا ، وكأنما تجددت يومئذ فى نفوس المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا لتجلى لهم جنود إنجلترا عن أرضهم آمال فى الاعتماد على ألمانيا لتحقق لهم هذه الغاية . وكان هؤلاء المصريون الموالون لألمانيا بعواطفهم يدورون فى الأندية والأماكن العامة وفى قطارات السكة الحديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشراً عليها بمواقع القتال وبما كسب الألمان واندحر الحلفاء . ودعاية كهذه من شأنها أن تعد البلاد للثورة إذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها . لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدى باشا لم يكن له تأويل إلا الدفع بمصر إلى أحضان إنجلترا والخروج بذلك على ما كان معروفاً يومئذ من ميول تركيا ميولاً انتهت بخوضها غمار الحرب إلى جانب ألمانيا ، فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل إلى خير الوعود من إنجلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهى الحرب لمصلحة الحلفاء ، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكن من جراء الحرب ، نافضة يدها بعد ذلك من شئون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت إنجلترا الأحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها ، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجىء القدر به .

وأعلنت تركيا الحرب منضمة إلى ألمانيا ، فألفت إنجلترا الفرصة سانحة لتغيير موقف مصر السياسى . وقد دار بخاطر أولى الأمر فى لندن – على ما ذكر لورد جراى وزير الخارجية الإنجليزية فى ذلك الحين – أن يعلنوا ضم مصر إلى أملاك التاج . لكن اعتراضات قامت فى هذا الصدد : أولها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب إنجلترا وإياهم كتفاً لكتف يؤولون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق وإياهم على شىء فى هذا الصدد . ثم إن إعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور فى مصر إلى

حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة . على ذلك فكرت حكومة لندن فى إعلان الحماية على مصر ، وانتهت ، بعد شىء من التردد ، إلى اختيار السلطان حسين كامل سلطاناً فى القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذى قررت إنجلترا أنه انضم انضماماً ظاهراً إلى أعدائها ، فلا يمكن أن يعتلى عرشاً تحت حمايتها . ودارت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت إلى قبول رشدى باشا وزملائه الأمر الواقع والبقاء فى مناصبهم كوزراء تحت نظام الحماية ، آملين متى انتهت الحرب أن تجد إنجلترا فى تصرفهم ما يجعلهم منها بمكان يستطيعون معه الوصول إلى خير نظام سياسى لبلاد ألقت المقادير على عواتقهم أعباء مصيرها فى ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه . وظلت حكومة رشدى باشا ، وفيها ثروت باشا وزيراً للحقانية ، حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء فى ألا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها .

ولما كانت الشروط الأربعة عشر التى وضعها الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبراً إياها أسساً للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها ، فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الأمة– نذكر من بينهم على باشا شعراوى ، ولطفى بك السيد ، ومحمد باشا محمود ، وعبد العزيز باشا فهمى– هذه الفرصة ففكروا فى تكوين هيئة تطالب لمصر بحقها فى تقرير مصيرها . وأفضى هؤلاء بفكرتهم إلى حكومة رشدى باشا فوجدوا منها ارتياحاً لها . ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيساً لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكباتى بك ومحمد على باشا من أعضاء الحزب الوطنى . وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصرى ووضعت صيغة توكيل من الأمة لها بالسعى لاستقلال مصر أينما

وجدت إليه سبيلاً . ووزعت هذه التوكيلات فى طول مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا . وكان من رأى السير رجنالد ونجت مندوب إنجلترا السامى فى مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر إلى إنجلترا أو إلى حيث شاء من ممالك أوربا ، وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ليعبرا فى لندن عن مطالب المصريين . ولو أن نصيحة السير ونجت نجحت يومئذ لتغير ، على الأغلب وجه المسألة المصرية ولسارت فى طريق غير التى سارت فيها بسبب رفض إنجلترا للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر.

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد إلى إنجلترا أو إلى مؤتمر السلام . ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامى البريطانى فى تحويل الحكومة الإنجليزية عن رأيها . هنالك استقال رشدى باشا وعدلى باشا واستقالت وزارتهما فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ولقد خيل إلى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون فى ثروت باشا ، وله من الكفاية والمقدرة ما له ، الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف بإقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ، كما خيل إليهم أن ثروت باشا لن يرفض رياسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والأربعين من عمره . لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركاً بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلى ورشدى . ثم هو كان يقدر التبعة الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد إعلان إنجلترا حمايتها على مصر . فإذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لإنجلترا ، وكانت مصر ، والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملاً من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال اللنبى قائد جيوش الحلفاء فى الشرق ، فإن من خطل الرأى وسوء التدبير الذى لا يليق بسياسى حنكته تجارب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضى العاجلة من رياسة الوزارة بديلاً لما كان يرى حقاً لأمته أن تبلغه من نظام يتفق مع

مكانتها ويعادل بعض الجهود التى بذلتها أثناء الحرب الكبرى . وإذا كانت بعض دول أوربا التى خاضت غمار الحرب إلى جانب الحلفاء قد حصلت على وعود بالتوسع وضمان الاستقلال ، وإذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فلن يكون ثروت هو الذى يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزة مكان بين دول العالم .

ورفض أن يشكل الوزارة فى هذا الظرف الدقيق ، مقدراً أن سيحسب عليه رفضه عند ذوى الكلمة والمراجع العليا فى مصر . بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته ، فلم يعبأ بما أبلغ إليه وأصر على الوقوف إلى جانب أمته إصراراً دعا الوفد ، وعلى رأسه سعد زغلول باشا ، كى يسعى بكامل هيئته إلى دار ثروت باشا مقدماً إليه التهنئة على إبائه الوطنى وآيات الشكر على تضامنه مع الوفد فى حركته القومية . وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملا فى النجاح . وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أنذرت السلطة العسكرية الوفد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة . على أن هذا الإنذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا فى إصراره على رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح القضية القومية .

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسى فى السعى لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التى أشار إليها فى مرافعته فى قضية قاتل بطرس باشا غالى . ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى إلى جانبها كل ما يطمع فيه غيره . على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه إلى أن يتبع فى سياسته خطة غير التى يتبعها كثيرون من الساسة غيره . فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبه مستعيناً فى تحقيقها بالقوة أو بالواقعية أو بالمساومة . بل كان يحدد فى نفسه غاياته

ويعتمد قبل كل شيء على البحث المقترن بالحكمة والمنطق وحكم العقل . وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل له النجاح دائماً فى بلوغ ما ير يده . وكان يكفل له هذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسئوليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيراً لمستشار الحقانية الذى ألقى بين يديه بواسع سلطته . بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر فى وضع نظام لمصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين ، رشدى باشا وعدلى باشا وإسماعيل صدقى باشا ، فى إقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى فى أمر القضية المصرية . وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها إلى رجال الوفد بباريس كى يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها ، حتى إذا اتصلوا بها كان اتصالهم مثمراً . فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر فى صيف ١٩٢٠ ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وإنجلترا وطلبت إلى عظمة سلطان مصر إيفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانية فى استبدالها بعلاقة أوجب للرضا ، شكل عدلى باشا وزارته الأولى فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها .

وعاد سعد زغلول باشا من باريس فى أوائل أبريل ودارت محادثات بينه وبين الوزارة انتهت إلى اختلافه وإياها فى طريقة تشكيل الوفد الذى يقوم بالمفاوضة وإعلانه الحرب عليها فى خطبة ألقاها فى ٢٨ أبريل بحى شبرا . ثم سافر عدلى باشا على رأس الوفد الرسمى الذى تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالمفاوضة ، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدى باشا وإسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين ومستشارين . وقام ثروت باشا فى مصر رئيساً للوزارة بالنيابة . وكوزير للداخلية مسئول عن حفظ الأمن والنظام

اللذين كانا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد فى احتمال التبعات التى رآها واجبة فى هذا الظرف ، دالاً بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان تردداً ولا هوادة . وبرغم الجهود التى بذلها عدلى باشا والوفد الذى كان معه فى سبيل إقناع الإنجليز بوجهة نظر مصر ، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتغاء الوصول إلى حلها حلاً يقنعها ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التى كانت مرجوة منها ، ولذلك قطع عدلى باشا المفاوضة بعد أن أعلن إليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته . واستقال عدلى باشا على أثر وصوله . ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقاً بمذكرة مهينة لمصر أشد الإهانة .

تحرج الموقف السياسى بين مصر وإنجلترا على أثر هذه الاستقالة . ثم زاده حرجاً أن قبضت السلطة العسكريةالبريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر . هنالك عادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادى بعدم التعاون مع إنجلترا وتدعو كل مصرى ألا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسئولية الأمر فى مصر ، حتى تظل إنجلترا وأحكامها العرفية مسؤلة مباشرة عن كل ما يقع فيها .

فى هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره . إن المشروع الذى أعلنته إنجلترا ولم تقبله مصر يقضى باعتراف إنجلترا باستقلال مصر استقلالاً مقيداً فى مسائل معينة . وهذه القيود هى التى لا ترضاها مصر . فإذا أرجأنا النظر فى هذه القيود إلى ظرف مقبل أكثر ملاءمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت إنجلترا من جانبها التخلى لمصر عما ارتضت أن تتخلى عنه فى أثناء مفاوضات عدلى باشا ووفده ، كانت هذه خطوة جديدة من جانب إنجلترا تدل بها على حسن نيتها بإزاء مصر وتزيل الحرج الذى أدى إليه كتابها المرفق به المشروع ، ثم لا تكون قد خسرت شيئاً لأنها إنما

تتنزل عما كانت معتزمة من قبل التنزل عنه . على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد إنجلترا للوصول إلى هذه الغاية لم يبدأها بطلب إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، لما كان يعلمه من أن هذا الطلب يلاقى من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الأمر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر أو برفعها اتصالاً . ولم يكن بد أمام العقل من قبول إنجلترا هذه الطلبات . وبعد قبولها وتحديد المسائل التى تعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وإنجلترا ، وصل ثروت باشا من بحثه إلى نقطة تبين معها لممثل إنجلترا نفسه أن بقاء الحماية الإنجليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لإنجلترا نفسها . وحكم العقل يقضى بأن التشبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوى الفطنة السياسية . وقد بلغ من اقتناع لورد اللنبى معتمد إنجلترا واقتناع المستشارين الإنجليز فى الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعاً بالاستقالة إذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم . وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا إليها ، ولم يكن إلا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الإنجليزية أيضاً . وعاد لورد اللنبى فى يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فأعلن فى مصر تصريحاً من جانب إنجلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنهى لذلك حمايتها عليها محتفظة لمفاوضات مستقبلة بمسائل أربع : الدفاع عن مصر ، وحماية مواصلات الإمبراطورية ، وحماية الأجانب والأقليات ، ومسألة السودان . وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالة الملك فشكل وزارته الأولى فى أول مارس سنة ١٩٢٢ .

على أن هذا العمل العظيم الذى قام به ثروت باشا من حمل إنجلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سبباً لأن تدبر ضده فى الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته . وقد دبر هذا الاغتيال قبل إعلان التصريح بيومين . على أن إدارة الأمن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين

يكمنون له عند كوبرى الأعمى ، حتى إذا مر فى (أوتموبيله) ذاهباً إلى نادى محمد على فتكوا به . وقد طلب ذلك اليوم إلى مقابلة عظمة السلطان فى عابدين فى الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تريد إتمام جريمتها . فدعا إليه صديقه وزميله فى محادثات الإنجليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضره صاحب المعالى إسماعيل صدقى باشا وطلب إليه أن ينوب عنه فى مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالأجرة . وكذلك نجا ثروت وقبض على المتآمرين . ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟

وإعلان إنجلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف بتقديره قوة بلاده ومطالب إنجلترا — هذا الإعلان رفع مقامه فجعله سياسيًّا فذًّا فى نظر العالم بأسره ، وجعل أبناء أمته يتطلعون إليه معجبين به وبمهارته . على أنهم انقسموا مرة أخرى ، لا فى قدرهم المجهود لذاته ، ولكن فى الخطة السياسية ، أو بالأحرى فى الخطة الحزبية التى يسلكونها بإزاء التصريح بالاستقلال وبإزاء الرجل الذى فاز به . أما الطوائف الحكيمة التى تقدر الأشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جدية فى سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته فى خطته . ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح أذى ، عاملة فى نفس الوقت على مناوأة ثروت باشا وحكومته مناوأة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاص من قيمته . وقد كان من مظاهر هذا الموقف أن أمسك هؤلاء عن إبداء رأيهم فى التصريح حين أعلن البرلمان الإنجليزى أنه يريد بحثه فى جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا فى وجل أى وجل ألا تنال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب إعلانها إياه . فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلالة ملك مصر استقلالها فى ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفزون إلى أنه أصبح حقاً لمصر

لا ينازعها فيه أحد بدءوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا . على أن ثروت لم يتردد فى هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفذ ما ينطوى عليه التصريح من حقوق مصر بإنشاء وزارة الخارجية التى كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وبإقالة المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتى الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاماً دستورياً على أحدث المبادئ العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى فى كل صورها ومظاهرها ، وإظهار الحكومة المصرية الأهلية بمظهر الاحترام الواجب لها .

وليوطد فى النفوس الإيمان بحق مصر دعا فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك ، إلى حفلة كبيرة بفندق الكونتننتال حيث ألقى خطاباً يبين فيه مزايا العمل الجليل الذى قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال . وقد يبدو عجيباً أن تكون الفكرة السائدة فى هذا الخطاب هى بعينها الفكرة التى وردت فى مرافعة عبد الخالق ثروت النائب العام فى قضية الوردانى ، والتى أوردت نصها من قبل . فقد جاء فى هذا الخطاب السياسى ما نصه :

« لم يبق علينا إلا أن نقنع إنجلترا أن ليس بها حاجة إلى التمسك بالضمانات التى تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعى . وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب إليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخذنا بأسباب النظام . فإن حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة فى الضمانات هى شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم إلى تركها لعهدتنا . فإذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائدنا فإننا نثلم هذا السلاح بأيديهم وندفع حججهم علينا .

ولا مشاحة فى أن كل من يعمل على تعكير السلام أو إثارة الاضطراب مجرم فى حق وطنه عامل على هدم كيانه » .

ثم جاء فيه أيضاً :

« إننى لا أكره المعارضة ، بل إذا انعدمت هذه المعارضة فإننى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة فى الوصول إلى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه . ولكنى أريد المعارضة الشريفة التى تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل إلى اختلاق الأكاذيب . إننى أريد الخصومة الشريفة التى لا تنظر إلا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجرداً عن كل اعتبار شخصى » .

وهذه الخطة التى رسمها ثروت باشا فى خطاب يوم عيد ميلاد جلالة الملك هى التى كررها من بعد فى خطب ألقاها فى افتتاح لجنة الدستور ولوفود ذهبت إليه فى شئون سياسية مختلفة . ولقد كان لهذه الخطة الحكيمة أن تؤتى ثمرها كاملاً بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوة منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطنى الصحيح إلى ميادين أخرى . فبينا هو يعمل جاداً فى تطبيق مزايا الاستقلال التى حصلت عليه مصر مقيداً بالتحفظات التى أشرنا إليها ، وقعت على جماعة من البريطانيين ، ضباطاً وجنوداً ومدنيين ، سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحياة ثمانية عشر منهم على التعاقب . على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجاً غاية الحرج بعد زمن وجيز من بدء لجنة الدستور عملها . فقد عمدت هذه اللجنة إلى وضع مبادىء تتفق مع المبادئ العصرية التى كلفت بوضع الدستور المصرى على أساسها ، وشاركها ثروت باشا الرأى فى مبادئها . وفى رأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة الشرقية وخططها . لذلك ألفى ثروت باشا نفسه فى موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذى يرضاه ضميره . وبرغم المحاولات الكثيرة التى بذلها

لتهدئة العواصف الكمينة فى ثورتها حوله ، فإنه شعر بدقة المركز فجعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك فى وضع مشروع لقانون الانتخاب . ورفعت اللجنة مشروعها إليه فى جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر فى أثنائها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه ، وكان ذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . ولما كان جماعة أصدقائه السياسيين يؤلفون فى هذا الوقت حزب الأحرار الدستوريين ، انتظر من معونتهم ما يكفل اقتداره على السير بسياسته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف فى ٣٠ أكتوبر ثم ما كاد يمضى أسبوعان على تأليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب داره دار جريدة « السياسة » فأصابوا حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى من أعضاء مجلس إدارته . وأبدت الصحف المناوئة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقية التى تشجع هذه الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور إلى جلالة الملك أنها خطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته فى يوم ٣٠ نوفمبر منوهاً فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صدور الدستور وغير الدستور مما نص فى تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظراً ظرفاً خيراً من الظرف الذى كان فيه فى الحكم ليعود إلى الميدان فيعمل لإتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال . على أنه فى اعتكافه لم يتوان يوماً عن بذل كل ما لديه من نفوذ كى يصدر الدستور . فلما صدر فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا إبراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع فى ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياسته . وسياسته . كما رأيت . تقوم على

الإخلاص الصحيح والعزم الوطيد على إتمام اتفاق بين إنجلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة فى التصريح . وعسير الوصول إلى هذا وفى البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجنى على أية مفاوضات جديدة جناية الانقسام على المفاوضات التى تولاها عدلى باشا يكن سنة ١٩٢١ . فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت فى إمكان التفاهم معه اجتناباً لكل انقسام مستقبل . لكن علاقات الرجلين كانت متوترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر . وقد ألقى المحيطون بسعد فى روعة أن ثروت هو الذى نصح بنفيه . ثم إن سعداً كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقساها . بل لقد ذهب فى الطعن عليه إلى اتهامه فى إخلاصه لوطنه . فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم إلى ناحية سعد خطوة من الخطى ؟ على أنه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أى فرد من أبنائه ، فبعث إلى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه فى حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتكم وإياه فى أسباب الخلاف بينهما إلى الأمراء وذوى الرأى والمكانة فى البلاد . وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو ، معتمداً على هذه الوحدة ، إلى استكمال استقلال بلاده بإتمام الاتفاق بين مصر وإنجلترا . لكن مسعاه هذا لم ينجح أن رفض سعد باشا التحكيم . وبقى ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبته وفى عمله المتصل بالجمعية الخيرية الإسلامية وبالجامعة المصرية وبغيرهما من الهيئات التى كانت أبداً فى حاجة إلى ثاقب رأيه . فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية إلى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين . ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الأغلبية الكبرى فى انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم إلى حزبه على حياة السيرلى ستاك باشا حاكم السودان العام . فأبلغت إنجلترا حكومته إنذاراً قاسياً اضطرت بعده إلى التخلى عن المناصب . وخلفه أحمد زيور باشا فى رياسة الحكومة ، فاستعان بالأحرار

الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عن أغلبية لحزب سعد باشا كذلك . فحل المجلس الجديد أيضاً وأجلت الانتخابات إلى أجل غير مسمى . على أن الحل الأول وهذا التأجيل الثانى خلق فى البلاد حزباً جديداً كان أعضاؤه كثيرى التردد على القصر الملكى وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما . وخيل لأعضاء هذا الحزب يوماً أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامناً وإياه ، وسنحت بذلك فرصة التفاهم والائتلاف مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معاً لعود الحياة النيابية . وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا ، وكان يخيل للكثيرين أنهما لن يلتقيا . وجرت الانتخابات وألف عدلى باشا يكن الوزارة الائتلافية الأولى وجلس سعد باشا فى رياسة مجلس النواب . وفى أوائل أبريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلى باشا فألف ثروت باشا وزارته الثانية وبقى سعد باشا فى منصبه رئيساً للنواب . وكانت إنجلترا يومئذ قد أرادت ، متأثرة بآراء مندوبها السامى اللورد جورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية ، فخلقت ما سمى أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها إلى الإسكندرية ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد . فاستطاع ثروت باشا بمهارته وكياسته ، أن يقضى على هذه الأزمة من غير أن تصل إنجلترا من مطالبها إلى أكثر من منح أحد الموظفين الإنجليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية .

حدث بعد ذلك أن سافر جلالة الملك فؤاد إلى أوربا مدعوّاً إلى زيارات رسمية بإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا وبعد شىء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا فى رحلته . فانتهز ثروت فرصة وجوده بإنجلترا وفاتح وزير خارجيتها السير أوستن تشمبرلن فى أمر أزمة الجيش وتحدث إليه فيما إذا كان مستطاعاً

الوصول إلى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتقاء أزمات أخرى . وقد انتهت هذه المحادثات إلى مشروع لم يقبل فى مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح إلى الاتفاق النهائى . وربما كان ممكناً تعديله بما يمهد لقبوله ، لو أن سعد باشا زغلول بقى حياً إلى حين انتهاء ثروت من محادثاته . لكنه توفى فى أثنائها ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ولم يخلفه من حنكته التجارب السياسية ما حنكت هذا الزعيم . وطلب إلى ثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجرى انتخابات يعرض فيها المشروع الذى وصل إليه على البلاد ، فأبى لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبل المشروع ، ولأنه من ناحية أخرى خشى إذا حل المجلس ألا يعود . واستقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتاباً أخضر عن مفاوضاته . ويدل هذا الكتاب والمذكرات التى اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذى بذله ثروت فى أثناء قيامه بالمفاوضات منفرداً ضخامة لم يعرف لها حتى اليوم فى حياة سياسى مصرى نظير . ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتضلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل . ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أوستن تشمبرلن لأحد أصدقائه إذ قال : « أتاح لى اتصالى فى جمعية الأمم بأكثر وزراء الخارجية فى الدول المختلفة أن أقدرهم جميعاً . وما أحسب واحداً منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حجة وحسن بيان » . وفى الكتاب الأخضر المذكور ، إلى جانب هذا كله ، اتجاه جديد فى سياسة ثروت يرمى إلى ربط الاتفاق بين مصر وإنجلترا بقضية السلام فى العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسياً عالميا لا سياسيًّا قوميًّا وكفى . فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد فى بعض الأمور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجدية وأن مقامه فى لندرة للوصول إلى الغاية التى ينشدها لم يبق له محل . وكان أمامه إذ ذاك أن يعلن ذلك إلى قومه فى عبارة قوية أخاذة ، وأن يعود محاطاً بهالة من الجلال والإعجاب . لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته فى التفكير ولا هو يقرب الغاية التى

ينشدها ولا يؤيد السلام الذى يسعى لتأييده . لذلك لجأ إلى الحكمة ينادى داعيها فى نفس الوزير الإنجليزى ، حتى إذا لم يجب هذا الداعى وأصر على تشدده كان مسئولاً أمام العالم كله وكان مخالفاً فى خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التى أتبعتها الدول الأوربية فيما بينها لتأييد السلام . فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية ، ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده ، ومن تحميل مناظره تبعة عدم النجاح ، ما يشهد به نصه إذ قال :

«عزيزى صاحب السعادة

«من أطيب الأشياء إلى نفسى أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتى لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال . وإن أنس لا أنس نزعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثاتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين .

«ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعيكم المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح ، كما أنه يؤلمنى أن يخفق كل ما بذل من الجهود فى هذا السبيل ، تلك الجهود التى لم تجعل ، حتى اللحظة الأخيرة ، مجالاً للشك فى حسن ختام محادثاتنا فى هذا الشأن .

«ولا أزال أرجو ، إذ أنادى منكم داعى الحكمة والتجىء إلى صادق شعوركم وصحيح إنصافكم ، أن تدركوا الغاية التى تعملون لها ، وأن تضموا إلى إكليل «لوكارنو» إكليل الاتفاق بين إنجلترا ومصر»

ولم تضعف استقالته من الوزارة من إيمانه بإمكان الاتفاق بين مصر وإنجلترا . بل كان يرجو فى ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء فى نجاحها . لكن المجهود العظيم الذى أنفقه والمقابلة السيئة المنطوية على إنكار الجميل التى قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالإكباب على

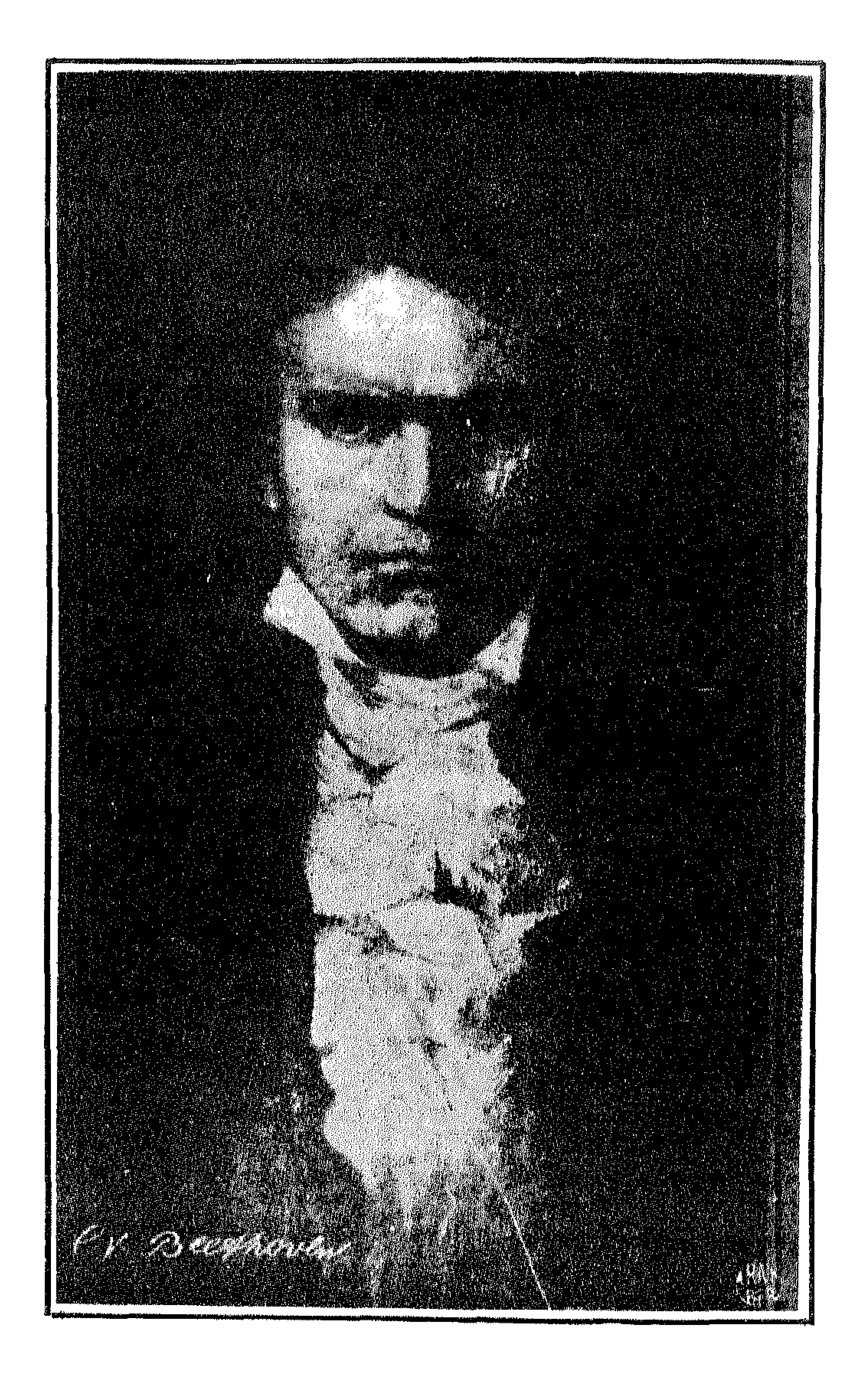
العمل فى مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه ، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته . فسافر مستشفياً فى صيف سنة ١٩٢٨ وذهب إلى سان مورتز ثم عاد منها إلى باريس فى ١٨ سبتمبر . ولم يكن يدرى أن أجله يتربص به فيها ليختم كتاب حياته فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٢ سبتمبر ، أى بعد وصوله إليها بخمسة أيام .

وبكت مصر ثروت ، وتقدمت دول العالم كلها تعزيها فيه ، وتناولت الصحافة فى مختلف الأمم أعماله فشادت بها ورفعتها إلى المكان الجديرة به . . بكته مصر مُقدّرة جميل صنيعه ، وعظيم نزاهته ، وعلو همته ، آسفة على ما فرط منها أيام حياته فى حقه ، مؤمنة بأن سيبقى اسم ثروت علماً فى تاريخ مصر على الاقتدار السياسى المنقطع النظير .

القسم الثانى

تراجم غربية

بتهـــوفن



اليوم ، ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن ، إجلالا لتلك الألحان القدسية التى أورثها إياه هذا النابغة الشقى ، والتى ما تزال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة فى عالم النغم . فما يزال لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الأخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج فى جو الوجود فتزيده بالحياة نعمة ، وتشدو فى أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما أعوزهم اللحن العذب ليرفع من هممهم وليقوى عزائمهم . وما يزال اسم بتهوفن ولن يزال مقترنا بكل لحن من هذه الألحان ، بل بكل نغمة من نغماتها . وذكر العالم اليوم له لمرور مائة عام على وفاته ليس إلا أداء لدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

يذكر العالم كله اليوم بتهوفن فيذكر ذلك الألمانى المولد ، الفلمنكى الأصل ،

المتقارب أجزاء الجسم فى قصر يكاد يجعله قزماً ، الحاد النظرة ، العبوس ، المتجهم للحياة بعد ما تجهمت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به إلى الصمم ، الجاعل مع ذلك من الألم سبيل المسرة ، المفنى نفسه فى سبيل فنه ، المؤمن برسالته وبقوته يذكر العالم هذا الرجل الذى لم يجد فى غير العمل سبيلا للسعادة ، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذى توافر على عمله فى الموسيقى توافراً جعله ينتج هذه الثروة الفنية ، والذى لم يعرف غير الموسيقى ولم يؤمن بشىء إيمانه بها أن كانت أعصابه أوتاراً تهتز بالنغم لكل ما فى الحياة .

فقد كان كل ما فى الحياة عنده نغماً ، كان الجمال نغماً والعواطف نغماً والأفكار نغماً والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحاب والجبل وكل ما فى الطبيعة وما فى الحياة أنغاماً تشدو بها أوتار هذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها .

بهذه الأنغام وبما تعبر عنه من جليل المعانى وبذكرى واضعها يحتفل العالم إذن اليوم .

وعجيب أن كانت حياة واضع هذه الأنغام السماوية نشازاً كلُّها . فلم ينشأ بتهوفن نشأة غيره ولم تتسق حياته مع نبوغه ، ولم يذق من الهناء ما يذوقه أمثاله . بل كان ، وهو على حد قوله « باكوس الذى يستصفى للإنسانية الرحيق العذب ويجلى على الناس أقدس ما فى الروح من جلال » معذباً فى نشأته ، معذباً جل حياته ، معذباً كذلك فى موته . ولعل ما متعت به ذكراه بعدما استراح من عناء الحياة ونشازها الدائم معه ، قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح إليه يوماً طوال عيشه .

* * *

ولد لدفج فان بتهوفن بمدينة بون على مقربة من كولونيا فى ١٦ ديسمبر سنة

١٧٧٠ . وكان أبوه مغنيًّا سكيرا ، وكانت أمه خادماً وابنة طباخ وأرمل فراش . وهذه بداية فى الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة . بل هى نذير صراع للوجود قاس قتال . ولم يمهله أبوه إلى أكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلا للموسيقى ، فأراد أن يستغله بعرضه على الناس وحبسه ومعه كمنجا صغيرة ، وأرهقه بالعمل حتى كاد يكره إليه فناً خلق له . لكن كسب الأب كان تافهاً ، فكان لابد للطفل أن يجنى من عمله عيشه . فما بلغ . الحادية عشرة حتى كان عازفاً فى اركسترا أحد المسارح . وفقد أمه وهو فى السابعة عشرة من عمره فحزن لفقدها أشد الحزن أن ألقى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربية أخويه بسبب ما انحط من قوى أبيه .

وفى نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى إلى فينا عاصمة ألمانيا الموسيقية على أثر موت أبيه . وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميالا للعزلة محبًّا للعمل حبًّا جماً . وكان لذلك قد جعل من البيانة[١] خير أصدقائه . فإليها كان يبث شجنه حين اضطر لهجرة دار أهله وقد جعلتها عربدة أبيه جحيما ، وإياها كان يستودع الأفكار الطريفة التى يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجل هذه الأفكار ارتجالا ، ومعها كان يتناجى بما يجول فى نفسه من خلجات وما يجيش به صدره من عواطف ، وبها كان يعبر للنساء اللواتى أحب عما يغمر قلبه من هيام وما يحز فيه من غيرة . بل لقد كان يتحدث بها إلى أصدقائه . ولم يكن أكثر منها بلاغة للتعبير عما فى نفسه . فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقده أى جزع ، فلما ذهب بتهوفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « إن ما أشعر به هنا لا سبيل إلى بيانه . لكن البيانة ستقوله عنى » ثم جلس إلى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكى فى صدرها ألمه ، ثم كانت للسيدة نعم العزاء . وكذلك كانت البيانة صديقته كما كانت موضع قوته فى الموسيقى وسلطانه فى الارتجال . بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار –

---

(١) البيانو على نحت الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

الذى ملأت ألحانه آذان ذلك العصر وما تزال إلى اليوم من مفاخر الموسيقى – وقد سمعه وهو فى السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده فى غرفة مجاورة للغرفة التى كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه : « تنبهوا إلى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوماً من الأيام » .

ذهب إلى فينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفى مقدمتهم الكونت دوالشتين . وكان أكبر همه من ذهابه إليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الألمان يومئذ . لكن هايدن كان مشغولا بتواليفه جد الاشتغال ، فلم يجد الشاب من وقته ما يفيده . فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجيه . وكانت أخلاق هذا الأستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة الثائرة . وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من آثار النبو عن متعارف القواعد مالم يعبأ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذى حلق فى السماك فخضعت له كل القواعد .

وعضده يومئذ البرنس لخنفسكى وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنوياً . وألفت بينهما صداقة متينه لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائما عليها الأميرة لخنفسكى التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذى يقيم معهم حق قدره .

ويومئذ كانت الثورة الفرنسية تغزو العالم كله بمبادئها . وكان بتهوفن خصما لها أول أمره . لكن مداومته قراءة هوميروس وأفلاطون وفرجيل وتاسيت وتبينه المبادئ الجمهورية التى قامت عليها الثورة ، جعل منه نصيرا من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد حين جاء إليه الجنرال الفرنسى برنادوت يطلب إليه أن يضع لحناً symphonie لمجد قنصل الثورة بونابارت . وأتم بتهوفن اللحن وكان على أهبة إرساله إلى باريس إذ علم أن نابليون توج نفسه إمبراطوراً . فما لبث أن عاد إلى بيته

ساخطاً ومزق لحنه وقال : « هذا رجل مطامع كغيره من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خبراً . ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كي يعيد هذا اللحن إلى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلها نشيد الأسى ، كأنما ينعي ما كان من انهيار آماله . وسمى اللحن لحن البطولة ، وأضاف إلى عنوانه هذه العبارة « إحياء لذكرى رجل عظيم » .

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضاً . فكتب عدة ألحان من خير ألحانه كما كتب أوبرا فدليو . ويومئذ أحس بسلطانه وآمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصور التي صورته فى ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله فى المستقبل . ففى سنة ١٧٩٦ كتب فى مذكراته الخاصة يقول : « إقداماً ! » وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتى ها أنذا بلغت الخامسة والعشرين . . فيجب فى هذا العام أن يظهر الرجل كاملا » وذلك على أنه كان ما يزال فى بداية حياته العامة . فأول حفلة عامة له كبيانى وقعت فى ٣٠ مارس سنة ١٧٩٥ . لكنه لم يبق لديه ريب فى قوته ولم يخف ذلك على أحد من أصحابه . بل كان يباهى به على صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده . كتب إلى الدكتور وجلر – صديق صباه فى مسقط رأسه – يخبره بنجاحه العظيم ، فكانت الفكرة الأولى عنده ظاهرة فى قوله : « أرى مثلا صديقا محتاجا فإذا لم يسمح لى جيبى بالإسراع إلى معونته لم يكن علىّ إلا أن أجلس إلى منضدة العمل فإذا بى فى وقت قصير قد سددت حاجته ، ألست ترى هذا غاية فى الجمال . . . ويجب أن أقف فنى على معونة الفقراء » .

لكن ! ياقسوة القدر ! فما كاد هذا النابغة القوى يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك إليه مساربها . بدأت هذه الآفة التى نغصت عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦ . فلما تمض على هذه السكينة للقوة العظيمة

شهور حتى بدأ وجه الحياة يتجهم وبدأت نذر الشقاء تتقدم . وبدأت مقدمات الصمم بطنين الآذان ليل نهار طنيناً مزعجاً . وقد ظل سنوات يخفى مرضه حتى على أعز أصدقائه . وكيف تريد موسيقياً على أن يقول للناس إنه أصم ! لكن ذلك لم يقعد به عن مداومة العمل . ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه فى عدد من الألحان التى وضعها فى ذلك الحين فقد بقى أكثرها بساماً طروباً . غير أنه لم يطق كتمان علته بعد أن احتملها خمس سنوات تباعاً ، فكتب فى سنة ١٨٠١ يشكو هذه العلة إلى كثير من أصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا إذ كتب يقول له :

« عزيزى الطبيب الرفيق أمندا . . . كم كنت أرجوك بجانبى . فصديقك بتهوفن بائس غاية البؤس . ذلك أن سمعى وهو أكرم أجزاء نفسى على ، قد ضعف كثيرا . وكنت أشعر منذ كنا معاً بأعراض المرض وكنت أخفيه ، لكنه اطرد سوءه من بعد ، فهل أشفى ؟ أرجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائى فيه قليل . فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء . وسأضطر لقضاء العيش فى بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ماهو عزيز على ، وذلك بين عالم شقوة وأنانية . . ياالشقاء الاستسلام الذى يجب أن ألجأ إليه . لا ريب أنى فرضت على نفسى السمو فوق كل هذه الآلام فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟ »

هل من سبيل إلى عزاء لبتهوفن عن هذا الألم ؟ هل من وسيلة لتخفيف مضضه ومرارته ؟ الوسيلة الممكنة هى المرأة والسبيل هو الحب . فلو أن بتهوفن وجد يومئذ من يتعلق بها قلبه ويؤمن به وبعظمته قلبها ، لكان له من ذلك ما يهون عليه بعض همه ، ولقد كان منذ نشأته طيب القلب عطوفاً ، لكن حبه كان قاسياً كالفضيلة التى امتلأ بها قلبه . وكان لذلك يرى عارا أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشويه الشهوة . ولذلك عاب على موزار قطعته « دون جوان » . على أن فضيلته القاسية هذه هى التى كانت سبب فشل علائقه الغرامية جميعاً . فى سنة ١٨٠١ تعلق

بجوليتا جوكشياردى وأهداها لحنه المعروف « ضوء القمر » ، وكتب إلى صديقه وجلر يقول له « الآن أعيش أكثر سكينة وأختلط بالناس أكثر من ذى قبل . ولقد أبدع هذا التطور فى حياتى سحر فتاة عزيزة تحبنى وأحبها وهذه هى اللحظات السعيدة الأولى التى تذوقت منذ عامين » لكن هذا الحب زاده شعوراً بمرضه كما أن جوليتا كانت لعوباً شديدة الأنانية لا تعبأ بآلام بتهوفن . ولم تعِفّ فى سنه ١٨٠٢ ، أى بعد سنة واحدة من حبها ، عن أن تتزوج من الكونت جالنبرج . وكان حب بتهوفن إياها طاهراً مخلصاً ، فكانت خيانتها طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبه . على أنها لم تكتف بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يذعن باسم الطيبة ويقول « إنه عدوى ، وذلك هو السبب فى إسدائى إياه كل خير أستطيع إسداءه » .

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا إلى اليأس من الحياة وإلى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب إلى « هيليجنستات » إحدى ضاحيات فينا مستشفياً ، ومكث بها ستة أشهر لم يفد لسمعه خلالها شيئاً ، هنالك كتب وصيته التى نثبتها هنا ، وإن كان قد عاش بعدها خمسا وعشرين سنة ، لأنها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم إيمانه بفنه وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبه وحبه الناس ، وتدل على أن هذه العواطف كانت فى هياجة ثائرة كهذه الموسيقى القوية الثائرة التى نسمعها له فى كثير من ألحانه وحتى فى ألحانه الرقيقة اللحمة والسدا . قال :

« يا أيها الذين ينظرون إلىّ أو يحسبوننى حقوداً أو برماً بالناس أو متطيراً بالحياة ، لشد ما تظلموننى . إنكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يظهرنى بهذا المظهر . فقد كان عقلى وقلبى متجهين منذ طفولتى إلى عاطفة رقيقة هى الطيبة ،

وكنت دائما مستعداً لأقوم حتى بعظائم الأعمال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه الحال التى زادها الأطباء الأغرار سوءاً والتى ما أزال أخدع فى أمرها عاماً بعد عام آملا فى تحسنها ، ثم أضطر آخر الأمر لأحسبها حالا مزمنة يقتضى البرء منها ، إن كان فيه أمل ، سنين عدة ، وقد يكون هذا البرء محالا .

« لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الاجتماع ثم اضطررت وما أزال فى أول عمرى إلى عيش العزلة . وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة الأليمة القاسية غير مرة وجددت عندى الإحساس بمرضى . ثم إنى كنت مستطيعاً أن أقول للناس : أرفعوا الصوت وصيحوا فإنى أصم . وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندى أدنى إلى الكمال منها عند الآخرين . حاسة كانت فى الماضى بالغة من الكمال حداً لم يتح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه . كلا ! لا أستطيع ، فاعذرونى إذاً إن رأيتمونى أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفى صحبتكم وشقائى مضاعف له ألمى أن كان سبباً للحكم علىّ حكماً قاسياً . ولقد منعت من أن أجد الراحة والطمأنينة فى الاجتماع بالناس وفى المحادثات الظريفة وفى العطف المتبادل . فأنا وحيد منقطع . لا أستطيع أن أجازف بنفسى فى الجماعة ، ومالم تكرهنى على ذلك حاجة فيجب أن أعيش منفياً . فإذا اقتربت من جماعة ملك على الاضطراب مجموع حواسى من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بينة أمرى .

« ومن ثم أمضيت هذه الستة الأشهر فى الريف ، وقد طلب إلىّ طبيبى الفاضل أن يعنى بسمعى جهد الطاقة ، وبلغ من ذلك أكثر مما كنت أرجو . ولقد شعرت غير مرة بالميل للاجتماع بالناس وتركت نفسى تنال مناها ، ولكن ! أى مذلة أن أرى رجلا على مقربة منى يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئاً ، أو يسمع غناء الراعى ولا أسمع أنا شيئاً . ولقد قربت هذه التجارب بينى وبين اليأس حتى كدت أقضى

بيدى على حياتى . لكنه الفن – نعم هو الفن وحده الذى استبقانى – أواه ! لقد بدا لى أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم كل ما أحسست أنى مطالب بأدائه . وكذلك أطلت فى هذه الحياة البائسة ، والبائسة حقاً ، لجسد سريع التهيج حتى لينقله أقل تغيير من خير الحالات إلى أسوئها . . . صبراً – كذلك يقولون ! وهو الصبر الذى يجب أن أختاره الآن مرشداً . وقد اخترته . وإنى لأرجو أن تظل عزيمتى على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتى . وإن يصلح الحال أو يسوء فإنى لصابر . ألا ليس يسيراً أن يكره الإنسان ، وما يزال فى الثامنة والعشرين من العمر ، على أن يكون فيلسوفاً . وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأى رجل آخر.

« اللهم إنك لتستشف من سمائك حجب قلبى وتعرفه وتعلم أنه عامر بحب الناس والرغبة فى عمل الخير . وأنتم أيها الناس إذا قرأتم يوماً هذا الذى أكتب فاذكروا كم كنتم ظالمين إياى . وإن الشقى ليتعزى إذا رأى شقياً مثله قام برغم كل ما ألقت الطبيعة فى سبيله من عقبات بكل مافى جهده أن يقوم به ، كى يكون فى صف رجال الفن والصفوة المختارين »

هيلجنستات فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ — لدفج فان بتهوفن

« هيلجنستات فى ١٠ أكتوبر سنه ١٨٠٢ – والآن وداعاً ، وداعا أسيفا – إن الأمل العزيز الذى جئت به إلى هنا ، هذا الأمل فى أن أشفى ولو إلى حد يجب أن أيأس منه كل اليأس . وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوى ، كذلك هذا الأمل جف فى نفسى وذوى – كما جئت إلى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التى كثيراً ما استندت إليها أيام الصيف الجميلة – أواه أيها القدر ! – هب لى أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو – فما أطول الزمن الذى حبس عنى فيه رنين المسرة الصادقة

العميق – أواه متى يارب ؟ متى أستطيع أن أحس بها فى معبد الطبيعة والناس . . .
أبداً – كلا . فذلك يكون أبلغ القسوة » .

لم تنشر هذه الوصية إلا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام ، وعلى شديد إيمانه مع ذلك بالفن ، هذا الإيمان الذى جعله يستأخر الموت وإن كان فى الموت راحة من شقوته وأوصابه ، ويستأخره ليتم رسالته وإن عانى فى سبيل إتمامها من الآلام مالا قبل لغيره باحتماله . وكذلك ترى النوابغ حقًّا يستهينون فى سبيل إبراز مواهبهم بكل ما يحرص الناس عليه وبكل ما يجزعون منه ويفرون . فبينا كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفياً بترجيعها فى صدره بينه وبين نفسه ، وبإثباتها على القرطاس لتكون سبيلا إلى سلامه بعد موته ، كان أخواه يستغلان ألحانه استغلالا ماديًّا ما كان بتهوفن ليعنى به لولا حبه لأخويه حبًّا يتفق مع عظمة الفضيلة التى تفيض بها نفسه أناشيد وألحاناً قدسية سامية . وكثيرا ما خاطبه أصحابه فيما يجنى عليه أخواه من مساءات ، فكان جوابه وهو يبكى : « لكنهما أخواى » . وما لأخويه وبكائه ؟ إنه لها مزرعة تستغل ومورد رزق فياض . كتب أحد أخويه لناشر طلب بعض قطع أصلية من ألحان بتهوفن وأناشيده .

« ليس لدينا من ذلك الآن إلا لحن وعزيف كبير للبيانة وثمن كلٍّ ثلثمائة فلورين . أفتريد ثلاث سونات للبيانة ؟ نحن لا نستطيع أن نقبل فيها أقل من تسعمائة فلورين ، على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو سته ، لأن أخى أصبح لا يعنى الآن بأمثال هذه التفاهات ولدينا . . . » وذكر بقية « البضائع » . وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله إلا ما يقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التى يحتفظ هو بها للفن فليست فى ملكه ، لأنها هبة القدر للوجود كله فى حاضره ومستقبله . هى قيثارة قدسية بعثها يد العناية إلى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية فى

الخلق من نغمات . وإلى أن تتم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذباً شقيًّا ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته ، أو على الأقل يجب أن ينسيه إيمانه برسالته وانصرافه بكل وجوده لإبلاغها هذا الشقاء وهذا العذاب .

لكن المرأة هى البلسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه . وقد عبثت جوليتا ببتهوفن عبثاً قاسياً برغم ما كان من شديد تعلقه بها . فهل جفاه الحب بعدما جفته هذه اللعوب الأثرة المحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها لمجد العظمة الخالد ؟ كلا ! فما تزال لبتهوفن ساعات سعادة فى الحياة ينعم بها برغم همه ، وملاك هذه الساعات المخلص الطاهر هى تريز برنسويك .

وكان بتهوفن قد عرف تريز منذ أيامه الأولى فى فيينا إن كان يعلمها البيانة . لكنه لم يتعلق بها يومئذ ولم يسر إلى قلبه خاطر الحب منها وإن اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصداقة متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار بتهوفن صديقه القديم فى مارتنفاسار بالمجر . قالت تيريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بتهوفن فى ضوء القمر إلى البيانة ومر بيده على ملامسها . وكنت أعرف أنا وأخى ذلك منه . فكذلك كان يبدأ دائما . ولعب بعض تقاسيم على طبقات القرار . ثم انتقل من ذلك إلى لعب أغنية سباستيان باخ : إن شئت أن تهبنى قلبك فليكن ذلك أول الأمر فى خفية حتى لا يستطيع أحد أن يحس مسارح أفكارنا المشتركة . ولعب هذا اللحن فى وقار وهيبة ، وكانت أمى وكان القسيس قد ناما ، ونظر أخى إلى ما أمامه ذاهلا . أما أنا فأخذتنى نظرته وأخذنى غناؤه وأحسست بالحياة كاملة . وفى صباح الغد تقابلنا فى الحديقة فقال لى : أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها فى دخيلة نفسى وأراها أمامى حيثما ذهبت وأينما أقمت . وما أحسبنى سموت يوماً هذا السمو . فكل ما أمامى ضياء وطهر ونور . وفى شهر مايو أصبحت مخطوبته بإقرار أخى فرنسوا وحده » وظلت هذه الخطبة حتى سنة ١٨١٠ حين

انقصمت عروتها وإن لم تنقصم عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو فى سنة ١٨٢٧ وماتت هى وما تزال على عهده فى سنة ١٨٦١ .

وكان لهذا الحب فى نفس بتهوفن وفى حياته الموسيقية أثر أى أثر . فاللحن الرابع الذى كتب فى أول أعوام الخطبة زهرة تتضوع بشذا السكينة والخلود إلى صفو العيش مع الناس . وكذلك كانت الألحان التى كتبت فى هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترنماً بنعمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف بأغاريد بلابله وأطياره وأغنيات شبانه وعذاراه . ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعدى إلى حياته فجعله محبًّا للتأنق فى ملبسه ميالا للاختلاط بالناس والتحدث إليهم حاضر النكتة ظريفاً . وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه إلا ضعف بصره الحاد النظرة . ومن ذلك العهد السعيد فى حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطابا يبث فيه لتريز ما يبعثه الحب المضطرم فى النفس الثائرة من عواطف مضطربة متلاطمة . قال فيه :

« يا ملاكى وكلى ونفسى ، انظرى فى بدائع الطبيعة واطمئنى إلى ما هو محتوم . . فالحب يلح ، عدلا ، فى أن يكون له كل شىء ، ذلك شأنه معى فى أمرك ، وهو شأنه معك فى أمرى . إن قلبى لمفعم بما أريد أن أبثك إياه . أينما كنت فأنت معى . إنى لأبكى حين أذكر أنك لن تقفى على أول أخبارى قبل يوم الأحد على الغالب . إنى أحبك كما تحبيننى بل أقوى وأشد إلهى ! أية حياة هذه من غيرك . . فأنت قريبة بعيدة . وأفكارى تتدافع نحوك يا محبوبتى الخالدة ، وهى سعيدة طوراً حزينة تارة تسائل القدر هل هو سيرعانا . .

أنا لا أستطيع العيش إلا معك وإلا فلا عيش لى . ولن ينال غيرك قلبى أبداً . أبداً ! لم يجب يارب أن يبتعد متحابان كل عن صاحبه ، على أن حياتى إنما هى الآن حياة أحزان . ولقد جعلنى حبك فى نفس الوقت أسعد الناس وأشقاهم ، اطمئنى . اطمئنى . وأحبينى اليوم وبالأمس . ما أعظم تطلعى إليك وما أكثر

دموعى من أجلك أنت . أنت . أنت يا حياتى . يا كلى وداعاً – وأقيمى على حبى ولا تنسى أبداً قلب حبيبك بتهوفن – لك إلى الأبد – لى إلى الأبد – لنا إلى الأبد » .

وهذا الخطاب كوصيته وجد فى أوراقه بعد موته . ولعله كتبه فى آخر سنوات خطبة تريز له . ففيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء . وهذه العبارة التى يسائل فيها القدر هل هو سيرعاهما تنبىء عن بداية انحلال الخطبة . على أن قلبه وقلبها ظلا عامرين بهذا الحب إلى آخر حياتهما . فمن كلمات بتهوفن فى سنة ١٨١٦ : « يدق قلبى كلما ذكرتها بنفس القوة التى دق بها حين رأيتها لأول مرة » .

وفى هذه السنة عينها ، سنة ١٨١٦ ، وضع الأنغام الأربع البديعة : « إلى العزيزة المحبوبة النائية » وكتب فى مذكراته « يفيض قلبى لمشهد هذه الطبيعة البديعة وهى مع ذلك ليست هنا إلى جانبى » وكانت تريز قد أهدت إليه صورتها وكتبت عليها هذا الإهداء « إلى النابغة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب » . وقد دخل صديق على بتهوفن فى آخر سنة من سنى حياته فألفاه يقبل الصورة ويبكى ويناجى نفسه بصوت رفيع . « لقد كنت جميلة ، وكنت عظيمة ، وكنت كالملائكة الأطهار » . وبلغ من شدة تأثره لفراق تريز أن كتب يوماً إلى أحد أصدقائه « أيها المسكين بتهوفن – محدثاً عن نفسه – ليس لك فى هذا العالم حظ من السعادة ، إنما حظك منها فى رحاب المثل الأعلى ، فلك فيه أصدقاء » وكتب فى مذكراته « إسلاماً ! وإسلاماً تاماً لحظك . أنت لم تعد تستطيع أن تعيش لنفسك وإنما تعيش لغيرك ولم يبق لك من نعيم فى غير فنك . اللهم هبنى قوة الانتصار على نفسى » هذا ولم تفتأ تريز تذكر بتهوفن إلى آخر حياتها ، فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج ؟ ذلك مالم يقف عليه أحد . ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تريز الاجتماعية . ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسى السريع إلى التطير

والذى لا تهون الحياة البيتية معه .

على أنه كان قد وصل فى سنة ١٨١٠ إلى أوج قوته وجلس على عرش مجده . وكان يحس هذه القوة ولا يتواضع بسببها . . رأته بتينا برنتانو المغرمة بمعرفة عظماء الألمان فى سنة ١٨١٢ لأول مرة . ولم تكن فى حاجة إلى أكثر من مرآه وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت :

« ليس فى العالم ملك ولا إمبراطور له مثل هذا الشعور بقوته » ثم كتبت إلى جيتى تقول . « لما رأيته لأول مرة انمحى الوجود كله من أمامى ولقد أنسانى بتهوفن العالم وأنسانى إياك يا جيتى . وما أظننى مخطئة أن أؤكد أن هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة بمراحل » . وأراد جيتى أن يعرف بتهوفن فتقابلا فى حمامات بوهميا بتوبلتز فى ذلك العام نفسه لكنهما لم يتفاهما . فخلق بتهوفن العنيف الحر لا يتفق مع خلق جيتى الرقيق الوادع . ذكر بتهوفن نزهة لهما كان فيها قاسياً كل القسوة مع دوق فيمار . قال فى خطاب بعث به إلى بتينافون أرنم :

« يستطيع الملوك والأمراء أن يخلقوا الأساتذة والمستشارين وأن يغرقوهم فى الرتب والألقاب ، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا الرجال والأذهان التى تسمو على المجاميع . فإذا اجتمع رجلان مثلى أنا وجيتى وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا . ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا فى الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيتى نفسه من ذراعى ليقف على حافة الطريق . وعبثاً قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه . عند ذلك كبست قبعتى فى رأسى وزررت ردنجوتى وسرت وذراعى وراء ظهرى وسط الجموع الكثيفة . وأفسح الأمراء والحاشية لى طريقاً ورفع لى الدوق رودلف قبعته . وكانت الإمبراطورة أول من حيانى . فالعظماء يعرفوننى . أما جيتى فمر أمامه الجمع وهو فى مكانه على حافة الطريق منحن أشد الانحناء وقبعته فى يده . وقد لمته أشد اللوم بعد

ذلك لم أغتفر له قط تصرفه » .

ولم ينس جيتى له هذه المساءة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو فى آخر حياتهما . قال جيتى لزلتر : « بتهوفن شخصية لا سبيل مع الأسف إلى تألفها . وقد لا يكون مخطئا إذ يرى العالم كريها . لكن خلته فى الحياة ليست هى الوسيلة التى تجعل العالم حلوا له ولغيره . على أن من الواجب أن نعذره وأن نشفق عليه . فهو أصم » . على أن كراهية جيتى لم تمنعه من الإعجاب ببتهوفن ومن تقديسه وإن جاهد لإخفاء ذلك طاقته ! ذكر مندلسن أن جيتى سمع أحد ألحان بتهوفن فحاول إخفاء إعجابه قائلا : « هذا لا يمس القلب ولكنه يثير الدهشة » ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجماله ، فلم يتمالك أن قال : « هذا بديع وعظيم وفوق العقل . إنى لأحس كأن البيت سينطبق على » وبعد أن كان لا يريد أن يسمع اسم بتهوفن جعل يسأل عن أمره .

وكان الدوق رودلف الذى أشار إليه بتهوفن أحد التلاميذ القليلين ممن رضى هو أن يكون أستاذاً لهم . وبرغم إعفاء الدوق إياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكو مما بقى مضطراً له بداعى المجاملة من هذه التكاليف . ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الأمراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعظماء ، أمثال هايدن وموزار ، وإن بقى لديهم شىء من العطف على البائس بتهوفن ، وزادوا عليه عطفاً حين بدأ نجم نابليون يأفل . فإن بتهوفن لم ينس خيانة هذا الجمهورى الذى اتخذ الشعب سلماً للإمبراطورية . فلما انتصر الإنجليز عليه فى موقعة واترلو وضع بتهوفن لحناً لانتصار ولنجتون مجده فيه كما مجد حروب الاستقلال التى أقامتها أمم أوربا ضد فرنسا . وفى أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحناً حربيا عن « بعث ألمانيا » فلما انعقد مؤتمر فينا على أثر هزائم نابليون كان بتهوفن فى ذروة عظمته وقوته ، فشارك فى أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عناوين مجد أوربا ، ورأس فى ٢٩ نوفمبر

سنة ١٨١٤ الأركسترا التى لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن « ساعة المجد » فلما سقطت باريس فى سنة ١٨١٥ وضع نشيداً جعل عنوانه « انتهى كل شىء » وكذلك ظهرت قوته ومقدرته وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته . هذا الجبروت الذى أباح له بعد موقعة يينا إحدى مفاخر نابليون أن يقول : « من سوء الحظ أنى لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى . إذاً لهزمته » .

وكان حظ بتهوفن مذبذباً : فما تكاد آونة طمأنينته تطول به زمناً حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتها أضعاف حلاوة تلك الآونة . فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فينا بعد هذا المجد والسلطان لمجرد انتهاء أعياد النصر . وبلغ أن فكر فى هجرتها برغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبكرفتز والبرنس كنسكى منذ سنه ١٨٠٩ إذ رتبوا له معاشاً أربعة آلاف فلورين على أن يظل فى النمسا ليظل فخراً لها . وبرغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فإنه سر بهذا الاعتراف بمجده . فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل . لكن الصمم كان يزداد حتى كان تامًّا فى سنة ١٨١٦ . وبذلك أصبح بتهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحناً ولا نشيداً إلا فى دخيلة قلبه .

وكم لاقى بسبب ذلك من عناء وهمّ . فقد أراد أن يدير أوبرا فدليو فى سنة ١٨٢٢ . وكان جليًّا منذ الفصل الأول أنه عاجز عن هذه الإدارة كل العجز . فقد كانت عصاه بطيئة ، فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها . لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون . وحصل اضطراب اضطر معه مدير الجوق العامل إلى إيقاف التمثيل . ثم عاد بتهوفن إلى الإدارة وعاد التمثيل إلى الاضطراب . قال صديقه الدكتور شندلر « ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبتهوفن : تنح أيها البائس فأنت عاجز عن الإدارة : ووقف التمثيل للمرة الثانية فوقف بتهوفن ينظر فى كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب . ولما لم يفهم شيئاً

ناداني إليه ومد إلى كراسته لأكتب له : فكتبت : أرجوك ألا تستمر وسأفسر لك في البيت سبب ذلك . فما هو إلا أن قفز صائحاً بي : فلنعجل بالخروج . وجرى إلى بيته بكل ما مكنته قواه وهناك ارتمى على مقعد وسند بيديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة . وساعة الطعام ظل صامتا وعلى وجهه أثر الألم الفاجع والانحلال الأليم . فلما كان بعد العشاء وأردت أن أتركه رجاني أن أصحبه إلى طبيب كان معروفاً بأنه من خير أطباء الآذان . . . وفي كل ما تلا ذلك من صلاتي ببتهوفن لم أر يوماً اليوم القاسي من أيام نوفمبر . وقد بقي هذا المشهد الأليم طعنة في قلبه حتى فاجأته منيته » .

وفي سنة ١٨٢٤ كان حاضرا تمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئا ولم يعرف من أمر إجلال الناس لقطعته إلا بعد ما أمسكت مغنية بيده وأدارت وجهه إلى ناحية الجمهور ليرى الأيدي المصفقة والقبعات التي تهتز في الأيدي علامة الإعجاب والثناء .

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة وإعواز ، فهذا الذي كان يفرض أخوه أثمان ألحانه على الناشرين فرضاً وصل في أخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لأحد تلاميذه : « اكتب هذه (السونات) في ظروف شاقة . فمن المحزن أن يضطر الإنسان للكتابة كي يحصل على الخبز . وهذا هو حالي اليوم » . وكتب في مذكراته الخاصة : « لقد صرت حتى أكاد أتكفف الناس » . وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه إنه كان لا يستطيع الخروج من بيته في بعض الأحيان بسبب ثقوب حذائه .

وفي هذه الأيام الأخيرة كان لا يأنس إلى الناس ولا يعرف غير الطبيعة . فكان يرى هائماً في الغابات والأحراش . وليس له هم إلا تدوين الأنغام والألحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج . قالت تريزدي برنسويك :

«كانت الطبيعة صديقه الوحيد» وكانت كل مذكراته تفيض هياماً بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية والذى تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته. ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعانى الطبيعة فيضاً، حتى لكأنما بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوة من قواها أو أنه «ملك روحها» على حد تعبير صديقه شندلر. كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد ألحان بتهوفن فى نفسه: «مهما يتكرر سماع الإنسان لهذا اللحن فإنه مؤثر فينا بنفس القوة التى أثر بها من قبل. فهو كالظواهر الطبيعية التى تملؤنا دائما خوفاً ودهشة مهما تكرر حدوثها».

ولعل بتهوفن كان محباً للطبيعة، لأنه من روحها لا لأنه ملك هذا الروح، ولذلك كانت حياته، ككل ما فى الطبيعة، حياة نضال لا يعرف اليأس، وعمل لا يعرف الكلال، وتجدد لا يعرف الجمود. فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذى بلغ الإعواز، بمانع له من أن يتم فى عالم النغم رسالته. أو تدرى ما هذه الرسالة التى كان يجاهد فى سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان؟ كانت رسالته بعث المسرة على الأرض. فكأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من أجزائها والتى بالغ الصانع فى إتقانها، فما تزال مبعث أحلى الأنغام وأبدعها. ولقد كان بتهوفن يؤمن برسالته هذه كل الإيمان. ومنذ ظهرت بوادر نبوغه فى الموسيقى فكر فى تبليغها للناس عن طريق الألحان ففكر فيها وما يزال فى يونية سنه ١٧٩٣. وكانت نهاية أمله أن يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة. وكان ذلك دأبه وهو فى أشد حالات العذاب والألم. لكنه كان يتردد دائماً أن لم يكن شيء مما وضعه ليكفى مقنعاً لصورة المسرة عنده. وظل ذلك شأنه حتى السنوات الأخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع. حينئذ وفق لهذا النشيد الذى يرجوه. ولكن أى توفيق وأية عظمة!

قال أحد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذى يختم اللحن التاسع: «ساعة

تبدأ آية المسرة تبدو يقف الأوركسترا فجأة ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسياً رهيباً . وذلك حق . فهذا النشيد إله وحده . ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمأنينة الخلد فتسكن الآلام بريحها الناعم تجرى إلى القلب جريان البرء فى فؤاد المريض ، ثم تسمو بعد ذلك فى صور من المجد المهيب رويداً رويداً حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حرباً على الألم عواناً . ثم إذا الألحان تحرك فى النفس جنود السرور تحسها فوق هذه الصحف المرتعشة فكأنما ترى نبض بتهوفن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع ويضع لحنه وكأنما ملكته قوة الشياطين . وتعقب مسرة الحرب مسرة الروح مسرة بالإيمان ، ثم تجيش بالنفس مسرة مقدسة هى مسرة الحب . ثم ترى إنسانية مرتعشة تمد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعة إلى المسرة تضمها إلى قلبها » .

هذه القوة العجيبة التى تبدو فى أكثر ألحان بتهوفن والتى بدت فى لحن المسرة مضاعفة ، جعلت كثيرين يذهبون إلى أن ملكه فى الموسيقى يقف عند الضخم منها والأليم . قال هبوليت تين رداً على هذا وتحليلاالموسيقى بتهوفن عامة : « نعم إنه صاحب هذا الملك من أراض جرداء تهب فيها الأعاصير وتعصف فيها العواصف بأصواتها الصاخبة القوية وهذه المملكة لم يتح لغيره من الموسيقيين أن يدخلها . لكنه يعيش كذلك فى ملك آخر . فأفخر ما فى الريف الناضر وأكثره رواء وبهجة ، وأعذب مافى الوديان الظليلة وأكثره ابتساماً ، وأشد مافى ضياء الفجر أول مطلعه رقة وبكورة – هذا كله كذلك فى ملكه . لكنه لا ينال من ذلك كله ما يناله مطمئن النفس ، بل تهز المسرة كل وجوده كما يهزه الألم ! وشعوره باللذة بالغ غاية القوة ، فهو ليس سعيداً ، ولكنه فى بهر . فمثله مثل رجل قضى ليلة نابغية وخرج منها مضطرباً كليماً متوقعاً يوماً شراً منها ، فإذا به يرى فجأة مشهد صباح سعيد . إذ ذاك تضطرب يده ويتنفس الصعداء من أعماق صدره وتعود كل قواه الجسمية المنحلة

فتسترد سلطانها ، ويصبح فى نهله من النعيم أشد اندفاعاً مما كان حين استسلامه لليأس » .

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو النجاحه فيه ، هانت عليه أحزانه وآلامه وهان عليه فقره وإن ظل يعانى من بأسائه شر ما يعانيه إنسان . ولعل لهذا الفقر صلة بتلك الثروة التى كان أخواه يقتضيانها من الناشرين ، فقد مات أحدهما تاركاً من ورائه ولداً أحبه بيتهوفن بهذه القوة التى كان يندفع بها إلى كل شىء . وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عمه إياه ولا مداومته نصيحته . وكان هذا الفتى كثير الاستدانة ، فكان بيتهوفن فى فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر بتهوفن فى خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هذا ، فلما عاد فى أواخر نوفبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه . ولم يكن أحد من أصدقائه حاضراً ليعنى به . فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ، فنسى مدى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بتهوفن علاجاً سيئاً . وقد استطاع بقوة بنيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعاً ، لكنه ضعف بعدها ضعفاً أضاع الأمل فى شفائه ، ولولا كرم بعض الإنجليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه فى بؤس وشقوة ليس كمثلها بؤس ولا شقوة .

ثم جعل ينتظر فى صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ ، إذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت من الطبيعة أصوات موسيقاها المهوبة المخيفة . وعلى موج هذه الأصوات طارت روح بتهوفن إلى عالم الخلد ، وكان عمر بتهوفن يومئذ ستاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام فلما آن لجثمانه أن ينقل إلى مقره الأخير شيعه ثلاثين ألفاً ولبست فيينا عليه الحداد ، ودفن فى مقبرة وارنج ، وما يزال قبره إلى اليوم فيها وعليه هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بتهوفن .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى إلهاماً أسمى من الحكمة ومن الفلسفة ويتمثل

أفكاره فى عزف الآلات أكثر مما يتمثلها فى ألفاظ الناس . وكذلك قضى « باكوس يستصفى للإنسانية الرحيق العذب ويجلى عليها أقدس ما فى الروح من جلال » . قضى ونقل إلى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه الماثل فى ألحانه وأناشيده وعزفاته ما يزال باقياً ولن يزال . وهل الروح الخالد إلا العمل يترك به صاحبه فى العالم أثراً خالداً ؟ وهل أثر أخلد من موسيقى بتهوفن ! أو هل أكثر منها سحراً وقداسة ؟ !

واليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام إجلالا لألحانه القدسية السامية ، فيؤدى بعض دين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

(كتبت فى ٢٦ مارس سنه ١٩٢٧ لمناسبة مرور مائة عام على وفاة بتهوفن)

هبوليت أدولف تين



احتفلت فرنسا منذ أيام بمرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب الفرنسى الكبير هبوليت أدولف تين فقد ولد بفوزييه فى الحادى والعشرين من أبريل سنة ١٨٢٨ أى منذ مائة سنة مضت . وإذا لم يكن قد مضى على موته إلا خمس وثلاثين سنة – إذ مات بباريس فى الخامس من مارس سنة ١٨٩٣ – فإن الآثار التاريخية والأدبية والفلسفية التى خلفها تجعله حقيقاً منذ اليوم بأن يسجل فى ثبت الخالدين ، وتجعل حقاً له وواجباً على وطنه فرنسا أن يشيد بذكره بين من يشيد بذكرهم من عظماء تلك البلاد . بل إن هذه الآثار لتجعله حقيقاً منذ اليوم بأن يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم ، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح أمامه من أسباب البحث سبلا إن يكن غيره قد ترسمها من قبل فإن أحداً سواه لم يرسمها ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التى رسمها

وخططها بها تين . ويكفى ليقدر القارىء مدى هذا الأثر العميق الذى تركه تين فى تفكير العالم أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد ، أنه كان أكبر أثراً فى نشر الفلسفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها أوجست كومت نفسه . وإنه إلى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الأدب وفى الشعر وفى كل نشاط العقل الإنسانى والنفس الإنسانية بما جعل للعلم الوضعى وللفسلفة الوضعية من متانة الأركان ما لايزال حتى اليوم وطيداً قويًّا غاية القوة ، برغم موجات الروحية والتيوزوفية وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب ، ومما لا يستطيع أن يقاوم — حتى فى ميادين الفلسفة البحتة — تيار العلم الجارف الذى يدل الناس كل يوم على أن العلم إذا أخطأ فى تقرير نتائج معينة لأن الاستقراء أو الملاحظة أو التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج ، فالعلم وحده هو القدير على إصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما يترتب على هذه من تبويب ينتهى إلى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساساً لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة .

رجل هذا أثره فى التفكير الإنسانى لايمكن لوطنه إلا أن يعترف له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة ، ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله على التفكير الإنسانى وتوجيهه فلسفته فى فترة خاصة من حياة هذا التفكير.

على أن لتين إلى جانب هذا الفضل العلمى العظيم فضلا آخر لا يقل عنه ، بل يريد بعضهم أن يذهب إلى أنه يفوقه . ذلك هو فضله ككاتب . فهذا الرجل الذى حاول ونجح فى محاولته هدم الفلسفة الكلامية التى كان الأستاذ فكتور كوزن عميدها فى عصره ، والذى حاول ونجح فى أن يقر إلى جانب التفكير الواقعى postive المذهب الجبرى «determinisme» وأن يطلق هذا المذهب على الإنسان

ويخضعه له بمقدار ما تخضع له الأفلاك والموجودات كلها – هذا الرجل كان صاحب أسلوب فى الكتابة له من البهر ما يسحرك كما تسحرك قطعة من الموسيقى أو لحن من الغناء ، حتى ليدعوك إلى أن تعود إلى قراءة الصفحة مرات ، وحتى ليترك فى ذاكرتك صحفا معينة تود الوقت بعد الوقت أن تعود إلى قراءتها وترديدها بصوت عال لتسمع إلى ألحانها كما تسمع إلى ألحان أوركسترا بتهوفن . وإنى لأذكر الآن على ذكر اسم بتهوفن فصلا له فى كتابه (مذكرات عن باريس Notes Sur Paris) فصلا عنوانه (خلوه une tete à tete) وصف فيه إيقاع ألحان بتهوفن وصفاً ما أزال ولن أزال ألذ لقراءته ولترديده لذتى سماع ألحان هذا الموسيقى فى سمفونية الريف التى أحبها ولا أشبع من سماعها . وليس هذا الفصل الذى ذكرت إلا واحداً من كثير من الفصول ومن الكتب ومن المطولات التى كتبها تين والتى لا تفتأ ترد إلى الخاطر وتتردد فى خلايا الذاكرة كلما ذكر الإنسان النغم الحلو الساحر فى تعبير الكتّاب فى أية لغة من اللغات .

ولعل أروع ماكتبه تين فى هذه الناحية الأدبية هو ماكتبه فى الوصف والسياحة : فكتابه الذى ذكرت لك عن باريس ، وكتابه « مذكرات عن انجلترا » وكتابه عن جبال البرانس ، وكتابه عن رحلته فى إيطاليا ، هذه كلها كتب بلغت فيها براعة الوصف مبلغاً قل أن يجاريه فيه كاتب . ولقد ذكرت لك هذه القطعة عن موسيقى بتهوفن . وأنت تعلم أن الكاتب إذ يكتب مثل هذه القطعة إنما يعتمد على ذاكرته . وذاكرة السمع هى التى كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى . مع ذلك فلم تكن ذاكرة السمع أقوى ذاكرات تين . بل لقد ذكر لنا هو نفسه فى كتابه De l'Intelligence أن أقوى ذاكراته ذاكرة الألوان ، وأن المنظر الذى تقع عليه عينه تختزنه ذاكرته أكثر مما تختزن أية صورة تتصل بإحدى الحواس الأخرى . فإذا كان ما ذكرت لك عن سونات بيتهوفن هو بعض ما وعت ذاكرة السمع عند تين ،

فلك أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعته ذاكرة المرئيات وألوانها عنده ، وكيف استطاع بأسلوبه المتموج الزاهى الشديد الحركة والحياة أن يثبت الألوان المختلفة التى اختزنتها ذاكرته فى سياحاته الكثيرة .

وليس فضل تين مقصوراً على فلسفته وعلى أدبه ، فهو إلى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين ، أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخى فرنسا . لأنه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده . وإذا كان كتابه « أصول فرنسا الحديثة » الواقع فى اثنى عشر جزءاً هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسى ، وكان يتناول عصر ما قبل الثورة كما يتناول عصر الثورة والعصور التى بعدها ، فإنه قد تناول إلى جانب هذا التاريخ بحوثاً أخرى فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث ، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخاصة التى سنعرض فيما بعد لها . وتناولها بدقة فى البحث وبدقة فى العبارة وقوة فى الأسلوب جعلت له كل هذه المكانة التى كانت له فى عصره ، وكل هذا المجد الذى يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته . ويكفى أن يطلع الإنسان على كتابه « تاريخ الآداب الإنجليزية » ليقدر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلين من الإنجليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث آداب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق . فأما مباحثه التاريخية الأخرى . ومباحثه التى مزج فيها التاريخ بالأدب فتزيدك بهراً ودهشة . اقرأ « تيت ليف » وعصره من عصور التاريخ الرومانى . اقرأ « لافونتين وأقاصيصه » . اقرأ كتبه الثلاثة « رسائل فى النقد وفى التاريخ » ثم سائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط بكل هذه الأشياء خبراً ، وكيف كان يصنع ليمحصها كل هذا التمحيص ، كان يصنع ليكتب ، وكيف كان يصنع ليؤدى كل هذه الأعمال ، وليؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة وبهذه القوة .

ورسائله فى النقد والتاريخ قد جعلت منه نقادة معترفاً بفضله وبسلطانه ، وقد

أقامت له مذهباً فى النقد يتسق مع مذهبه فى الأدب وفى التاريخ وفى الفلسفة وفى كل ما تناول من مباحث . وعندى أن مذهبه فى النقد أقرب إلى الدقة من كل مذهب سواه . فهو أشد المذاهب إمعاناً فى « الموضوعية » . هو إذا عرض لكتاب أو لمؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصى للكتاب أو لصاحبه ، ولكن بعد تحليل كل ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف . وبعد مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به ممن عاصره ورمى إلى مثل غرضه . ولست أدرى إذ أقول إن مذهبه أقرب إلى الدقة من كل مذهب سواه : أ أنا متأثر بتقدير ذاتى أم بذكريات خاصة . فلقد قرأت كتبه فى النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وتركت فى نفسى من الأثر ما لم تتركه كتب أناتل فرانس « الحياة الأدبية » وما لم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيف نفسه . ولست أشك فى أن كثيرين قد يتذوقون نقد جول لمتر أو فاجيه أو بورجيه أو بول سوداى أكثر من تذوقهم نقدتين . وربما كان حكمى أنا أيضاً يتغير لو أن الظروف التى أحاطت بقراءتى تغيرت . لكنى ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكر فى نقده ، ولو لنفسى ومن غير أى فكرة فى الكتابة عنه ، على الطريقة التى أحبتها نفسى منذ قراءة كتب تين .

لتين إلى جانب هذه الميادين الكثيرة ميدان آخر لم يقتصر على التأليف فيه ، بل كان فيه ، كما كان فى بعض الميادين الأخرى ، مدرسا أيضا ، ذلك ميدان الفن الجميل . ولقد كان تين موسيقياً ، فلا عجب إذا هو تحدث أو كتب عن الفن الجميل . لكنك إذ تقرأ كتابه « فلسفة الفن » تراه يحلل الفن وصوره وتماثيله بالطريقة عينها التى يحلل بها المسائل النفسية والمسائل المادية ويخضع الصور والأنغام لقواعد الجبرية التى يخضع لها كل ما فى الوجود من سماوات وأفلاك وكائنات . أليست الفنون بعض ثمرات الإنسان ، « والإنسان ثمرة وسطه » على ما يقرر تين غير مرة وفى غير موضع ؟ والوسط الذى يعيش فيه الإنسان ليس خاضعاً له ولكنه

خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له بها ولا سلطان له عليها . إذن فالفن ثمرة محتومة لهذه العوامل ، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل ، كما يمكنك ببسطها أن تفسر وأن تفهم أى عمل من أعمال الإنسان .

ولكن ليس معنى أن « المرء ثمرة وسطه — أو بيئته إن شئت » أن الناس يتساوون فيما بينهم كما يتساوى ثمر الشجرة الواحدة بل إن ثمر الشجرة الواحدة لا يتساوى ، فمنه الكبير والصغير ومنه الصالح والفاسد . والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاسد . وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين ثمر الشجرة بأن تشقه وأن تصل إلى دخيلته . فكيف تستطيع أن تصل إلى دخيلة الرجل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المتشابهون من ثمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واختلافها ؟ الأمر هين يدلك عليه تين فى مختلف من مواضع كتبه ، ويدلك عليه بنوع خاص فى كتابه عن « الذكاء » ويفرد له مقدمة الطبعة الأخيرة من تاريخ الأدب الأنجليزى التى طبعت سنة ١٨٩١ .

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله ، وكل مطامعه ومشاعره هى المسالك إلى دخيلة نفسه . فإذا أنت أردت على هذه الطريقة نفسها أن تعرف تين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله . وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذا البحث فى هذه العجالة القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم . لكنا مع ذلك نكتفى بالقليل الذى أتاحت لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذى لا سبيل إلى معرفته غير الانقطاع لدراسة تين وحياته وكل كتبه دراسة ذاتية لا تتسنى إلا لأستاذ فى الفلسفة أو فى الأدب الفرنسى . ولعلنا فى هذا الاكتفاء بالقليل الذى نعرف لانغمط تين حقه . ثم لعلنا لا نعدو بعض مباحثه التاريخية فى النقد فأمامنا بعض الشيء عن حياته ، وأمامنا مؤلفاته الكثيرة ، وهى صورة نفسه وخلاصة حياته ، وأمامنا إلى جانب هذا أسلوبه ، والأسلوب — على ما قال تين — هو الإنسان .

* * *

ولد هبوليت تين إذاً بفوزييه بمقاطعة الأردن فى فرنسا فى ٢١ أبريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال . وكان لابيه جان باتيسيت تين اتصال بالقضاء . لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه تعاليمه إلى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . وإذ ذاك مرض أبوه فأرسل به فى سنة ١٨٣٩ إلى مدرسة دينية فى (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهراً توفى أبوه خلالها تاركا ثروة بسيطة لأرملته وابنه وابنتيه ، وبعد وفاة أبيه سافر إلى باريس فالتحق بمعهد ماتبه . وكـان تلاميذ هـذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون College Borbon ، وفيها ظهرت بوادر كفاياته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم أثر أبلغ الأثر فى مستقبل أيامه من أمثال برفوبارادول ، وبلانا ، وكرنوليس ، وفث وغيرهم .

ولقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة وبإكباب عليه لا يقل إثارة للدهشة . فلقد كان يكتفى لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعباً بعد العشاء وبساعة يلعب فى أثناءها الموسيقى بعد الغذاء ، أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لا يصرفه عن العمل صارف . وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعاً نفوذاً معترفاً به منهم اعترافهم بفضله وبمقدرته فى الكتابة نظماً ونثراً فى اللغتين الفرنسية واللاتينية .

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل إلى مدرسة المعلمين L'Ecole Normale. وفيها ازداد إكبابه على الدرس فقرأ أفلاطون وأرسطو وآباء الكنيسة كما استمر يدرس الإنجليزية التى أتقنها ليدرس آداب اللغة الإنجليزية . وإذا كان تين قد ظهر تفوقه فى أثناء دراساته الثانوية وفى أثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت الجوائز الأولى كلها من نصيبه ، فإن الروح العلمية المنطقية التى امتاز بها بعد ذلك والتى وضع على قواعدها مذهبه فى البحث ، قد تبينت فى أثناء وجوده فى مدرسة المعلمين بنوع

خاص . فقد لاحظ عليه أساتذته جميعاً مبالغته فى دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلكاً رياضياً والوصول به دائما إلى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون فى مسائل الحساب والهندسة والجبر ، أثبت أستاذه فاشرو فى مذكراته عن تين ، وما يزال تين طالباً بمدرسة المعلمين ما يأتى « أكثر تلميذ عرفت فى المدرسة جداً ورقى نفس . علم مدهش بالنسبة لسنه . تحمس وشره للعرفان لم أر له مثالا . ذهن يلفت النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة وقوة التفكير ، لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة . مولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيراً ما يضحى بالحقيقة من أجلها ، ومع ذلك لا يظن أنه يضحى بالحقيقة لأنه كان مخلصاً لها أشد إخلاص وسيكون تين أستاذاً ممتازاً لكنه سيكون أكثر من ذلك وفوق ذلك عالماً من الطراز الأول إذا اتاحت له صحته الاشتغال بالعلم زمناً طويلا . ومع ماله من دماثة فى الخلق عظيمة ومن طباع غاية فى الطيبة ، فلذهنه قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير. وهو على كل حال ليس من أهل هذا العالم . فسيكون شعاره شعار سبنوزا (يعيش ليفكر) أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة لا يستهويه معها إغراء » .

على أن هذا التفوق الذى كان للطالب تين لم يكن ليعترف الناس به من غير أن يجنى على صاحبه جنايته . ومتى كان تفوق رجل من الناس تفوقاً عقلياً ألا يجنى عليه فى نظر السلطان والذين يمسكون بيدهم مصير الجماعات ؟ ! صحيح أن هذا التفوق يقدر عند المخلصين والذين لا مصلحة لهم فى سؤدد آراء ومبادىء معينة ، وهذا التقدير هو الذى يكفل انتصار الحق ولو بعد حين . لكن تين ، الذى كان يقضى كل وقته قراءة وبحثاً ، والذى أوتى هبة النقد والتمحيص منذ شبابه ، والذى لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقده الحق ، تين هذا ، وهو طالب ، لم يكن ليقر كثيراً من المبادئ الفلسفية التى كانت تدرس يومئذ وغايتها إما تأييد ناحية دينية تجعل

التفكير خاضعاً للمبادئ المسيحية التى تريد للكنيسة أن تسود ، أو تأييد ناحية علمية خاصة هى ناحية المنطق المطلق ، أو المنطق المجرد ، مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر ، وقد خرج تين ، وما زال طالباً ، على هاتين الطريقتين من طرائق التفكير ورأى فيهما وسائل غير صالحة للكشف عما فى العالم من حقيقة . ووضع تين ، وما يزال طالباً ، قواعد تفكيره هو ، هذه القواعد التى سار عليها فى مستقبل أيامه ، مجاهداً لإكمالها ما استطاع . ولكن من غير أن يرى فى كل دراساته وبحوثه ما يطعن عليها أو ينقضها . وإذا فهو ثائر على التعاليم المقررة . وإذاً فيجب ألا ينجح فى إجازة الفلسفة التى تقدم لها مع زميليه أوبيه وسوكو فى سنة ١٨٥١ . وليكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره من الذين تقدموا للإجازة نفسها فرسبوا وهم دونه تفوقا وفضلا .

ولم يغير عدم نجاحه فى إجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه . واستمر فى عمله وبحوثه وإن اشتغل بالتدريس فى المدارس المختلفة أن عينه وزير المعارف مدرساً بمدرسة (نفير) فى مفتتح عام ١٨٥١ الدراسى . لكنه لم يبق فى هذه المدرسة إلا شهوراً نقل بعدها إلى مدرسة دونها فى الدرجة . ذلك أن اضطراباً سياسياً وقع فى فرنسا واتهم المعلمون بأنهم سببه وطلب إليهم أن يعتذروا وأن يشكروا رئيس الجمهورية على التعديلات التى أدخلها على نظام الحكم ، فكان تين هو الوحيد الذى رفض الاعتذار والشكر. وعلى ذلك أنذر ونقل إلى بواتييه ومنها نقل مساعد مدرس إلى بزانسون سبتمبر سنة ١٨٥٢ .

ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضا السلطات عنه فإن نشاط تين لم يفتر ودراساته وتحصيله لم يهنا وإيمانه بمذهبه فى البحث لم يضطرب . فقد وضع رسالة عن المشاعر Les Sansations أو رسالة لاتينيه تقدم بها إلى السوربون لنيل إجازة الفلسفة . ولما كانت هذه الإجازة قد ألغيت فقد أراد أن ينال بهما إجازة الآداب

Agregation- es- lettres لكن طريقته فى التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته . فوضع رسالة أخرى عن لافونتين هى التى نال بها دكتوراه الآداب فى ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣ .

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الأكاديمية الفرنسية موضوعا لجائزة تمنح فى سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن تيت ليف الكاتب والمؤرخ الرومانى الكبير ، فتقدم لهاتين وكتب فيها رسالة كانت هى الأولى بين كل الرسائل التى قدمت .

بعد هذه المجهودات المضنية ست سموات تباعا شعر تين بالحاجة حاجة ماسة مطلقة إلى الراحة ونصح له بأن يذهب إلى جبال البرانس ، وطلب إليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلا عنها فوضع كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الطبيعة الجميلة العجيبة وعادات أهلها وقصصهم وصفاً دقيقاً ، ناقداً ما رأى موضعاً لنقده مازجاً ذلك كله بفلسفته ، متبعاً حتى فى هذا الكتاب طريقته الجديدة التى جنت عليه من قبل .

ما هى هذه الطريقة الجديدة ؟ وكيف يمكن أن تجنى على كاتب فى عصر كالعصر الذى عاش فيه تين والذى تقررت فيه حرية الرأى والنشر على أنها مكفولة مقدسة ؟

أما طريقة تين فى رسائله التى تقدم بها للامتحانات وفى كتاب تيت ليف وفى غير ذلك من الكتب التى ظهرت والتى ستظهر حتى آخر أيام حياته ، فتقوم على فكرة أساسية هى تطبيق الطريقة الواقعية – أو الوضعية – التى قررها أوجست كومت على الأحياء بنفس الدقة التى تطبق بها على غير الأحياء . وتطبيقها على الإنسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التى تطبق بها على الأحياء الأخرى غير الإنسان وعلى غير الأحياء . فكما أن طريقة البحث العلمى فى شأن غير الأحياء هى الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة ، فيجب اتباع هذه

الطريقة بعينها فى شأن الحيوان والإنسان على السواء ، وأنت لكى تدرس غير الأحياء فأنت تحلل الشىء ، وأنت ترجعه إلى نظائره وأشباهه ، وأنت تلاحظ تأثره بالبيئة المحيطة به وتأثيره فيها ثم تستنبط القوانين الخاصة به بعد إذ تنظم ملاحظاتك وتجاريبك وتبوبها وترتبها . ثم أنت تعمد لتقف على حياة الحيوان إلى تأثره عن طريق حواسه بالأشياء المحيطة به ، كما أنك إذا أردت أن تعرف تاريخه عمدت إلى ما قد يكون باقياً فى الأحجار من آثاره ، هذا فضلا عن التجائك فى تجاريبك عليه إلى كل الوسائل المختلفة التى يلجأ إليها الكيمائيون والأطباء وغيرهم فى معاملهم ، ذلك كذلك يجب أن يكون شأنك مع الإنسان . يجب ألا ترى فيه عالماً مستقلا وسط هذا العالم الذى تعيش فيه . إنما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه تجرى عليه السنن التى تجرى على غيره من الخلائق . فإذا أردت أن تبحث فى أى شأن من الشؤون يتعلق به وجب عليك أن تلجأ إلى الطرائق العلمية التى تلجأ إليها فى الظروف الأخرى وأن ترى فى أعماله ومشاعره وإحساسه وتصوراته وسائل الوصول إلى دخيلة نفسه . هذه دون سواها هى الطريقة الأكيدة التى تصل بك إلى شىء يقرب من الحقيقة . وهذه يجب أن تكون أساس البسيكولوجيا وأساس التاريخ وأساس الاجتماع وأساس العلوم المتصلة بالإنسان جميعاً . فأما الطريقة التى تقيم هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التى تجعل من استجمام الشخص فى طوايا نفسه وسيلة رسمه للعالم ما يستلهمه من صورته ، فليست من الطرائق العلمية فى شىء ولا يمكن الاعتماد عليها إذا نحن أردنا أن نقيم علماً إنسانياً أو فلسفة إنسانيةً على قواعد علمية صحيحة .

هذه هى الطريقة الجديدة التى امتاز بها تين والتى جنت عليه فى كثير . وهى قد أصبحت اليوم قديمة وقد أصبح يرد عليها نقد كثير أساسه ما فيها من تطرف وغلو . ولكنها كانت جديدة يوم نادى بها تين . وكانت عماداً قوياً للمذهب المادى . فهى

لاتقر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمدلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هى ترى كل ما فى الجسم بعض مادته كما أن ما فى أى موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود . وإذا كانت هذه المادة ذات إرادة وذات خلق وذات تصور وتفكير . فإن هذه المظاهر ليست إلا صور القوة الكمينة فى المادة ، أو إن شئت التعبير الدقيق ، فهى بعض صور المادة متحولة إلى قوة لأن المادة والقوة شىء واحد بدليل تحول كل منهما إلى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد . وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمادة تخضعان لقوانين ثابتة لن تجد لها تبديلا ، فمن الخلط الذى لا يبرره مبرر أن تختلف طريقة البحث فى الإنسان عنها فى غير الإنسان ، ومن الخطأ المبنى على العقائد الرائجة انتهاج سبيل فى بحث شئون النفس غير السبيل العلمية المقررة فى سائر الشئون .

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين . لكنه نادى بها منذ كتبه الأولى على صورة واضحة وبأسلوب قوى لفتا الأنظار له ، وبخاصة أنظار مفكرى ذلك العصر ومن كانت بيدهم مقاليد الجماعة فى التفكير وفى الحكم . وإذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفكر فى حرية مكفولة ولا فى حرية مقدسة . إنهم ، إن كانوا مخلصين حقاً ، يعتبرون أنفسهم حماة الجمعية ونظامها ، ويرون فى محاربة الأفكار التى تخالف أفكارهم محافظة على هذا النظام . وكثيرون منهم يشعرون ، وإن لم يقولوا ، بأن المحافظة على نظام الجماعة جديرة بأن تهدر من أجلها كل حرية ، لأن الحرية لا توجد إلا حيث يوجد النظام .

ونشر كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا وأخلاق أهلها وطبق فى وصفه وفى تحليله نظرياته التى أشرنا إليها . على أنه لم يكتف من سياحته بالرياضة وبوضع هذا الكتاب ، بل هو ظل يستمع لقارىء استصحبه فى جولاته وظل يفكر فيما يسمع ويعلق عليه . أليس شعاره أنه يعيش

ليفكر فإذا هو كان فى رياضة قضت بها صحته ، أو هو كان فى مكتبه ، فليس أمامه ما يمنعه عن التفكير كما أنه ليس أمامه ما يمنعه عن التنفس . ولقد كان فكره بحاجة إلى العمل حاجة رئتية إلى الهواء ، حتى لقد يخيل إلى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر إذا هو انقطع عن التفكير العلمى الجدى يوماً من الأيام .

ولقد أفاد من سياحاته فى البرانس لصحته ، وأفاد من قراءته وتفكيره وأفاد شيئاً جديداً لم يكن له من قبل به عهد . ذلك اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصالا محدوداً فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبته وغير البيانو يوقع عليه الألحان التى يحبها والتى يجد فيها سلوة عن كل تعبه . وكان من أثر ذلك عليه أن جعله – على ما قال فاشرو – يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة ، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيراً ما يضحى بالحقيقة من أجلها . أليس ما فى الكتب منطق مجرد ! أو ليست كتب ذلك العصر ، حتى كتب الفلاسفة الواقعيين ، قليلة التحليل للوقائع الصغيرة ! فلتين عذره إذا هو سارع إلى تقرير النتائج ووضع التعاريف والقواعد مادام يسير على الطريقة التى رسمها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة ، وما دام لم يتصل بالعالم الخارجى اتصالا يجعله أكثر ميلا لتحليل الحوادث الصغرى واستقرائها وترتيب النتائج عليها . فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئاً من التؤدة فى منطقه الرياضى السريع وجعلته أكثر عناية باستيعاب أكثر ما يستطيع استيعابه من الوقائع الصالحة لإقامة ما يريد أن يقيمه عليها من نظريات وقواعد .

وعاد من البرانس فعاش مع أمه فى جزيرة (سان لوى) ثم اختلط من جديد بأصدقائه بلانا وبريفو برادول وأبو وتعرّف إلى رينان ، ومن طريقه عرف سانت بيف وجدد علاقاته مع مسيو هافيه الذى كان أستاذاً بمدرسة المعلمين مدى ثلاثة أشهر . وكما عاد إلى أصدقائه عاد إلى جده وإنتاجه حتى لتعتبر السنتان ١٨٥٥

و١٨٥٦ من أكثر سنى حياته نشاطاً وأغناها إنتاجاً . فلقد نشر عشرات المقالات فى مجلة (L'Instruction Pubique) كما نشر مقالاً فى مجلة « العالمين » . وفى سنة ١٨٥٧ بدأ يكاتب جريدة « الديبا » واستمر بعد ذلك على مكاتبتها طويلاً .

والذى يقرأ كتبه الثلاثة « رسائل فى النقد وفى التاريخ » وكتابه « الفلاسفة الإنشائيون فى القرن التاسع عشر » يرى اتجاه مجهوده العقلى فى تلك السنوات الخصبة من حياته ، ويرى مبلغ هذا المجهود الضخم الذى تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب إنجلترا ومفكريها . وتناول ذلك فى دقة وإحاطة قل نظيرهما . وماذا تريد أن تكون الدقة والإحاطة أكثر من أن يعرض تين أمام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه وأن يحلل ذلك وأن يرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكاتب فيهما وأن يدلك على ما يراه النقاد غيره وما يراه هو فى الكاتب وفكرته من قوة وضعف وكمال ونقص ودقة فى بلوغ الغاية التى قصد إليها الكاتب أو اضطراب فى نهج السبيل إلى تلك الغاية . وهذه هى طريقته التى سار عليها منذ تلك الأيام فى النقد . وهى الطريقة العلمية الصريحة التى لا تعرف المواربة ولا المداجاة ، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد ، والتى تقفك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين .

وقد طبع تين مباحثه عن الفلاسفة الإنشائيين ونشرها فى أوائل سنة ١٨٥٧ ، أى فى التاسعة والعشرين من عمره . ومع أنه إلى ما قبل ذلك التاريخ قد لقى من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عنتاً ، فإن رسائله المختلفة التى نشرت لم تثر من النقد إلا ما كتبه أصدقاؤه عن سياحة البرانس وما كتبه الأستاذ الكبير جيزو عن تيت ليف . لكنه ما لبث أن نشر « الفلاسفة الإنشائيين فى القرن التاسع عشر » حتى تكلم عنه كثير من كبار نقاد عصره أمثال سانت بيف وشرر وبلانش وغيرهم مما زاد

فى ذيوع رفعته ككاتب وكمفكر وكفيلسوف مجدد فى الطريقة وفى الأسلوب .

ولم يكن عجباً أن ينال هذا الكتاب من كتب تين تلك المكانة . فهو قد قصد به إلى هدم الفلسفة الكلامية التى كان يدرسها ويقررها فى ذلك الوقت لارمجييه ومين دبيران والمسيو فكتور كوزان . وكان فكتور كوزان صاحب مقام كبير فى ذلك الظرف ، وكان القائم بتدريس الفلسفة فى كلية فرنسا ، وكان درسه مقصد المئات من المستمعين . لذلك كانت حملة تين عليه أشد من حملته على صاحبيه . فكان يقول عنه إنه بحاثة غير فيلسوف . وكان يرى فى هذه الفلسفة الكلامية أو الإنشائية شذوذاً معيباً على قواعد العلم التى تقررت منذ أوائل ذلك القرن ، وعودة إلى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة ديكارت التى تبدأ بالشك ، والنظريات الألمانية التجريدية الصرفة . وهو قد سلك فى هدمه لتلك النظريات مسلكاً جمع بين المنطق الدقيق الذى امتاز به وبين التهكم بتلك الطرائق العتيقة البالية من طرق البحث عن الحقيقة تهكماً ظهرت فيه مقدرة تين ككاتب إلى جانب تفوقه كمفكر وكفيلسوف . ثم هو قد أيد ما قررته مباحث عصره الحديثة مما جاء به أوجست كومت وداروين وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعى وأسس نظريات التطور . ثم هو قد أضاف إلى ذلك نظريته الخاصة بتطبيق هذه القواعد تطبيقاً لا هوادة فيه على الإنسان كتطبيقه على غير الإنسان وعلى الجماد . وإذا كانت هذه النظرية قد لقيت فى بادئ الأمر شيئاً من معارضة الهيئات الجامعية ، فإن المباحث العالية التى نشرها تين مشبعة بها والمقام الذى كان يرتفع إليه يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ، جعل نجاح كتابه عن الفلاسفة الإنشائيين نجاحاً حاسماً ودعا الكثيرين إلى أن يعيدوا النظر فيما يقرره هؤلاء الفلاسفة من قواعد ، وجعل ما وجهه كارو وغيره إلى تين وإلى رينان من نقد أساسه رميهم بالإلحاد ، لا يلقى من المفكرين والعقلاء وذوى الرأى أى التفات له بأكثر من الإشفاق على كاتبيه والرثاء لحالهم .

وكما جمع مقالاته عن الفلاسفة فى كتابه هذا فقد جمع رسائله فى النقد وأظهر الجزء الأول من (رسائل فى النقد وفى التاريخ) سنة ١٨٥٨ ، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية فى الأدب الإنجليزى شغف بها منذ أيامه الأولى وشغل بها منذ مطالعاته بعد ترك مدرسة المعلمين . ولقد نشر الأجزاء الأولى حتى بيرون فى سنة ١٨٦١ واستمر يكمل هذا الكتاب الذى يعتبر ككتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أُمًّا من أمهات كتب تين وأثراً باقياً من آثار تفكيره . وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملاً فى سنة ١٨٦٣ ووضع له المقدمة التى أشرنا من قبل إليها والتى حلل فيها صلة الإنسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذى يولد فيه تحليلاً انتهى منه إلى أن المرء ثمرة هذه العوامل الثلاثة ، وإنك إذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للإنسانية من القوانين الثابتة مالا سبيل إلى تبديله إلا أن يكون لتبديل سنن الكون العامة سبيل .

والحقيقة أن هذا الكتاب الذى وضعه تين عن آداب اللغة الإنجليزية قد أضاف إلى مجده كفيلسوف وكمؤرخ مجده ككاتب . ولئن كانت رسالته عن «سياحة فى جبال البرانس» قد دلت من ذلك على شىء كثير ، فإن وصفه للعصور المختلفة التى مرت بها إنجلترا وأثرت فى أدبها قد دل على خصب فى الخيال لا يقل عما كان لتين من دقة فى المنطق . وأنت تقرأ صحف هذا الكتاب المتتالية فتنتقل من تحليل نفسانى دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور ، إلى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعرى لحياة ذلك الكاتب أو الشاعر ولحياة جماعة أهل ذلك العصر . وهذا التداول بين دقة المنطق وخصب الخيال هو الذى طوع لكثيرين من نقادتين أن يقولوا عنه إنه منطيق شاعر أو خيالى فيلسوف . وربما وجدت لهذا النقد فى بعض كتب تين مسوغاً . لكنك تقع دائما على ما يدلك على

أن تين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول وكان يحرص على ألا يجنى أحد جانبى نفسه على الجانب الآخر . فما يقع تحت قلمه عبارات تتردد آناً بعد آن يذكر فيها أنه جاوز الحد مضطراً فى استعمال المجاز وفى الالتجاء إلى الخيال ويعود بعدها إلى منطقه المحكم وتحليله الدقيق ، فيشرح البيئة الطبيعية والعصر ومميزاته والجنس وخصائصه ويطبق ما يستنتج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحللهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هذا الأدب الإنجليزى الذى استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب تين .

وكان تين قد رشح نفسه سنة ١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب فى مدرسة الهندسة . لكن مسيو دى لمونى انتخب بدلاً منه . على أن وزير الحربية عينه فى مارس من السنة التالية ممتحناً فى التاريخ واللغة الألمانية بمدرسة سان سير الحربية . وفى سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة ، فكان تعاقبه فى وظائف الدولة سبباً لإثارة الخوف فى نفس رجال الدين مما دفع المونسنيير لوبانلو ليكتب منشوراً يوجه به إلى الشبيبة وإلى الآباء يطعن فيه طعناً جارحاً على تين ورينان وليترى ويشهّر فيه بنزعاتهم الإلحادية مما كاد يودى بمركز تين لولا تدخل البرنسيس ماتيلدا لحمايته .

وفى سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه إلى الأكاديمية ليحصل على جائزة بوردان ، فانبرى له مونسنيير دوبانلو من جديد واشترك معه وآخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة ، على أن مسيو جيزو دافع عنه بكل إخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأى بعدها على أن الجائزة لا تمنح لأحد ما دامت لا تمنح لتين . ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالأكاديمية وتعضيدها أو عدم تعضيدها له .

على أن هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجنى على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونير فى سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة E.C.L. من جامعة أكسفورد بعد محاضرات ألقاها بها عن راسين وكورنى فى سنة ١٨٧١ .

ومنذ عين تين أستاذاً لتاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر إلى بلاد مختلفة وبخاصة فى إيطاليا مهد الفن ومنبت أجمل ما أبدع المثالون والمصورون من آثار .

على الطريقة التى كتب بها تاريخ آداب اللغة الإنجليزية كتب فى سنة ١٨٦٥ كتابه فلسفة الفن وفى سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الأعلى فى الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكى والفن اليونانى ضمت كلها بعد ذلك إلى كتاب فلسفة الفن .

كتب هذا الكتاب على طريقته فى كتاب آداب اللغة الإنجليزية . فإلى جانب وصفه الممتع للآثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التى تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الإنسانية ، وكما تخضع الإنسان نفسه ، إلى الطريقة العلمية فى البحث ، طريقة التحليل والمقارنة والاستنباط وإرجاع كل أثر من هذه الآثار إلى البيئة والجنس والعصر التى نشأ فيها صاحب الأثر . وهذا فى نظره هو السبب الأساسى لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها . فالفن الإيطالى غير الفن الفرنسى وغير الفن الفلمنكى وغير الفن الإنجليزى لأن البيئة الإيطالية تختلف عن كل واحدة من هذه البيئات الأخرى وإن أمكن أن يوجد شىء من الشبه بين منتجات هذه المدارس المختلفة إذا هى كانت معاصرة بعضها لبعض لما فى هذه المعاصرة نفسها من داع لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة فى التفكير والتصور والنظر بين الفنون المختلفة ، وذلك هو سبب الاختلاف بين المذاهب المختلفة فى الأمة الواحدة

إذا هى اختلفت عصورها وإن كان فى اتفاق البيئة والجنس ما يبعث إليها شبهاً قوياً يصل بينها فى الروح والحياة .

وفى أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتابا ثانياً من أمهات كتبه . ذلك كتابه (فى الذكاء) . ولقد ذكر هو فى مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة بحث وتفكير عشرين سنة كاملة . والواقع أن بين هذا الكتاب وبين رسالة « المشاعر » التى قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة فى سنة ١٨٥١ صلة كبرى . ذلك بأنه يرد الذكاء فى الإنسان إلى إحساسه ومشاعره . وإن كل حس يؤثر بمحسوساته فى مراكز الذكاء فى الإنسان تأثيراً هو صاحب الأثر الأكبر فى تكوين هذا الذكاء . وفى هذا الكتاب أيضا شرح تين نظرياته ، بل لعله فى هذا الكتاب وحده قد قرر هذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيها مذهبه الجبرى بكل قوته ووضوحه .

ظهر لتين كثير غير الكتب التى ذكرنا منها كتابه (مذكرات عن إنجلترا) وكتابه الآخر (مذكرات عن باريس) . وإذا هو كان فى الكتاب الأول كاتباً ومحللا على طريقته فهو قد امتاز فى الكتاب الثانى بالنكتة المقذعة وبرقة فى العبارة مع دقة فى الملاحظة ومرارة فى التهكم بالناس وبالحياة جعلت كثيرين يتمنون لو أنه وجه نصيباً كبيراً من عنايته إلى هذا النوع من الكتابة .

وتزوج تين فى سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئاً من حياة الجد والعمل التى كان يحياها . على أنه منذ سنة ١٨٧٠ ، وعلى أثر الحرب الفرنسية الألمانية ، حز فى نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها . وكان هذا هو الدافع له إلى وضع كتابه الأكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذى عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ إلى أن مات فى ١٨٩٣ والذى اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انقطاعاً تاماً . ويبدأ هذا الكتاب بجزأين عن العصر القديم . أى العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسية . أما تاريخ الثورة فيتناول ستة

أجزاء ، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد وضعه تين كفهرس للكتاب كله . ولقد كان فى عزمه أن يضع – فى الجزء الذى لم يمهله القدر ليتمه – الصورة الصالحة لنظام العائلة ونظام الجمعية فى فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون ، لكنه توفى فى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما يزال فى الخامسة والستين من عمره .

وكتابه (أصول فرنسا الحديثة) هو عمله الخالد على التاريخ . ولقد سار فيه على نفس الطريقة التى سار عليها فى سائر كتبه . وإن يكن الدافع الذى دفعه لكتابته ، ألا وهو حب وطنه حباً أذكته هزيمة حرب السبعين وزادته ضراماً ، قد جعله فى كثير من الأحيان يناصر حزباً على حزب وطائفة على طائفة من الأحزاب والطوائف المختلفة التى حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذى كتب هو عنه .

وهو على كراهيته للاستبداد فى كل مظاهره وعلى تقديسه للحرية فى مختلف صورها ، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التى تترتب عليها ، بل كان يحسب فيها هى أيضاً لوناً من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلاد . لا تقل سوءاً عن استبداد الملوك الظلمة الغاشمين ، فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العمياء التى تبتغى المصالح الذاتية فى شره وسخف والتى لا تفهم المعانى العليا التى يتطلع إليها العلم ولا السنن الثابتة والتى تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم .

ويذكر كثيرون أنه كان فى هذا كما كان فى فلسفته متأثراً بالفلسفة الإنجليزية وبالحياة السياسية الإنجليزية . ولعله كان يميل إلى شىء من الإرستقراطية بطبيعة تفكيره ، ولذلك كان كتاب عصره جميعاً إنما يذكرونه باسم (مسيو تين) ، وذلك امتياز لم يعرف إلا له ولاثنين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه . وربما كان صدقاً ما يقوله مسيو هريو وزير معارف فرنسا فى خطابه عن تين من أنه لو كان إنجليزياً وعاش فى إنجلترا لكان حتما أن يلقب وأن يكون (السيرهيبوليت). وهذه النزعة هى

التى أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها مر الطعن على هذا النظام ، ويرى من السخرية أمرّ السخرية أن يتساوى فى الرأى عن طريقة حكم البلاد ماسح الأحذية وعميدو الكليات ومديرو الجامعات كما يرى حماقة أن يحكم نصف الأمة زائداً واحداً نصفها الآخر ناقصا واحداً أو أن يحكم سوادها الطائش المخدوع بترهات المغررين والمضللين صفوة أبنائها وخلاصة ذوى الرأى والعلم فيها حكماً أقل أثره أن يبعث التقزز إلى نفوس الصفوة ويضعف من حب كثير منهم للعمل ويضيع بذلك جهوداً أقلها خير ألف مرة من جهود السواد وقادته .

* * *

وعاش تين ومات ومنطقه منطقه ورأيه لم يتغير ، وكأنما كان مصداقاً حياً لهذه الكلمة : « النبوغ فكرة فى الصبا تنفذ فى الرجولة » . فمنذ كان تين فى مدرسة المعلمين إلى أن مات ، كانت غايته فى الحياة واحدة وطريقته إلى هذه الغاية واحدة : كانت غايته الحقيقة وكانت طريقه إلى الحقيقة العلم ، حقيقة لا هوادة فيها وعلم كذلك لا هوادة فيه . ولهذا كان جديرا حقاً بالخلود وإذا كان كثير من نظرياته قد نقض بعد حياته ، فهو فى ذلك ليس إلا إنساناً عظيماً . هو قد خطا بالعالم فى عصره الخطوة التى كان يجب أن يخطوها العالم . فكأنما كان رسولاً لتمام هذه الخطوة ، أما وقد أتم رسالته وآن للعالم أن يخطو خطوة أخرى . فإن ذلك لن يغض من فضله ولن يغمطه شيئا من حقه ، بل هو على العكس من ذلك يزيدنا قدراً له وإعجاباً به . وكفى أن يسأل إنسان نفسه : ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن تين لم يوجد ؟ ولن يستطيع إنسان أن يجيب على هذا إلا بالاعتراف لتين بفضل عظيم . وهذا الفضل هو الذى جعل فرنسا تحتفل بعيده وجعل الفرنسيين يفكرون فى إقامة تمثال له فى باريس وتمثال آخر نصفى فى مدرسة المعلمين .

وليم شكسبير



« ماحاجة شكسبير إلى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى إليها رفاته المجيدة ؟ ماحاجته أن تدفن بقاياه المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل إلى عنان السماء ؟ ياابن الذكرى العزيز ووارث المجد العظيم ! ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالا لايبلى . »

« ملتن »

« تمثالا لشكسبير ! ولماذا ! إن التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو إنجلترا كلها لخير له من كل تمثال . ليس شكسبير بحاجة إلى هرم وله مؤلفاته . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ إن الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهدهم عبثاً . فالعبقرية هى العبقرية من غير

حاجة إليهم . ولو أجتمعت الأحجار كلها ، أفتراها تكبر هذا الرجل إصبعاً ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : قصة الشتاء – العاصفة – زوجات وندسور المرحات – يوليوس قيصر – كريولان . وأى أثر أعظم من لير ، وأشد تجهماً من تاجر البندقية ؛ وأبهر من روميو وجوليت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث . وأى بدر يلقى على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأى عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تثير روح مكبث الهائلة الضجيج ؟ وأى حلية من خشب الزان أوالبلوط تبقى بقاء أوتللو ؟ وأى نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ كلا : لن يوازى بناء من الحجر أوالصخر أوالحديد هذا الروح روح العبقرية العميق . روح الله يتجلى به على لسان الإنسان . ورأس فيه فكرة هو القمة ، أماَّ أكداس الأحجار فجهود ضائعة . وأى بناء يساوى فكرة ؟ إن بابل لدون ايزاس ، وخوفو لأصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقل من جوفنال ، وقصر اشبيلية قزم إلى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما لاتوازى كعب دانت ، فكيف تستطيعون وإن جهدتم أن تقيموا برجاً فى رفعة هذا الاسم : شكسبير »

(فكتور هوجو)

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هيجو . فأنت لاتعنى إذ تذكر شكسبير ، أأقيمت له تماثيل ، أم رفعت له نصب وأهرام . وأنت لاتذكر إلى جانب اسمه ماتذكره إلى جانب اسم نابليون من عماد فندوم أوقبر الأنفاليد . بل أنت إذ تذكر شكسبير تنسى كل مافى العالم غير ماخلّف شكسبير ، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامى فوق كل مراتب الشعر ، والذى يزداد سمواً كلما ازددت فيه إمعاناً ، حتى لتنسى إلى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لأنك ترى فيه عالماً كاملاً من الأشياء والناس والآلهة خلقه خيال يندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن ، ولتنسى إلى جانبه الإعجاب فى الحياة بأى شىء سواه . هذا وشكسبير لم يكن

ملكاً ولم يكن غازياً ولم يكن عظيما فى قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقرى رسولا تؤذيه رسالته حتى لتحرقه . ومن هذا الأذى ومن هذا الأحتراق تتعطر الحياة بأريج تلك الرسالة وتزداد بهذا الأريج شعوراً كلما ازداد عطر الاحتراق والأذى ذيوعاً وأنتشاراً .

نعم ! لم يكن شكسبير ملكاً ولاغازياً ولاعظيماً فى قومه . بل كان مؤلف روايات وكان مهرجاً . كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة إلى نفس الجمهور ثم لايناله أكثر الأحيان من هذا الجمهور الذى أضحكه غير السخط والازدراء . ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعتونه بأنه لم يحدث جديداً وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ماكتب غيره . لكن الزمن الدائم الكر والذى يصهر تراث الماضى فيستخلص جوهره من خبثه ، لم يجد فى شكسبير إلا جوهراً يشع فى المستقبل إلى قرون وقرون بعده ، فلاتزداد الاتطلعاً إليه وإعجاباً به . وهذا الزمن وجد فى إلهام شكسبير الشعرى علماً وحكمة ، فنفى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ماعبر عن بعضه ملتن شاعر إنجلترا الأول بعد شكسبير . وهوجو مقدم شعراء فرنسا ومترجم شكسبير إلى الفرنسية .

وإذا لم يكن شكسبير عظيماً فى قومه فليس فى تاريخ حياته مايقف النظر عنده إلا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة .

ولد فى ستراتفورد – أن – ايفن فى ٢٣ أبريل سنة ١٥٦٤ أى فى عصر الملكة إليصابات أحد عصور إنجلترا الزاهرة ، وفى القرن السادس عشر عقب الانقلاب الدينى العظيم الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به إنجلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها . وكان أبوه جون شكسبير محترماً فى قومه لأنه كان يملك ثروة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه . وقد اختلف الرواة فى الصناعة

التى كان يزاولها جون بين أنه كان تاجراً أومزارعا أوجزاراً . ويذهب كثيرون إلى انه كان يزاول هذه المهن جميعاً كما كان يفعل الكثيرون من اهل القرى والبلاد الصغيرة ، ولمكانته من قومه انتخب فى مجلس بلدته القروى ونيطت به اعمال قاضى المصالحات . وفى سنة ١٥٧٧ ساءت حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه وليم مايزال ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى بداءة تعليمه . فاضطر للاستعانة به فى كدح الحياة . وجعل الفتى – على قول بعض مترجميه – « يذبح العجول لأبيه ويلقى أثناء قيامه بعمله خطباً رائعة الأسلوب على سامعيه » . وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهمّ الحياة حتى تزوج فى الثامنة عشرة من عمره من أنا هثواى ورزق منها فى ٢٦ مايو سنة ١٥٨٢ فتاة أسماها سوزان وتوءمين غلامين فى فبراير سنة ١٥٨٥ .

على أن هموم الحياة ومشاغل الأسرة لم تغير شيئاً من خلقه المضطرب الثائر . فقد أولع منذ صباه بالشراب حتى كان فيه مفخرة قريته ، كما أنه كان لايتعفف عن سرقة الصيد من أملاك كبار الملاك وبخاصة من أملاك السير توماس لوس كبير قضاة قصبته . وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة . وفيما هو يوماً يجارى أهل قرية مجاورة فى الشراب سكر حتى لم يستطع العود إلى أهله . فلما أصبح ذكر حاله وما آل إليه أبوه الذى أدخل السجن بسبب ديونه ففضل هجرة بلد أصبح لااحترام له بين أهله برغم ماكان يشعر به فى نفسه من تفوق على أقرانه أن كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمه ، فهجر ستراتفورد إلى لندن وهو لايدرى مايستطيع أن يفعل فيها .

ودخل العاصمة العظيمة خالى الوفاض يضنيه الضنك والعوز فأسرع إلى حرفة من أحقر الحرف . ذلك أنه كان ينتظر بخيول المتفرجين على أبواب المسارح فإذا انقضت ساعات التمثيل نفحوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم . ولعل لهذه الحرفة

الوضيعة حظاً غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة . فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك بإحدى الفرق فى أدوار تافهة . لكنها كانت سلمّه إلى أدوار خير منها . ومع أنه لم يكن يوماً ممثلا بارعاً ولم يصل إلى النبوغ فى التمثيل إلا ما كان من نبوغه فى دور طيف والد هملت فإن خشبة المسرح هى التى دفعته إلى كتابة روايات تشهد الأجيال المتعاقبة تمثيلها معجبةً مقدسةً .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحقيرة سبب هذا المجد العالمى ، فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفاً آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر فى عمله . ذلك أن اضطرابات العاصمة الإنجليزية أدت إلى إقفال مسارحها مابين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . وإذ كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوى النفوذ ماأغناه عن أتباع الفرق التمثيلية فى تجولها ، فقد ظل مدى هاتين السنتين مكباً على دراسة اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية ، مكباً على النظم والتأليف . وخلالها استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله التمثيلية . فكتب فى أبريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وادونيس Venus and Adonis كما كتب فى مايو سنة ١٥٩٤ رواية لوكريس وأهداها إلى لورد سوذامبتن . ويقال إن اللورد شجعه على الاستمرار فى عمله وأعانه بألف جنيه دفعها له فكنه من زيارة شمال إيطاليا وإتقان لغتها ، التى كان قد بدأ يدرسها فى لندن والوقوف على كثير من الأساطير الإيطالية التى استعان بها فى رواياته . وفى أثناء زيارة إيطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التى نشرت بعد ذيوع اسمه والتى أهدى أكثرها إلى لورد سوذامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل فى تمثيلها بعد انقضاء الاضطرابات وعود الحياة الهادئة إلى عاصمة بلاده .

وفى صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير إلى المسرح وبدأ يقدم رواياته لتمثل . ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفى على أحد خصوصاً أنها كانت

تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل . لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصوت ما خلع عليه اسم الممثل البارع وإن كانت براعته الحقة فى تواليفه ، وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب فى أرباح مسرح (الجلوب) الذى كان يشتغل فيه ، فاستطاع بذلك أن يشترى فى بلدة ستراتفورد دوراً وضياعاً وأن يعيش فى رغد ونعمة وأن يعيد أباه وأهله إلى حب الحياة . وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظماء وأنالته عطف الأسرة المالكة ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك بمكان من الضعة والحقارة يشعر الإنسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه فى أثناء مقامه بإيطاليا ومافيه من برم بالحياة وألم لازدراء الناس مهنة لم يكن له كى يكسب العيش مفر من احترافها . وزاد المهنة رفعة أن مثل شكسبير فى حضرة الملكة إليزابث وأن نال من عطفها ، وإن يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تذرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها .

وبقى شكسبير يؤلف فى السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا وإياه على خير وفاق . وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (أومندمالونى) كتاباً سماه « محاولة لتحقيق الترتيب الذى كتبت به روايات شكسبير » .

(An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakespeare were written)

كذلك أنكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده .

وفى سنة ١٦١٠ أعتزل المسرح وترك لندن إلى ستراتفورد حيث عاش عيشاً هادئاً مكتفياً بما جمعه من مال مستمراً مع ذلك فى كتابة رواياته . ويذهب بعض مؤرخيه إلى أنه كان مع ذلك يعود إلى لندن الحين بعد الحين ويشترك فى تمثيل بعض

الروايات حتى احترق مسرح الجلوب فى ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ فى أثناء تمثيل رواية هنرى الثامن . هنالك انسحب شكسبير إلى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته فعاش عيش ذوى اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميعاً وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين ممن كتبوا عنه . قال تين : « خاتمة غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لاخاتمة شاعر . أفنعزوها إلى هذه الغريزة الإنجليزية التى ترى السعادة فى حياة رجل الريف صاحب الملك حسن الإيراد كريم الأصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن بين الناس إلى مكانته واحترامه وإلى سلطته العائلية ومكانته من قومه ؟ أم أن شكسبير كان كفولتير رجلا موزوناً وإن يك خيالى الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته ، حذر لتشككه مقتصد لحاجته إلى الاستقلال عن الناس ، قدير ، بعد أن يحيط بكل مامر بخاطر الإنسان ، أن يرى مع كانديد أن الخير كل الخير فى أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه المليء المتين . ذلك أنه لكثرة ماأنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتى من مخاطر الخيال لمتموج . وأنه فى تصويره الشهوات فد بلغ مابلغه جيتى من تخفيف حكم الشهوات إياه . وإن الاندفاع لم يحدث فى سلوكه انفجاراً لأنه كان يجد فى الشعر مصرفاً لاندفاعه . وإن رواياته حفظت عليه حياته لأنه ألم من خلالها بكل مافى الحياة الإنسانية من هوس وتعس ، فاستطاع أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتئبة ، وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسيقى الأثيرية التى أبدعها فى رواياته . وأريد أن أفترض أخيراً أنه كان فى جسمه مثله فى سائر تكوينه ، أحد رجال جيله العظيم ، وعصره العظيم ، وأن متانة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكلنج وروبنز ، توازى حساسية الأعصاب . وإن الماكينة الإنسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى . وإن النفس والجسم كانا مايزالان متوازنين فكان النبوغ يومئذ زهراً وثمرة ، ولم يكن

مثلا هو اليوم مرضاً . »

* * *

قد يكون هذا التصوير الذى فرضه تين لحياة شكسبير صحيحاً . لكنه لايزيد على أنه فرض فى رأى تين نفسه . على أنك إذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكسبير ورواياته فقد وجبت دراسة ذلك كله دراسة لايتسع المقام هنا لأكثر من الإلمام بشىء منها إلماماً بسيطاً .

نشأ شكسبير ، كما قدمنا ، فى العصر الذى عقب الانقلاب الدينى الذى قام به مارتن لوثر ، وتأثرت به انجلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها ، وكان الذين أخذوا بالمذهب الجديد مايزالون متأثرين قبل كل شىء بأساسه وهو حرية التفكير . وكان انهيار قيود الكثلكة هو البادى أمام الأنظار ، ولم تكن بعد قد تركزت فى النفوس قواعد المذهب الجديد تركزاً ثبت الإيمان بها تثبيتا يحول دون تحطمها . كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هذه الأوهام المحسنة التى تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين – لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر فى انجلترا تسيغ الإلحاد ولاتنزعج لإعلانه ولاتضطرب أمام مايرتبه أصحابه عليه من تقشف أحيانا واستهتار وإباحة أخرى وشك ثالثة ، واعتدال فى الحياة وفى المتاع بها اعتدالا يبقى عليها ويطيل . ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحته سرقة الصيد . وهى لاريب كانت قوية الأثر فى رواياته . فأنت ترى فيها من التجديف ومن الغواية ، مصبوبين فى أجمل قالب وأبهاه ، مالايحتمله عصر غير عصره الذى كان مجاوراً للعصور الوسطى والذى لم يتخلص من خرافاتها وإن أباح لنفسه هدم هذه الخرافات . وكما أثر العصر فى شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه هذه الخرافات من إيمان بالسحرة وبالجن حتى لنرى كثيراً منها فى رواياته .

ثم إن هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر ،

وكان القتل أمراً شائعاً فيه حتى لترى الرجل تُقْطَعُ عنقه لغير سبب إلا أنه أنكر على الملك سلطانه الدينى أو أنه أغضب رجلا ذا سلطان بإشارة أوبكلمة . أضف إلى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهائها فى أحيان كثيرة إلى قتل أحد المبارزين ، وهذا الاستهتار بالحياة الإنسانية هو سر ماترى فى أكثر روايات شكسبير من مجازر فظيعة تنتهى أغلب الأمر إلى موت أشخاص الرواية جميعاً . ثم إن التمثيل على النحو الذى نعرفه اليوم كان فى ذلك العصر مايزال فى دور نشأته حتى لم يكن معروفاً فى كثير من البلاد ومن بينها فرنسا . فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتى تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث . ولذلك أنت ترى فى شكسبير مناظر مختلفة فى الفصل الواحد قد لايكون بينها أية صلة ، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات الأميال . ثم إنك ترى كذلك فى هذه الروايات خلطا عجيباً من أحط ماتنزل إليه الجماعة فى حياتها العادية التافهة ، ورفعة لاتدانيها رفعة فى سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات فى النفوس .

وهذه الظواهر التى تجدها سائدة فى دول أوربا كلها فى ذلك العصر ، بانت أكثر وضوحاً فى إنجلترا . ومرجع ذلك أن الخلق الإنجليزى بطبيعته خلق ثائر طموح للحرية يفتديها بالدماء . وكان كذلك فى تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم . ولذلك كانت إنجلترا أسرع من غيرها إلى الأخذ بالمذهب الدينى الجديد . ولذلك كانت مظاهر القسوة وماتلده من قتل وتعذيب أكثر تفشياً بين هؤلاء السكسونيين . وكان من شأن السحرة عندهم مالاتعجب بعده لطيف هملت ولالساحرات مكبث . ثم كان من استهتار الناس بالحياة ماترى آثاره فى شعر شكسبير مما يجعل المتقشفة والمتصوفة أشد على الحياة حرصاً من أهل هذا الزمن . فليس عجيباً إذن هذا الذى نرى فى شعر شكسبير من مجازر وخرافات وإن خيل لبعضهم بادئ الأمر أن فيه شيئاً من العجب يدعو إلى عدم تصديقه .

وإذ كان علم شكسبير راجعاً إلى ملاحظة الطبيعة أكثر من رجوعه إلى دراسة الكتب وكانت معلوماته التى استند إليها فى تأليف رواياته لاتزيد على معارف سطحية فى التاريخ والفلسفة والاجتماع ، فإن كثيراً من رواياته لاتعتمد على أكثر من أساطير سمعها أوقرأها فى الكتب التى يتناولها الناس جميعاً ، وفى مقدمتها تاريخ العظماء لبلوتارك . فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركية ينكرها أكثر المؤرخين . ورواية روميو وجولييت أحدوثة إيطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها فى أثناء سياحاته فى شمال إيطاليا أو قرأها ولم يستتمها فى بعض الكتب . ذلك أن هذه الأحدوثة تنتهى بأن روميو لما بلغه موت جولييت حضر إلى قبرها وبلغ من ألمه أن طعن نفسه بالخنجر ، ولما كانت جولييت لم تتناول السم بل تناولت مخدراً فقد استيقظت وروميو مايزال فى النزع فبث كل منهما لصاحبه لاعج غرامه . وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذى زج به محبها أعماق قلبه . ولم يشر شكسبير إلى هذه الواقعة الجديرة بأن تجرى على أوتار ربة شعره بأرق أنغام الحب والألم فدل بذلك على أنه لم يعرفها .

هذا التحليل للمحيطات التى وجد فيها شكسبير قد يفسر طريقة وضعه رواياته ، وقد يهدى إلى أسرار ماترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافة غير لائقة بعبقرية فذةكعبقرية شكسبير . لكنه مع ذلك لايدلنا على شىء من سر عظمته ولايهدينا إلى كثير من سر شعره . والحق أن البيئة والزمن وحدهما لايفسران نبوغ النابغة ولاعبقرية الشاعر وإن بينا مراميه وكشفا عن أغراضه . فأما العبقرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تنفح بها الطبيعة شخصاً من الناس على حساب مواهب أخرى . وعبقرية شكسبير كانت فى ملاحظته وفى خياله وفى شاعريته وكانت فى ثاقب نظره إلى حدّ يستطيع معه أن يرى دخيلة النفس الإنسانية وأن يصفها وصفاً حسبه الناس بادئ الأمر غواية شاعر ، ثم أثبت العلم أنه الحقيقة

العلمية التى لا تقبل نزاعاً ولا جدلاً .

وكانت مظاهر الطبيعة فى أرق صورها وأجملها أول ما فجأ خيال شكسبير . فأنت لا تقرأ له رواية ولامقطوعة إلاوجدت من وصف هذه المظاهر وصفاً وديعاً يدلك على مبلغ تأثيرها فى أعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيراً يجعله يندفع إلى الإعجاب بالجمال وتقديسه إلى أقصى حدود الإعجاب والتقديس ، فيظهر أثر ذلك فى شعره ، ويظهر فى رعشة موسيقية قوية رقيقة فى قوتها ، متجاوبة ثائرة فى تجاوبها ، تهز نفسك هزاً وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك مارسمه خيال شكسبير ماثلا واضحاً . وقد بلغ من تأثير هذه الصور فى نفس الشاعر العظيم أن حلت منه محل التفكير حتى فى شأن الحياة الإنسانية . فالرجل الغاضب كالطبيعة الثائرة . ومايترتب على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير مايترتب على غضب الإنسان من آثار . والطبيعة فى سيرتها العادية تافهة حتى إذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرث والنسل . كذلك الإنسان فى سيرته العادية تافه حتى إذا ملكته الشهوة أسرف فى الحب أو فى البغض أو فى الإيثار أو فى التشفى والانتقام . والطبيعة خاضعة لظروف لا سلطان لها عليها ، والإنسان خاضع مثلها لظروف لا سلطان له عليها . وكما تسير الغرائز الطبيعية تسير غرائز الإنسان . فكل صورة للطبيعة لها مثلها فى الإنسان ، ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالاً تصويرياً فى وصفه وفى إحساسه وفى شهواته وفى تفكيره . اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لاتستطيع البحار أن تمحو ماخلفت من دم على يديه . واقرأ هملت فى ثورته على أمه وفى سائر هذياناته الحكيمة . بل اقرأ قيصر واقرأ فى قيصر خطاب أنطونى . اقرأ ماشئت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ فى قالب تلك الصور .

وكما يندفع شكسبير إلى تقديس مظاهر الطبيعة ويتخذ من صورها صور

تفكيره ، فهو لايرى فى غرائز الحياة غير الاندفاع لايقوم على أساس من روية ولاتفكير ، وإنما يقوم على الغرائز الإنسانية البسيطة هى التى توجهه وتصرفه . فالحب عنده لايحتاج إلى تحضير ولاسعى من جانب الرجل لكسب المرأة ، بل هو اندفاع من جانب شابين كل منهما نحو صاحبه ، اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة ، اندفاع شعرى عذب يتغنى فيه كل من المحبين بأهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كأنما كوبيدون إذ رمى عن قوسه فأوصد القلب رمى مع القوس الوتر ، فأخرج هذا الوتر من أعصاب كل من المحبين أنات وآمالا وأحلاما لذيذة ويأساً فاجعاً لايعرف الشعر فى كل الأمم شيئاً منه مثل ماعرف على لسان شكسبير. استمع إلى أنغام أوفليا فى حبها هملت وتوجعاتها حين اليأس الذى أدى بها إلى الموت ، واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم ، ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والتهابها فى نفس أوتللو مما لامثيل له فى أقوى ماتصل إليه موسيقى فاجنر ، وخيال شكسبير يصل من ذلك فى بعض الأحايين إلى حدود يعجز أقوى خيال عن تصورها .

وكما تحرك الغرائز المحبين تحرك الناس جميعاً فى كل تجارة الحياة . فليس الملك على خلاف الناس جميعاً لأنه ملك ، بل هو يحب أهله وأبناءه ويدللهم مادام بعيداً عن مباشرة شئون الدولة . وهو فى هذه الشئون يتأثر بغرائز الإنسان وشهواته كما يتأثر أى إنسان سواه . والرجل السيئ الذى خلقه شكسبير فى شخص ياجو وفى شخص شيلوك تاجر البندقية ينقاد للغرائز الإنسانية انقياد الوحش أوتللو ، والناقم هملت ، وإن كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص إلى شخص حسب مزاجه ، وهذا الاختلاف هو الذى جعل من أبطال شكسبير أشخاصاً ذوى حياة إنسانية صحيحة تشعر وإياها إذ ترى تمثيل الروايات على المسرح فى حين أنك إذ ترى روايات راسين وكورنى مثلا ، وهما من أكابر كتاب فرنسا فى القرن السابع عشر ، تحس المؤلف هو

الذى يتكلم وترى أفكاراً تروح وتجيء على المسرح وكل وظيفة الممثل أن يقوم بإلقاء الألفاظ التى تؤديها من غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه ممثل وتنسيك أنه يقوم بدور تمثيلى . .

ولقد أقر النقاد جميعاً لشكسبير بهذه الميزة وإن رأى بعضهم أنه يسرف فى تصوير أشخاصه إسرافاً يجاوز المعقول ، ناسياً أن هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير ، وأنهم من أبناء خياله الشعرى المتوقد . وكما أتهم بالإسراف ظلماً فى هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها . فقد ذهب بعضهم فى وقت من الأوقات إلى القول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات . من ذلك مثلا أنك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتتلوث يداه بالدماء ، ثم هو مع ذلك يظهر فى أماكن لايأمن أن يراه الناس فيها ويصيح بأن مياه البحار لاتغسل جريمته ، وعلى الرغم من إلحاح لادى مكبث فإنه يظل يتحدث عن جريمته ولايدارى شيئاً من آثارها . فهذا فى رأى النقاد الذين أشرنا إليهم تصرف غير معقول . أليس أول مايصنع المجرم أن يعمل ليدارى جريمته ؟ لكن العلم الجنائى أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الإنسانية تدفع بالمجرم إلى مكان جريمته وتكرهه أكثر الأحايين على الاعتراف بها .

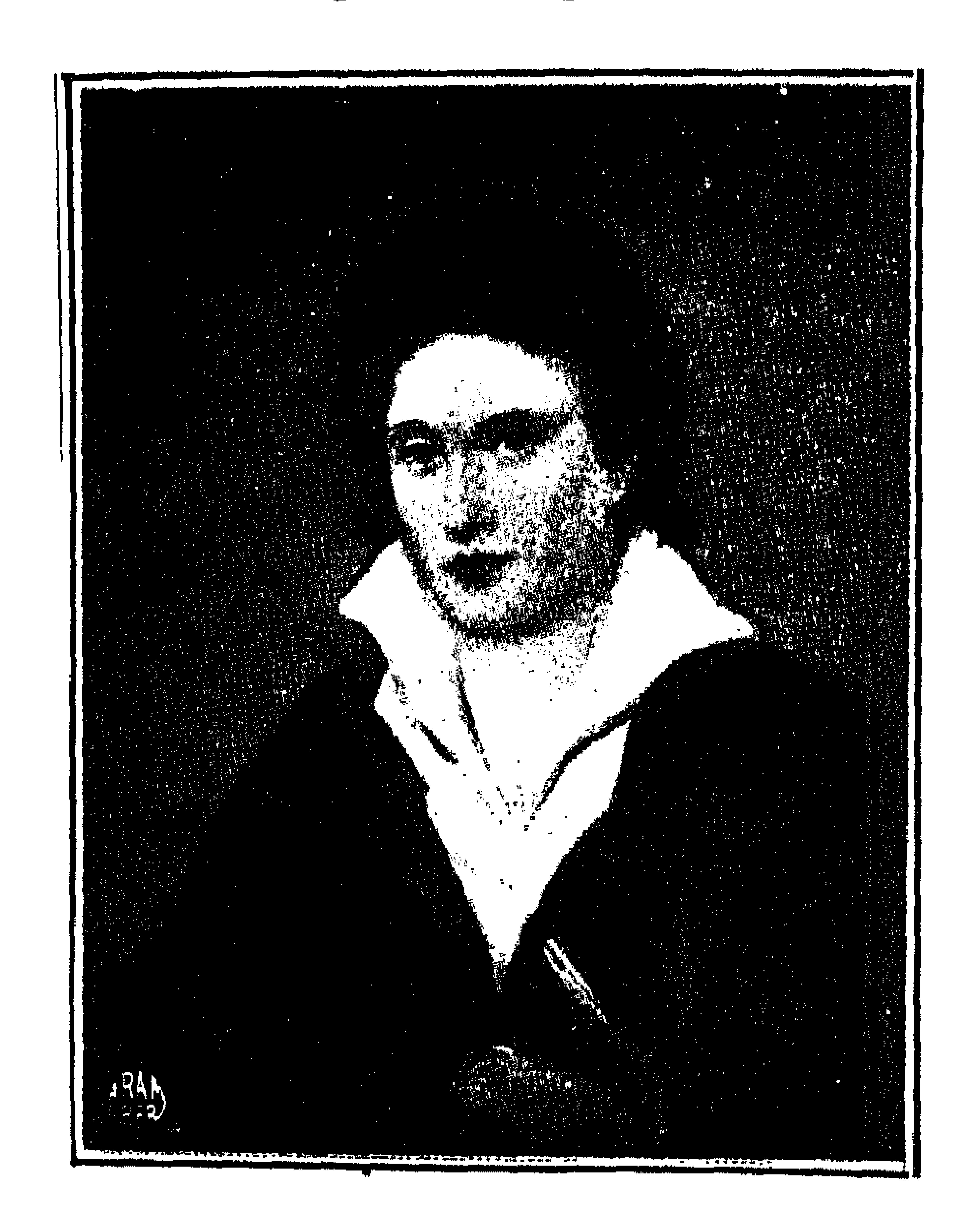
وليس مثل مكبث إلا واحداً من أمثال كثيرة فى ثقوب نظر شكسبير واستشفافه حقيقة الغريزة الإنسانية

* * *

هذا بعض ماتأثر به شكسبير فى شعره . وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحثه . والآن أخشى أن أكون أطلت فى حديث لم أكن أقصد إلى الإطالة فيه . وإن يكن القول فى شكسبير قصيراً وإن طال . فلنجتزئ بما تقدم . وبأن شكسبير بعد أن أقام فى ستراتفورد مكتفياً من العيش بطمأنينته ونعمته ، ظل حتى سنة

١٦١٦ ثم مرض فكتب وصيته بما يملك إلى ابنته سوزان غير تارك لزوجه إلاقليلا .
وفى هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال ، إلى أن اضطر العالم بعد أجيال
ليقيم له من المجد مايبقى على الأجيال حتى آخر الزمان .

برسی بیش شلی



١ – نشأته الأولى :

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، فى صحو جو جميل ، كان لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى وقوفاً فوق رمال الشاطىء الإيطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف إلى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الإيطاليين ، وكلهم محدق ببصره إلى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الإنسانى ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول . وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعاً يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون إزاءه إلا وجوماً وذهولاً ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه لا تستطيع حبسه . ويبلغ الهلع والروع فى أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغهما فيلقى بملابسه على الرمل وبنفسه فى الموج يسبح خلاله حتى يصل إلى زورقه «البوليفار» . ويحدق ترلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه

النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيراً كبيراً ، فما يزال منه قلب كامل لم يذب ولم يحترق ، فيجذب هذه البقية المقدسة بيده . وتبدأ النار بعد ذلك تخبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هي كل ما بقي من رفات قيثارة الشعر الإنجليزى شلى . ويحمل ترلونى الحفنة إلى الأرملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هو ولى هنت معها حملها إلى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها إلى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات وليم شلى ابن الشاعر البكر من زوجه مارى . ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية إلى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ إلى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وإن كان قد خلّف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الإنجليزى عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملكان على المرء حسه ولبه ويبعثان إلى كل ما ينشدانه ويترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما ينشدانه ويترنمان به إنساناً أم طيراً أم حيواناً أم جماداً أم مجرد خيال لا وجود فى الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت باعثها . وكذلك كانت فجيعة الشعر فى هذا الشاب الذى خلف الحياة مذكان على أعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلالاً ، وإن كانت هذه الذكرى فى غير حاجة إلى مزيد من قوة أو جلال . فلقد كُتِب لكل بيت من شعر برسى بيش شلى منذ ترنم هو به الخلود وكتب له الجلال .

ولم يكن لورد بيرون لينسى ساعة فراره أمام المنظر المروع ماكان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته . فهذا الشاعر الشاب ، الذى ولد فى الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفى فى الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ ، قد حلق به جمال الخلق فى سماء الشعر إلى ما لم يرتفع إليه معاصر له ، وإلى ما لم يسبقه إليه أحد فى رأى كثيرين ، وما لم يسبقه إليه غير

شكسبير فى رأى آخرين . وكان إرتفاعه هذا ليس قائماً على خياله الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى ، بل كان قائماً ، فوق ذلك وقبل ذلك ، على قوة فى النفس قل أن يكون لها نظير . قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت فى أثناء الصبا وازدادت وضوحاً فى صدر الشباب الذى كان ، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته . وكانت أجلى مظاهر هذه القوة واضحة فى إيمان الرجل برأيه وصراحته فيه وإعلانه إياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه ، وإن أدى لذلك ثمناً فاحشاً أن عده الناس مجنوناً وأن نفرت منه الجمعية الإنجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليهجرها منذ أول شبابه ، وليعيش السنوات الخمس الأخيرة من حياته تحت سماء إيطاليا الدائمة الصفو والابتسام ، والتى تظل من صور الجمال وبدائع الفن ما يزيد فى إلهام الشاعر . هذه الشجاعة وهذا الإيمان اللذان أعتبرا جنوناً هما أساس شاعرية شلى وهما مصدر إلهامه . لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون الأبيقورى المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعاً الحائز لذلك غاية الإعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم إياه . لذلك كان طبيعياً أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها ، وكان طبيعياً أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذره رماداً .

وكثيرون ممن عرفوا شلى كانت تأخذهم الدهشة لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته . ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا ينمان عن هذه الفضائل فيه ، وإن كانا ينبئان بشاعريته وقوة خياله . فقد كانت فى نظرته وفى تقاطيع وجهه وفى جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة . وكان يضوع منه شذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على النضال والقسوة فيه . وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة التى شدت بأجمل الأنغام وتغنت بأحلى الأهازيج . كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله فى الجمعية مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلى وصراحته فى

إعلان إيمانه حتى حكموا عليه بالجنون . فقد ولد فى أسرة نبيلة جمعت إلى النبل المال . وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بمالها ونبلها . كان جده السير بيش شلى باروناً وكان غنيًّا وكان لا يفتأ يدأب لزيادة ثروته . وكان أبوه تيموذى شلى قاضيا وعضواً فى البرلمان ، وكان قصرهم بفيلد بليس على مقربة من هورشام إحدى أعمال سسكس محاطاً بحدائق وأحراش تدعو إلى المتاع بها والطمأنينة لها ، وكان جده السير بيش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه إيراداً سنوياً ستة آلاف جنيه فى ذلك الزمان ، سبحان من يدرى كم ألف تعادلها فى زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعة وبلهنية وليست أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لا يعرف الهدوء إليه سبيلاً . لو أن صاحبها أوتى من هبة الشعر ما أوتيه شلى لكان طبيعيا أن يسلك الطريق التى سلكها بيرون من الإنجليز وعمر بن أبى ربيعة من العرب . لكن شلى ضرب بالمال والجاه والدعة عرض الأفق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعاً ولم يقتض من وصية جده إلا بمقدار ما يكفيه حاجة العيش ، وانطلق فى الحياة هائماً يجلى بهاء الفضيلة ويؤدى رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدائها بد ، فى أنغام قدسية من موسيقى السماء . ويؤديها ذاهلاً عما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجهاً بكله إلى هذا الوجود المحيط به ، مفنيا نفسه فيه كىَ يفنى الوجود كله فى نفسه فترده إلى العالم وحياً سماوياً يختلط بالنفوس جميعاً ويتنقل على الأجيال إلى ما شاء الخلد أن تكون للإنسانية أجيال تتعاقب .

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ فى حياته وفى تفكيره وفى شعره . جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوين وما اتصل بذلك من حسن تحسده عليه كل فتاة فى مثل سن الطفولة التى كان فيها يوم ذهب به أبواه إلى مدرسة (سيون هوس) فى برنتفورد ،

بالغاً فى رقته وظرفه وحلو طبعه . ونبأت هذه الصفات إلى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتتنزه عنها وترى فى عدم النظام وسوء الإتساق ما يؤذيها ويثيرها ، على أن هذه الصفات جعلت منه فى المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثهم ولهوهم ، مما بعث إلى نفسه غضاضة ومضضاً ، فلما انتقل به أهله إلى مدرسة « ايتون » حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها إلا بغضاً ولمعاملة زملائه التلاميذ فيها إلا مقتاً . فقد كان وما يزال من نظام التربية فى هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنًّا وأقدم فى المدرسة عهداً . وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والإهانة من كبيره . كان يمسح له أحذيته ويأتمر بأمره فى كل حاجة يحلو له أن يأمره بها ، ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على إهانة زميل له إياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان . ولذلك كانوا جميعاً يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء المعتدى عليهم ، لكن هذا كله لم يرق الصبى شلى فلم يذعن له . لم يرض أن يكون خادماً ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه . ليكن هو نظام المدرسة الذى تابعته وتتابعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الإنسانية ، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له : لا يمكن أن يكون خادماً ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم فى ملاكمة ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعتزلهم ولجأ إلى وحدة لم تزدهم له إلا احتقاراً ، ولم تنجه من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكمهم . لكن رقته لم تؤد به إلى ضعف إبائه وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضع لسلطان الأقوى ويأتمر بأمره . بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقاراً باحتقار . وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وإن يك عدواناً متفقاً مع هذه الأنوثة فى تكوينه . عدوان عض بالأسنان وهبش بالأظافر

بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له وجهه أحياناً . وهو لذلك لم يكن يباديهم العدوان ولا يتحكك بهم ، بل كان يتركهم فى ألعابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كتباً محببة إليه مما وضع كتّاب الثورة فى فرنسا وأنصارهم فى إنجلترا ومما وضع جماعة اليونان الأقدمين ، ثم ينطلق بها بين الأحراش والغياض حتى يصل إلى حافة النهر حيث يجلس فينسى نفسه فى المتاع بما فى كتبه و بمشهد هذه الطبيعة الساحرة حوله وبتأمله إياها والتفكير فيها . ولعل أشد ما تأثر به من قراءاته كتاب وليم جودوين : (العدل السياسى) . وكان وليم جودوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثراً بمبادئ الثورة الفرنسية ودعوتها إلى الحرية المطلقة فى التفكير ، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين وتعاليمهم ومن المبالغة فى ذلك إلى إنكار الدين نفسه . على أن جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد الإختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الإصلاح الذى يريد إدخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية . فكان يرى العقل والمنطق وحدهما وسيلة الإصلاح ، وكان ينفر أشد النفور ويطعن مر الطعن على الإلتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة . ودفعه تفكيره الحر هذا إلى إنكار أكثر القواعد التى تقوم عليها جمعية عصره . دفعه إلى إنكار الملك الخاص إلا بمقدار حاجة الشخص له والطعن لذلك على الثروات الواسعة . ودفعه إلى إنكار الزواج على أنه نظام ، لأنه مناط فكرة الملك الخاص . وانتهى من تفكيره إلى وجوب إقامة الجمعية على أساس من العقل وحده ، وإلى القول بأن هذه الأسس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكو منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة ، وأضحت العقوبة وصمة فى جبين الإنسانية . ولذلك كان لا يكفيه أن يطلب إلغاء عقوبة الإعدام ، بل كان يطلب إلغاء العقوبات جميعاً .

فى هذه المبادئ التى وضعها جودوين كثير سبقه إليه روسو وتأثر به أهل فرنسا

ورجال الثورة فيها . على أن المبالغة هى التى أدت بهم لينكروا حتى الدين الطبيعى الذى دعا روسو إليه وليجعلوا الإلحاد وسيلتهم إلى حرية الفكر ، ولعلك إن التمست تفسيراً لهذا وجدته فى تشبث رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشبثاً كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الإضمحلال . على أن واحداً من هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالإلحاد لم يلبث أن عاد إلى نوع من الإيمان فيه جمال وله جلال ، ودعا إليه عن يقين واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منهما .
ولقد تأثر شلى فى الأيام الأولى من شبابه إلى أبعد مدى بكتاب جدوين ورأى فى نظم الجمعية السياسية والإجتماعية والدينية ما لا يتفق مع حكم العقل ، واقتنع بأن مرجع هذا كله إلى تشبث رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقيقة وجليلة من نظام الجمعية ثوباً من القداسة يحول دون التفكير فى معالجته أو إدخال أى إصلاح عليه . أليس نظام الزواج قد طبع بميسم الدين ؟ أليست عروش الملوك قد أحيطت بسياج من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شئون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبك فى قوالب الدين التى يقولون إنها لا تقبل التغير ولا التطور ؟ لذلك مال شلى إلى ناحية الإنكار على أنه الوسيلة لكل إصلاح ما دام الإنكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية فى التفكير والشعور والإلهام والإيمان .

إلى جانب هاته المطالعات التى كانت تثير سخرية أبناء أيتون من شلى كانت طبيعته الحساسة الفياضة بالشعر وبما يلهم الشعر من تعلق بما وراء الطبيعة تدفعه إلى دراسات أخرى جعلت زملاءه فى المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلى) . فقد كان يعنى بالسحر والسيمياء ويعتقد فى الجن والأطياف ويرى فى الهواء والماء شياطين وآلهة كانت تحيا فى خياله وتصبح ذات كيان ووجود ، لكثرة مطالعاته فى أساطير اليونان وتاريخهم . واتجه عقله متأثراً بهذه الناحية من نواحى طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أن يكشف عن مخبوء قوى الكهرباء والضوء . ولذلك كان شديد الولع

بأن يكون لديه معمل كيميائى صغير يرضى طلعته العلمية والسحرية . على أنه كان كلما ازدادت فى هذا الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه ، فلم يستمع له أحد قولاً ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة فى الحياة وفى الحب وفى الإصلاح الذى أولع هو به بعد الذى أفاد من مطالعاته . بل كانت كل محاولة من جانبه لإقناعهم برأيه مثار احتكاك بينهم وبينه وسبباً للكمه ولطمه .

وزاده تحديهم إيماناً بضرورة إصلاح الجماعة وتغيير أسس نظامها ومقومات حياتها . لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم فى هذا برغم أنه لم يفكر فى كراهيتهم بسبب ما يصل إليه من أذاهم وإن كان دائم التفكير فى إصلاحهم ، براً بالإنسانية وعطفاً عليها . فلما لم يجد منهم سميعاً جعل من أُخواته البنات ومن ابنة عمه هاريت جروف تلميذاته فى إجازاته المدرسية يلقى عليهن تعاليمه ويطالعهن برسالته ، ولقد كن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وأسلس قياداً ، وكانت إليزابث كبرى أخواته أشدهن إيماناً به وتقديساً له وإعجاباً بكل ما يقوله ، هو يرى الشر فى الملوك والأغنياء والقسس ، ويرى الخير عند البؤساء والفلاسفة . إذاً فالخير عند هؤلاء والشر فى أولئك . وهو يرى الزواج نظاماً تعساً ، وإنما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ، فالزواج إذاً نظام تعس ، وكم كانت شاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التى يقصها أمام الفتاتين من باهر الألوان ما يسحرهما عن كل ما سوى الحب مما يقوله ويجعلهما تؤمنان به من غير بحث فيه . أليستا يافعتين تتقدمان إلى الصبا ويبدأ فى دمهما مسرى رغباته ؟ والحب عنوان هذه الرغبات وطليعتها . وشلى شاب جميل حلو الحديث عذب النفس ، له من نوازع الصبا ما لها ويطير على أجنحة الحب مطارهما . ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى فى حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديفاً لا تميل إليه نفس الأنثى الحريصة على أن تجد من الجمعية كل حماية وعناية ، فلعل الحب الوليد الذى ينشأ بينها وبين

شلى يكفل من بعد أعتداله ويدفعه ليعدل عن أوهام الإصلاح فى نظام الأسرة المقدس على الزمان ، وإن هو لم يعدل من بعد فهى ما تزال بعيدة عن التفكير فى الزواج وفى الارتباط به أو بغيره ، يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخته وأن تسمع لعذب حديثه وحلو ترنمه ، وأن ترى فى نظراته وابتساماته لها ما يسليها عن نظريات يحمل بها أن تعتنقها لتزيده بها تعلقاً ولها ابتساماً . وكانت إليزابث تشعر فى بعض الأحايين أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمتعت من عطفه بما يكفيها بقية يومها فتذره وابنة عمها وحيدين يتبادلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام ، ثم يعودان متخاصرين يسرى إلى جسم كل منهما دفء جسم صاحبه .

وكانت أيام إجازته المدرسية تنقضى فى هذه السعادة الكاملة ، فهو يدعو إلى مذهبه فتاتين بديعتى التكوين ، والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حباً خالصاً : حب أخت ترى فى أخيها نبوغاً تفخر به ويزيدها حباً له ، وحب فتاة تصبو إلى ما يدفع الحب إليه كل فتاة وفتى من تخليد الحياة فى أجيال وأجيال ، على أن يكون تخليداً ترضاه الجماعة وترعاه . فإذا انقضت الإجازة عاد إلى ايتون مترفعاً عن الساخرين منه مكباً على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية منتظراً يوماً يعود فيه إلى تلميذتيه يحدثهما من جديد عن مذهب جودوين ويتحدث إليهما عما نكب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة .

وأتم دراساته بايتون وذهب به أبوه فى أكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه بأكسفورد . وفيها تعرف إلى شاب من أمثاله اسمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفهما لكثرة مطالعات صاحبه ولعنايته عناية خاصة بالعلوم والميكانيكا . وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى فى غرفة شلى من الأنابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ما جعلها معملاً عجيباً . لكن هذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك

وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة فى كتاب جودوين . وكان من دواعى عجب هوج أن يكون لهؤلاء المتشككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتجه بطبعه إلى ناحية التأملات الروحية . لكن عجبه هذا لم يمنع إعجابه بشلى الذى كان يخرج معه كل صباح يجوبان الأحراش فينطلق شلى مرحاً يجرى وينط ويلقى بنفسه مقتحماً الماء إذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه إلى علمه وإلى تأملاته ، ويعود كذلك إلى كتابة القصص والنشرات . فلقد بدأ مع ابنة عمه ومع أخته قصة زاستروزى . وهذا هو يكتب قصة أخرى يجعل عنواناً لها (القديسة أرفينى) يروى فيها شيئاً من تفكيراته . ثم هذا هو كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة إلى الإلحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكلى ويعمل لنشرها فى كل مكان لينتهى بسبب ذلك إلى طرده من أكسفورد وإلى هجرة بيت أبيه وإلى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة .

وكان فى وسعه أن يتوقع ما ترتب على هذه النشرة من نتائج ، بل لعله توقعها ولم يحفل بها ، أو لعل الدافع الذى أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته . فقد بعث الناشر ستكديل إلى مستر تموذى شلى خطاباً يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة أرفينى وأن فيها من الآراء ما لا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده . فكتب مستر تموذى للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئاً من نفقات الطبع والنشر . وانتظر حضور ابنه فى إجازة عيد الميلاد ، فلما حضر ألفى الجو حوله متجهماً وألفى الناس من أهل هذه البلاد يتهامسون بالحادث ويزورّون عنه وينأون بجانبهم ، وتحدث إليه أبوه ساعياً أن يقنعه من طريق المناقشة فإذا برسى أقوى منه حجة وأسطع برهاناً ، وإذا الأب يقنع آخر الأمر بأن يقول له فى غضب : إنى أؤمن لأنى أؤمن . على أن غضب مستر تموذى وتهامس الناس وانصرافهم عن شلى لم يؤثر فى نفسه ولا دعاه إلى التفكير فى أمرهم . لكنما أثر فى

نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ماكان من ابنة عمه هاريت . فهو لم يكن يشك فى عمق ما بينهما من حب عمقاً وصل إلى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه أو أن يعدل بهما عما تفاهمت نظراتهما عليه من تقاسم الحياة والإشتراك فى ورد ما فيها من جمال وسعادة . لكنه ما لبث بعد عودته أن تحدث إلى أخته إليزابث ، التى ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منها أنها انصرفت عنه كما انصرف عنه غيرها ، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذى جُنّت من قبل به وجنَّ بها . وعبثاً ذهب شلى وقابل هاريت وحاول إقناعها ، فقد ألفاها أشد حرصاً على المتاع بنعيم الجمعية من ملبس وحلى ورقص ، منها على الأفكار التى يسبح هو فى سماواتها متوهماً أنه يسعد العالم بإقناعه بها . وألفاها أشد حرصاً على علاقاتها بأبويها علاقة اطمأنت لها منذ مولدها منها على صلتها بشاب لا تدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلى الجزع ، فكتب باكياً ثائراً إلى صديقه هوج خطاباً يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تكرهه لأنه متشكك بعد أن كانت هى من قبل متأثرة بتعاليمه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يعفو عنه ، ويعلن أنه ، وإن لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلاً بل واجباً ، وأنه سيكرس كل لحظة من حياته لمحاربته ، لأن التعصب هو الذى يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التى تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذه العذر أنه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماها ، وأن تستل من بين الجوانح حباً قائماً على التفاهم وحسن إدراك الحياة والتوجه إلى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده . وكيف كان له أن يتوقع هذا وقد كان يرى فى الحب عاطفة قدسية تسمو بالنفس إلى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتحلق بها فى أجواء أثيرية تشهد منها

بدائع هذا الخلق جميعاً متجلياً فيما يقع عليه الحس من صور جماله . والحق أن الحب عند شلى كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره . هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفعية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة ، بل كان يريده امتزاجاً روحياً لاستشفاف ما حولنا من جمال هو مصدر الحياة ، وشركة فى حب هذا الجمال فى متباين صوره ومختلف ألوانه . ولعل أجمل ما يستطيع إنسان أن يعبر به عن هذا المعنى ما عبر هو به فى قصيدته (أبيسيشديون) حيث يقول ما ترجمته : «لم أتصل قط يوماً بهذه الطائفة الكبيرة التى يوجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقة وأن يلقى بالباقين ، وإن يك لهم ما لهم من جمال وحكمة ، فى جمود النسيان . . . فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب فى أنك كلما شاطرتهما أخذت منهما وأنقصتهما ، على حين هو يشترك مع الفهم الذى يزداد بريقاً كلما ازدادت الحقائق التى ينبعث نظره إليها . وهو كالخيال يستمد نوره من الأرض والسماء ومن أعماق أهواء الإنسان ومن ألف مرآة وألف ضلع ، ثم يملأ الوجود بالأشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس . ويا ضيق قلب ينحصر حبه ، وعقل يقف تفكيره ، وحياة تنتهى غايتها ، وذهن يقف خلقه عند شىء واحد ، وصورة واحدة ، يبنى لذلك بها قبر خلده» .

إذاً فالدين والعقيدة الإجتماعية والنظام الذى يحصرنا فى دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد ، يبنى لنا قبر خلدنا ، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضى على خير ما فيها من عواطف وأسمى ما فيها من إلهام . فعلى الذين أوتوا ما أوتى شلى من هبة أن يقوموا فى وجه هذا الضيق فى القلب والعقل والذهن وأن يُصلوها من حربهم ناراً حامية .

وعاد شلى إلى أكسفورد كئيب النفس حزين الفؤاد ثائر القلب والعقل معتزماً أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق للتسامح والحب والمغفرة والجمال .

وكان أول ما صنع من هذا أن أذاع نشرته (الحاجة إلى الإلحاد) موقعاً إياها باسم غير اسمه وموزعاً لها على كل من ضيق التعصب دائرة قلبه وعقله . فقد بعث بها إلى رجال الدين وإلى المعلمين وإلى المشتغلين بالسياسة ، ثم عرضها فى مكتبة بأكسفورد لم تلبث أن اعتذرت عن عرضها لأول ما احتج أحد رجال الدين عليها . وقد افتتح هذه الرسالة بقوله «الحس أساس كل معرفة» ، وسار فيها بلهجة ملتهبة يطعن كل قيود الدين ويحطمها . وأبلغت الجامعة أن شلى هو ناشرها ، فسألته فأبى أن يجيب فقررت فصله . واحتج صديقه هوج على هذا التصرف من إدارة أكسفورد ، فتقرر فصله هو أيضاً . وترك الصديقان الجامعة عائدين إلى لندن منتظرين فيها تطور الحوادث وتصاريف الزمن ، مكتفين فيها بغرفة اعتبرها شلى مأواهما الأخير.

ولما علم مستر تموذى شلى بفصل ابنه من أكسفورد ثار ثائره واستشاط غيظاً وبعث له برسالة يخبره فيها أنه لن يمده بمعونة أو مدد إلا إذا هو رجع إلى فيلدبليس وتلقى فيها الدروس على من يختارهم هو له من الأساتذة . فرد شلى على أبيه يرفض فى أدب شروطه . ولم يقنع الأب بهذا الرفض فذهب إلى لندن وقابل برسى وصاحبه هوج وحاول إقناعهما بالحجة ليعدل شلى عما كتب فى رسالته عن الإلحاد . ومع ما سلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقى من ابنه صخرة لا تتزحزح وألفى فيه إباء وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليهما ، فتركه عائداً إلى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهماً . ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن إلى أبيه فينتهى إلى الإذعان . أو لعله كان أشد حرصاً على سمعته منه على فتاه . وعلى أى الحالين فقد ظل شلى مصراً على رأيه مرتفعاً عن أن ينزل عنه مستخفاً بما يتهدده من ضيق ذات اليد ، فما كان المال ليوازى عنده يوماً شيئاً إذا هو تعارض مع إيمانه برأيه . وبقى معه هوج أياماً فى لندن ثم غادرها إطاعة لأبية الذى ألحقه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه . وأقام شلى من بعده فى العاصمة الإنجليزية وحيداً ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد

لنضال الجمعية التى أضطرته إلى عزلته ، مؤمناً بأنه سينتهى إلى الظفر بها والتغلب عليها .

٢ – هاريت وستبروك :

أقام شلى فى العاصمة الإنجليزية وهو أقل تألماً لاختلافه مع أبيه ولمغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدرائها حبه وانفصالها عنه . لذلك كان أكثر تفكيراً فى هذا الحب المحطم منه فيما يقيم به أود حياته . وفيم عسى يفكر من شئون العيش وقد كان قانعاً بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه . فأما هاته التى عقت الحب وعقت آراء جدوين وعقت المبادئ السامية جميعاً ، فهى اللغز الذى يوجب العناية ، وهى الداء الذى يتطلب للبرء منه علاجاً حاسماً .

وأكب يقلب هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل إليه يوماً أنه عثر فى حجة منطقية على الدواء الناجع لها والحل الصريح للغزها . هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف إعجابه عند جمالها . بل لئن أعجب بحسنها على أنه بعض صور الجمال الذى زينت به الطبيعة الوجود ، فإنما كان حبه منصباً كله على سمو ذهنها لإدراك نظرياته ونظريات جدوين فى الحياة ونظامها والتسامح وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته . وهذا هو ذهنها قد فتر عن إدراك ذلك كله وهبط إلى مستوى الأذهان العامة وأصبح شيئاً آخر غير جدير بأى حب أو تقدير . فماذا بقى بعد ذلك منها جديراً بالحب أو دافعاً للتشبث بها والحرص عليها ؟ أو لو عشق إنسان فى فتاة جمالها تراه عاشقاً الدود الذى يحول إليه جسمها بعد انتقالها إلى قبرها ! وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع إلى مراقى ذروة التفكير

والذى اتصل من قبل بذهن شلى وروحه ، وقد اندست إلى قبره ديدان الأوهام والأباطيل . فلينس شلى هذه العاقة إذاً ، وليسلكها فى سلك البائسات الحقيقات بعطفه ورحمته . . لكن . . ! لكن هذه الحجة القاطعة التى أرضت عقل شلى لم تطفئ فى قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراماً . ولعل مرجع السبب فى هذا إلى غدر هاريت لما كان يرجو فى صحبتها من تعاون على محاربة الأوهام المفسدة المندسة إلى نفس الجماعة أكثر مما يرجع إلى شىء آخر . فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة حب على نحو ما يفهم هو الحب . ولذلك لم يطل فى قلبه لاعج الهم ولا ظلت جذوته مستعرة إلا ريثما وجد فى هاريت أخرى ، لا تقل عن الأولى جمالاً ولا ذكاء ، ذلك الإستعداد للسمو معه فى سماوات الجمال والإلحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جدوين فى الدعوة إليه .

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمن فى مدرسة للبنات بحى كلابهام ، وكانت رشيدتهن هلن شلى تتناول من أختها الكبرى إليزابث رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كى تعطيه هلن لبرسى لتعوضه بعض الشىء عن إهمال أبيه إياه ، وكان برسى يذهب إلى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لأنه كان يأبى أن يستأثر بما تبعث به إليه أخته . وما لبث أن تعرف إلى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر فى إقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه . وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامة وأغردهن صوتاً ، وكان جمالها يضىء مزداناً بشعرها الذهبى وخدودها المتوردة وشبابها الضاحك إلى ورود ربيعه ، وكانت ، على أنها فى السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طفلة النظرة يفيض المرح من وجودها كله ويضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروباً ضحوكاً . وقد أتقنت القراءة والإلقاء فزادت عذوبة صوتها وتغريده حياة وروحاً . وعنى أبوها مستر وليم وستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عما

كان هو مفتتح حياته حين كان يعمل فى الفنادق . لذلك كانت شديدة الحرص على الاتصال ببنات النبلاء زميلاتها فى المدرسة ، وكانت أشد بأخوات شلى اتصالاً . فلما رأت الشاب النبيل الجميل برسى يتردد على أخواته وقع من نفسها وتوددت إليه وأظهرت أساها لإلحاده وحاولت أن تصده عنه وأن تقنعه بمثل إيمانها وإيمان الجمعية كلها . لكنها ما لبثت أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو إليه بهاء وجمالاً لا شيء مثلها أو يقاربهما فى تعاليم الكنيسة ورجال الدين . فالحرية الأثيرية الأجنحة الطائرة فى فضاء طلق تسبح منه فى جمال الوجود ناهلة ورد كل ما فيه من صور هذا الجمال الذى يحمل إليها شذى الحب وعبقة فيملأ بهما قلب المستمتع بنعيمها من غير أن يثقله بقيد من زواج أو من تملك أو توارث ، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف ، هذه صورة جذابة ليس لها فيما حفظت من تعاليم الدين نظير ، إلا أن يكون ذلك فى العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التى نحسها ونلمسها . ولو أننا تابعنا شلى لاستطعنا أن ننعم بها فى الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت . فما لهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير فى الموت ، وما لها وإكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة إلى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا العصفور وهذا الإجهاد ما دام رسول الجمال والحب شلى يضع له الجنة فى يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصقل من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة فى جمال صورته ، وفى نبله وثروته الواسعة وعذوبة نفسه وطيبة قلبه وحبه الإنسانية كلها حباً جماً ؟ أوليس خيراً لها أن ترفعها هذه الأيدى الرقيقة الحنون ، أيدى شلى ، إلى جنات الحب ونعيمه ، من أن ينشب الفناء فيها أظافره السوداء لينقلها بعد ذلك إلى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبثت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذة لجدوين ولمن أخذ عنهم جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة فى لحظة أكثر من تلك التى ترى فيها شلى فى

المدرسة أو التى تذهب له فيها ببيته فى شارع بولونيا تحمل إليه ما تعطيها أخته هلن من مال . فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها فى حين كانت هاريت تذهب كل يوم إلى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها .

وكان لهاريت أخت متقدمة فى السن إلى ما فوق الثلاثين اسمها إليزا ، تقوم منها مقام أمها المتوفاة . وقد سرها ما عرفت من صلة هاريت بشلى ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها إلى مصاف النبلاء . لذلك لم يسؤه يوماً مرضت فيه هاريت أن دعت إليزا بشلى إلى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها إلى ما بعد منتصف الليل . وكان من أثر جلوسه إليها أن برئت من مرضها وأن عادت اليوم التالى إلى صحتها وإلى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هياماً وتدلهاً . لكن شلى لم يكن ينظر إليها نظرتها إليه . بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن إلى الاقتناع بآرائه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنة عمه هاريت جروف التى دفنت فى قبر الأباطيل ونخر فيها سوس الأوهام . كان يرى فيها ضياء جديداً غير هذا النور الذى خبا ، وشريكة فيما يسميه هو الإلحاد فى حين هو الإيمان بالعدل والحق والجمال . وإذا هى لم تكن من طائفة النبلاء فلعل فى تحررها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقيدتها الجديدة وثباتها فى إيمانها الذى أوحاه هو إليها . وما أجمله إيماناً يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة .

واطمأنت نفس شلى إلى تلميذته وإلى الحياة وعاوده الرجاء فى صلاح الإنسانية كلها ، وإن كانت هذه الصلة قد أدت إلى فصلها من المدرسة كما فصل هو من أكسفورد من قبل . وزادته طمأنينته هذه شوقاً إلى أخته إليزابث أشد من عرف من تلاميذه إيماناً به وحباً له . وفيما كان يفكر فى الطريقة التى يعود بها إلى فيلد بليس مر

خاله الكبتن بلفولد بلندن وتقابل وإياه. وكان الكبتن رجلا كثير التجوال فى مختلف أنحاء العالم ، فكان لذلك واسع الصدر متسامحاً لا يطيق أن يفهم كيف يؤدى اختلاف أب وابنه فى الرأى إلى تعصب الأب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعاً . فأخذ شلى معه إلى داره بككفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل للابن عيشه . وكانت فى ككفلد مربية هى مس هتشنر رومانية الجمال تتخطى فى طمأنينة إلى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادئ الحرة ولكنها تؤمن بالله . فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه « هذا المرض » وقبلت هى أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الأمر بسحر جماله وعذوبة روحه أكثر من إقتناعها بآرائه مبادئه . واستعان الكبتن بلفولد الدوق نورفلك على التوفيق بين شلى وأبيه . فلم يحتج المستر تموذى لأكثر من كلمة الدوق كى يعود برسى إلى أهله وكى يرى أخته إليزابث . وارتضى الأب أن يرتب لإبنه مائتى جنيه سنوياً لا يقيدها شرط ولا يؤثر ترتيبها فى حرية شلى بأية صورة من الصور .

ولقد فاضت السعادة بشلى فى أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شىء إلا إطفاء شوقه لإليزابث . لكنه لم يلبث إلا قليلاً بعد ما رآها حتى بهت وعلاه الذهول : هل هذه هى إليزابث التى يعرفها ؟ لقد كانت تؤمن بإيمانه وتدين بمبادئه . وكانت عونه على هاريت جروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت إلى مثل أوهام العامة وعقائدها . فكيف بها هى الأخرى تفعل فعلة هاريت وتثور به و بمبادئه وتجعل كل همها أن تجيل الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجائها أن تجد منهم زوجاً صالحاً ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعاً ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الأمومة فى أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصيتهن ، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريزة فيهن باحثات فى أقرب ما يجاورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذى تحمل أرحامهن ؟ وهل

ينسين ساعة بجنهن هذا كل ما يسمو إليه الحب من معان وما يطمئن المحب إليه راضياً من تضحيات فى سبيل تحقيق هذه المعانى ؟ ألا تعساً لنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء ! فهو الذى يقضى على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسى .

وعبثاً حاول شلى أن يعيد إليزابث إلى حظيرته العليا وأن يردها كى تفسر النفس على صور من السمو لا يطيقها إلا الموهوبون الذين أرسلتهم الأقدار للرقى بالإنسانية درجات جديدة فى سبيل الكمال ، وجعلت من جهادهم فى سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم . لقد ذاقت الفتاة ما تقدمه الجمعية من صنوف المتاع وما تقتضى ثمنه إذعان بنيها للنطاق الذى ترى فيه الحفيظ على كيانها . لقد ذاقت هذا المتاع المادى القريب إلى متناول اليد ، وها هى ذى ترى فى الأمومة صوراً أخرى من المتاع لا سبيل لها إلى نيلها إلا بالاندماج فى قطيع الجماعة وتقديس أوهامه وترهاته . أفتنأى بجانبها عن هذا المتاع لتقف من الجماعة موقف أخيها وتنظر إليها العيون شزراً وليسمى القانون متابعتها عواطف قلبها عهراً ؟ كلا ! ولئن كان شلى أخاً صادق الأخوة ، فأول واجبه أن يبحث لأخته عن زوج نبيل غنى جميل تستكمل به كل ما فى مادة الحياة من متاع وتؤدى به للأمومة واجبها .

وييئس شلى من أخته كما يئس من قبل من ابنة عمه ، فلم تبق له لذة فى مقامه بين أهله . وجاءته دعوة من هوج كى يذهب إليه فى يورك ، وأخرى من فتاتى وستبروك وثالثة من خاله الكبتن بلفولد ، ولكنه تردد فى قبولها جميعاً ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه إلى بلاد الغال على شاطئ البحر ، آملاً أن يجد من جمال طبيعة تلك البلاد ومن تلاطم الموج والصخر ما يسكّن ثورة نفسه وما يبعث إلى قلبه السلوان عن مصابه فى ذهن أخته . وفى مقره الجديد نصب نفسه رسولاً يدعو إلى الحرية والحق والتسامح ، فى رسائل كانت تستنفد أكثر وقته يكتبها إلى هاريت

وستبروك وإلى مس هتشنر وإلى هوج وإلى غير هؤلاء ممن يأنس فيهم ميلاً إلى الرقى نحو الكمال . ولم يطل به المقام فى عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها إلى المدرسة التى فصلت منها ويطلب إليها أن تنكر تعاليم شلى كى ترضى ناظرة المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعتزمت أن تنتحر كى لا تلبى ما يريدونها عليه . فرد شلى عليها يسكن من روعها وبعث إلى أبيها يلومه لما يحاول من إكراه الفتاة عليه . وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذى كان راضياً من قبل عنه مغضياً عن تعاليمه حين كان يحسب أنه سيتزوج ابنته ثم إذا به كغيره من أبناء النبلاء يغرون الجميلات من بنات الطبقات الأخرى ثم ينأون عنهن ازدراء لمنبتهن . ولم تطاوع هاريت أباها على أن يكون ذلك شأن شلى ، فكتبت إليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلت عن فكرة الإنتحار ، ولكنها تريد الفرار معه . فترك الغال حين تسلم رسالتها وذهب إلى لندن كى يحاول إقناع أبيها بأن لا حق له فى إكراه ابنته على غير ما تريد ، آملاً أن تبقى الفتاة فى رعاية مستر وستبروك مع بقائها مؤمنة بالحياة الجديدة التى أختار هو لها سبيلها . فلما رأته الفتاة تعلقت به وألحت عليه كى يفرا معاً ليقيما حيث يشاء ، وحاول هو أن يردها عن رأيها فكان جوابها : لكنى أحبك ولا صبر لى على بعدك .

هنا وجم شلى . وزاده وجوماً اللهجة الصادقة القوية الملتهبة التى اعترفت الفتاة فيها بحبها إياه . لكنه هو لم يحبب منها عذوبة صوتها ولا جمال تكوينها وإنما أحب منها سمو ذهنها وجمال روحها ! على أنه اهتز مع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عمه وعلى أخته . إنها تحبه وتريد الفرار معه مزدرية أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه فى نضالها لهدايتها وإصلاحها . فلم يستطع فى تداول نفسه بين اهتزازها إعجاباً بهذا الإعتراف ، وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذى تريد الفتاة أن يبادلها مثله ، إلا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روعها وأن يعدها

بصدق إخلاصه لها وأنه سيكون إلى جوارها عند أول نداء يصله منها . وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها شحوب جاءته به أيمان أقسمها أبوها بأن شلى ضلل بها وأنه لا يحبها ، وليعود إلى لونها تورده وإلى وجودها شبابه وفرحه .

وكتب شلى يقص على هوج ما حدث . فأجابه صديقه ناصحاً إياه ألا يفر بالفتاة إلا أن يتزوجها . وإذا كان لا يؤمن بالزواج ويرى فيه نظاماً تعساً ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة تحبه . فلن تصيبه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى . أما هى فستكون إن لم تتزوجه منظوراً إليها بعين الإزدراء حيث سارت ، مغضوباً عليها من أبيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك بألم قد يجنى فى نفسها الطفلة على حبها إياه . فإذا كان شلى لينفذ سادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان يكون مصيرها ؟ أفلا يكون بهذا مسلماً إياها للتعس والشقاء وتكون التعاليم التى يريد بها سعادة الإنسانية مؤدية بالفتاة إلى البؤس والسقوط لغير ذنب إلا أنها أحبته ؟ . .

وصدمت شلى قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد فى وعده الفتاة أن يكون إلى جانبها لأول ما تدعوه إليها . لكن الفتاة لم تمهله فى تردده بل بعثت إليه بعد أسبوع من تركه إياها تدعوه إليها . ولم تطل فى نفسه المعركة بين المبدأ والواجب . فذهب إليها مذعناً للواجب معتزماً أن يفر بها وأن يتزوجها تاركاً بين يدى القدر ما يؤول إليه أمرهما من بعد .

وغادرا عاصمة إنجلترا قاصدين عاصمة ايقوسيا وقضيا فى سياحتهما أياماً شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى إلى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه . لقد فر عصفوره معه طائراً عن العش الأبوى حباً له وغراماً به ، فلم يك حديثها معه عن الحب هذا الحديث القديم يسموان فيه إلى التفكير فى المعانى التى يريد هو أن يحيط الحب بها ، بل أصبح حديث غرامها هى وتدلهها ، وأصبح حديثاً دلالة الألفاظ

فيه دون دلالة النظرات والبسمات والقبلات . ها هى ذى تستيقظ إلى جانبه فإذا عيونها إليه معسولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى ، وإذا أذرعها تطوق عنقه وأصابعها تعبث بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعداً إلى قلبها كى يبعث بها إلى فمها فتطبعها على فمه قبلة فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها . وها هى ذى النهار كله تشدو إليه بأغاريد حبها وهواها ، ثم ها هى ذى الليل تطوق ثغرها ابتسامة السعادة ويهفو إلى أذنه ترددها لأسمه حين أحلامها بهنائها ونعيمها . لذلك لم يكادا يصلان إلى ادنبرة ويختاران فيها مسكناً حتى أتم زواجه منها وملكه إياها . وكذلك قضيا أياماً نسى فيها شلى نفسه ورسالته واستسلم فيها بكله إلى المتاع بحب هاريت حباً بعث إلى كل ما يحيط بهما من بحر وشجر وجبل وزهر شذى جعلها تضوع بريح الحب هى الأخرى وتزداد على جمالها جمالاً وسحراً .

ثم آن لشلى أن يعود إلى تأملاته وتفكيره ، فإذا هاريت فى شغل عنها بحبها له وعبادتها إياه . فإن هى شاركت فيها كانت صدى له يرد إليه تأملاته هو فى صوت عذب وحديث حلو . لذلك ود شلى ، مع اطمئنانه لعزلتها وسعادته بحبها ، لو أن صديقه هوج كان معها . وكأنما كانت الأقدار فى هذا طوع رجائه . فلم تك إلا أسابيع بعد عودته إلى التأمل والتفكير حتى جاء هوج فى إجازة له يقضيها عند صديقه . وقد بهرته روعة جمال هاريت إلى حد كاد معه يمل حديث شلى وبحوثه ونظرياته . وسر شلى بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هاريت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته . فلما آن لهوج أن يعود إلى يورك اقترح عليهما أن يذهبا وإياه لها . وسافر ثلاثتهم فلم يجد شلى فى يورك جمالاً يغذى روحه الدائمة الظمأ للجمال . وزاده هما أن لم يصله من أبيه المال الذى أتفق على أن يبعث له به فسافر إلى ككفلد ليرى خاله الكبتن بلفولد وترك زوجه فى حماية صديقه إلى أن يبعث إليها باخته . ولم يملك هوج نفسه من أن يذكر لهاريت أنه يحبها . فصدته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه

يوماً واحداً ، أن حضرت أختها فى اليوم الثانى فحالت بينهما . ولما جاء شلى وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافراً ومعه زوجه وأختها اللتان رأتا فى صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه . وعاد هوج من مكتب المحامى الذى يشتغل فى رعايته فألفى المنزل خلاء وإن لم يخبره بالسفر أحد .

واختار شلى الذهاب إلى منطقة البحيرات إذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوذى وكولردج . وكان شلى قد بدأ يقرض الشعر ، فهو يطمع فى مثل عظمتهما ويرجو أن يكون من شعراء منطقتهما . ولما كان دوق نورفلك يقيم كذلك فى هذه المنطقة ، وعلم بمجىء شلى إليها ، فقد كتب يدعوه وزوجته إلى قصره . وهناك عرف صديقاً لسوذى ذهب به إلى بيت الشاعر الذى كان يحل من نفس شلى أسمى مكانة وأرفعها . لكن شلى لم يلبث أن تولته الدهشة حين ألفى زوجة سوذى أبعد ما تكون عن إلهام الشعر وإن كانت ربة دار مضرباً للمثل . ولما دار بينه وبين سوذى الحديث ، بهت مما سمع . فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول إنه متدين وإنه مسيحى ! وهو يحب المال ويطمع فى كسبه ! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجباً ؟ ثم ماذا ؟ ثم عثر فى مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك إنجلترا بأنه خير ملك جلس على عرش . وعلم أن سوذى يقصد من هذا إلى أن يخلع عليه الملك ألقابه . إذاً فهو رجل يسخر ضميره لمطامعه ولا يرجو من الحياة إلا ما يطفىء ظمأه لنعيم المادة . إذاً هو لا يستحق احتراماً ولا تقديراً . ليكن له من ملكة الشعر ماله ، فلن توحى ملكة أياً تكون باحترام صاحبها إذا نزل بأخلاقه وبعمله فى الحياة إلى المستوى الوضيع الذى لا يطمع الناس منه إلا فى كاذب الجاه وفى اكتناز المال .

أما سوذى فعجب لأمر شلى وصلابته فى رأيه وإن لم ير فى ثورته بالدين إلا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذكى جميعاً ثم يعودون إلى نوع من

الإيمان له روعته وجلاله . بل لقد كان شديد الإقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلى ، لأن نفسه نفس شاعر ، ونفس الشاعر لا تطيق الإلحاد وما يصور الإلحاد من عدم ، ولأن نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلق ، ولأنها جميلة فلا معدى لها عن الإيمان بالجمال ، ومن يدرى أى مصير كان قد أعده القدر لإيمان شلى لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العمر حتى رأى من عبث الأقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى ! !

وكان من حظ شلى ألا يفجعه القدر حتى يسرع إلى أن يعوض عليه فجيعته . فكما عوضه عن هاريت جروف بهاريت وستبروك ، كذلك عوضه عن سوذى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من إيمانه بسوذى . فقد عرف إذ ذاك أن وليم جودوين حى يرزق وأنه يقيم بلندن وأنه يستطيع أن يراه . لذلك سارع فكتب إلى مؤلف (العدل السياسى) رسالة كلها الإعجاب به والرجاء فى الإستماع له على أن شلى كان يومئذ فى شغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كى يسرع إلى لندن للحاق بأستاذه الروحى العظيم ، ذلك أن الكاثوليك من أهل أرلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة ، سببها أنهم على غير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية . فكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للإنسان ، وقد رأى شلى فى هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم وليناى بالمساواة بين الناس جميعاً لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلاً على غيره ، وليشن الغارة على رجال الدين وما يدعون إليه من تعصب ، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يردها رجال الدين إليهم بدعوة الناس إلى تقديس عروشهم والإذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخيرهم ، ولهذه الغاية وضع نداء مطولاً دعا فيه إلى مبادئه ، وفى مقدمتها التسامح ، وإلى هذه الأفكار التى خلفتها الثورة الفرنسية وراءها . لكن الثورة كانت قد أخفقت فى نظر الناس من أهل ذلك العصر ، لأنها

بعد ما قامت فداء للحرية والمساواة وبعد ما قدمت من تضحيات وبعد ما قضت عليه من رءوس أطاحتها وثروات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاماً لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسته إمبراطوراً على عرش الجمهورية . وسر إخفاقها فى نظر شلى وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه أنها اعتمدت لتحقيق غاياتها على القسوة والعنف ، فمهدت السبيل لنفور الناس منها وتنفسهم الصعداء لإنقضاء عهدها . ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبرالإنسان بالإنسان وتفاهم الأخ مع أخيه أساساً لها ، لحققت على الأرض كل غاياتها وإن احتاجت إلى زمن أطول مما كان يقدر رجالها لنجاحها . ولهذا دعا شلى إلى مساواة الكاثوليك بسائر الإنجليز فى الحقوق والتكاليف ، طالباً إلى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم فى هذا من غير أن يلجأوا إلى عنف أو دماء . واتخذ مقراً لدعوته فى دبلن بيتاً أقام فيه مع هاريت وإليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتهب لهذه المبادئ السامية . وقد خيل إلى بعض أصدقائه أن البوليس لابد أن سيقبض عليه وأن أهل أرلندا سيلتفون حوله . لكن هؤلاء سخروا من رسول حريتهم الذى لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفى زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعابة وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لهما ولا يعبأ بهما . والحق أن شلى كان مخطئاً كالذين رأوا معه أن إخفاق مبادئ الثورة الفرنسية يرجع إلى التجائها للعنف والقسوة . فالثورة الفرنسية ، ككل ثورة غيرها فى العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادئ التى أعلن أهلها أنهم يريدون تحقيقها . بل هى بدأت أول أمرها لأسباب اقتصادية بحتة . وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم إذا تحققت المبادئ التى أعلنوها . فلما دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين ألقت إليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون فى الطريقة التى يسعد الناس بها تناولوا المبادئ التى كان الناس من قبل يقرءونها فتلذهم قراءتها من

غير أن يؤمنوا بها ، وكان كثير من حكام المصادفة أولئك أقل الناس إيماناً بفائدة المبادئ التى أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف فى سبيلها ، لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة فى أيديهم وتخلصاً ممن قد ينازعهم إياها . فهم إذن متعصبون لمصالحهم كرجال الدين ممن يحاربهم شلى سواء بسواء ، لكنهم وحدهم هم الذين يوصلون هذه المبادئ السامية إلى ذهن الجماهير ، لأن الجماهير لا تفهم إلا اللغة الدموية الوضيعة : لغة القسوة والإرهاب والبطش ، ولو أن شلى استطاع أن ينزل من سمائه العليا إلى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به ولهتف له ولتابعه ولولغ وإياه فى الدم ولابتهج لهذا المنظر الذى يحرك فيه حيوانيته الأولى ثم لثبت قليل أوكثير من هذه المبادئ فى ذاكرته يستظهرها بعد رجوعه إلى وعيه . أما وشلى يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الإنسان للإنسان وتسامح الإنسان مع الإنسان ، فلا مطمع له فى أكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته .

وعبر شلى وصاحبته البحر من جديد إلى بلاد الغال يائساً من أولئك الكاثوليك الذين لا يفهمون ، وظل يتنقل فى مختلف بلاد الشواطىء البحرية زمناً لم يهتد فيه إلى مسكن يسر به ، فغادرها متجولاً فى نواح مختلفة حتى أهتدى فى لنموث إلى منزل أعجبه فأقام به : أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيدها عنده جمالاً عزلتها وقلة أختلاف الناس إليها . وفى هذا المنزل قبلت مس هتشنر دعوته فجاءت لتقيم معه . وألحق أنه كان بحاجة إلى صديق روحى يبادله الرأى ويدرك وإياه صور الحياة . فلقد ظلت هاريت طفلة ، ولم تزد على ماكانت عليه تلميذة . وكان هو يومئذ فى بدء نشاطه الشعرى يضع أولى قصائده الكبرى المعروفة فى ديوانه (بالملكة ماب) أودعها ما وصل إليه من فلسفة . وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آراءه . . فلما حاول يريد أن يجد من هاريت ذلك الشخص تبدى له أنها لا تتذوق الشعر

ولا تفهم الفلسفة . لذلك طار سروراً من مجىء مس هتشنر وطلب إليها أن تزيد فى تهذيب زوجته . ولعل هذه كانت طلائع التباين فيما بينهما تبايناً ينتهى إلى الإفتراق وإلى انتحار هاريت غرقاً ويدس إلى حياة شلى همًّا ناصبًا يظهر أثره من بعد فى كثير من شعره .

٣ - بعض نثره وشعره :

أقام شلى بالمنزل الذى اختاره فى لنموث ومعه زوجه هاريت وستبروك وأختها إليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢ . ومن لنموث وجه شلى إلى القاضى لورد اللنبرا خطاباً كان أعظم أثراً وأشد وقعاً من كل ما حاوله فى أرلندا ، وكان وما يزال ينبىء عن قوة شلى فى النثر بما لا يقل عن قوته فى الشعر . فقد حكم هذا القاضى على مستر إيتون بالسجن والتعذيب ، لأنه نشر كتاباً يطعن على المسيحية وينكر فيه المعجزات والبعث ، ويرى فى التثليث نظرية لا يقبلها العقل . ولم يدر بخلد أحد أن يجعل من هذا الحكم موضع طعن أن كانت للأحكام فى كل أمة قداستها . على أن كتابا فى فرنسا وفى غير فرنسا ممن يعجب بهم شلى لم يترددوا حين رأوا فى الحكم ظلماً عن أن يكرسوا الكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لإعادة النظر فى الدعوى . وهذا فولتير جعل من قضية كالا الذى حكم عليه على إعادة وبتجريد أبنائه من ثروتهم موضعاً لحملة انتهت بإعادة النظر فى الحكم وبإعادة شرف كالا إليه بعد إعدامه وإزالة ما ترتب على الحكم الأول من نتائج بالنسبة لأبنائه وورثيه . والحكم على مستر إيتون أجل فى نظر شلى خطراً ، فهو لا يقتصر على إدانة إنسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقيد العقل بقيود تضطر حر الرأى إلى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى المواهب الذين تبعثهم الأقدار ليداوموا السير بالإنسانية

إلى ناحية الكمال . لذلك وجه إلى اللورد اللنبرا خطابه القوى مفتتحاً إياه بقوله :
« مولاى – أما وللمركز الذى دعتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة عليه هى لذلك أعظم خطراً . ويجب لذلك عليك مداومة النظر فى أنك لم تحكم خطأً بالعقاب على فاضل أو بالمكافأة لناقص . . . وصحيح أن القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية إياك بسبب الحكم الذى أصدرته على مستر إيتون . لكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الأمة عليك وعدم موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الإعقاب عليك إذا كان للإعقاب أن تعنى بذكر شأنك » . ثم ينطلق شلى مندفعاً : « لكن بأى حق تعاقب مستر إيتون ! ليس هنالك إلا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هى التى يمكن التذرع بها لإهانة الإنسانية والعدالة هذه الإهانة المزرية . فأى رجل أضربه مستر إيتون ؟ وأى جريمة أرتكب ؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس ، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذى أتهم بأنه لم يرتكب ما يشين شرف إنسان ؟ » ويسوق شلى الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم وإخاء الإنسان للإنسان والوسيلة الوحيدة لإستعلاء الحق والفضل ، وأن التعصب والاضطهاد لم يجرا على الإنسانية إلا ويلات كانت أداتها أمثال لورد اللنبرا .
ويسوق هذه الحجج فى لهجة قوية تظهر فى مثل قوله :

« إن نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه إلا اضطراب المنطق فيه ، فالمطابع مثقلة بما يسمى (تهكماً فيما أظن) الأدلة المثبتة للمسيحية ، وهى كتب حافلة بالمطاعن والأكاذيب على منكريها ، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من الإدراك والشعور ، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الأباطيل الشائعة المنفرة ، مبادئ أولية صحيحة ، ومن النتائج المستخلصة من هذه المقدمات

المفترضة ، بنى شاهقة المنطق . ولكن إذا كان الأساس واهياً فما الحاجة إلى مهندس ينبئنا بتداعى البناء ؟ وإذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب ؟ وإذا كان الموجود من الكتب كافياً لإثباتها فما وجه الحاجة إلى جدل جديد ؟ وإذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ وإذا كانت المسيحية ينقصها علم أعمق وبحث أشق لإثبات حقيقتها ففيم اللجوء إلى القهر فيما لا يسع سوى العقل الإنسانى أن يؤديه على وجه يرضيه ؟ »

وهو يعود بمثل هذه اللهجة ، ناعياً على التعصب داعياً إلى التسامح ، محاولاً التدليل على أن الإضطهاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره إلا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الإضطهاد به ، على نحو تقديس المسيحيين لعيسى لغير شيء إلا تعذيب اليهود إياه ، وذلك حين يقول :

« من الحقائق التى لا سبيل إلى نقضها أنه لو لم يكن اليهود همجاً متعصبين ، أو لو أن عزيمة بونتياس بيليت كانت كصراحته ، لما استطاع الدين المسيحى أن يستفيض ، بل لما أمكن أن يوجد. فيا من أعز آرائه عليه رهن بمثل هذا الخيط الضعيف ، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك ! تعلّمْ على الأقل التواضع ، وأعترف بأن من الجائز أن تكون تربيتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض ، واعترف كذلك على الأقل بأن فساد رأى أخيك ليس بالسبب الكافى الذى يجعله أهلاً لكرهك . أمن أجل أن إنساناً مثلك ينكر أن عقيدتك معقولة ، يكون حقيقاً بعقاب التعذيب والسجن ؟ وإذا سلمنا بجواز الإضطهاد الدينى فما أوسع الباب الذى يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على سلم المجتمع وسلامه ! وأى وحشية وفظيعة دموية لا تنقلب مباحة ؟ ولكنى أسأل : أليس ذلك الرجل الذى

ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه ؟ لأنه إما أن يثبت زيفها وعقمها (وبذلك يقضى على ما هو زائف ولا طائل تحته) وإما أن يتيح لأنصارها الفرصة لإثبات صدقها وجمالها . وهذا – على التحقيق – لا يمكن أن يكون جريمة . فإن من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجرىء فى كبرى المسائل التى ترجع فى مرد أمرها إلى طبيعتنا الأخلاقية ، يكون أجدر بتشجيع المشترعين المتنورين منه بأن يحيق به انتقامهم . وأحب أن تعلم يا سيدى اللورد أن أغلال الحديد لا تقيد ولا تخضع روح الفضيلة . وأنها تسمو فوق وحشية المحابس وقسوتها ، وترتفع حرة جريئة إلى حيث لا تقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الفخم فى القضاء . ولست أدعوك لتحذر أن تنسيك مسيحيتك أنك إنسان ، ولكنى أعظك أن تستعجل ذلك العصر الذى يقبل علينا مسرعاً فى ظل نظام القهر الحاضر ، والذى تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة ، وتكون السجون منازل لكل ما هو شريف وصادق » .

ويصل إلى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك فى عبارة بالغة غاية الإبداع ، حين يقول :

«سقى سقراط السم لأنه اجترأ أن يكافح الخرافات التى كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ما عتمت أثينا بعد موته بقليل أن تبين لها ما فى حكمها عليه من الظلم فانتصفت له من متهمه «مليتاس» ورفعت سقراط إلى قريب من مراتب الأرباب .

«وصلب المسيح لأنه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل بها ما هو أدنى إلى الإنسانية وأشبه بالخير . ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءة ساحته ، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبى إلا الفعلة الشنعاء ، فسرح براباس القاتل الخائن وقدم

المسيح الوديع المصلح قرباناً لإله اليهود الدموى . ثم مضى الزمن وتبدلت الأحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء على عادتهم من التطرف – يرون فى صلب المسيح خارقة . ولم تعوزهم شواهد المعجزات وآياتها – وما أكثرها فى عصور الجهالة – ليثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت هذه العقيدة فى النفوس مع العصور والتقت بأحلام أفلاطون ومنطق أرسطاليس ، واكتسبت القوة والسعة والإمتداد حتى تقررت ألوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجلبة للموت ، والشك فى صحتها جريمة وعاراً .

«والمسيحية الآن هى الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع فى ذلك فعليه أن يوطن نفسه على أن يرى السفاكين والخونة يتقدمونه فى أعتبار الرأى العام . إلا إذا كانت عبقريته كفاء شجاعته وآزره من ظروف الأحوال ما يكفل له أن ترفعه الأجيال المقبلة إلى مصاف الآلهة وأن تضطهد الناس باسمه وفى سبيله كما أضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه إلى الفوز بعبادة العالم» .

ثم يختتم خطابه بقوله :

«إن الزمن ليقترب مسرعاً حين يعيش المسلم واليهودى والمسيحى والمؤمن والملحد معاً فى جمعية واحدة يتقاسمون متساوين ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتحدون مرتبطين بروابط الإحسان والحب الأخوى . وأرجو لمولاى اللورد أن يرى ذلك اليوم» .

ولما أتم شلى خطابه هذا حاول العود لإتمام قصيدته «الملكة ماب» . لكن حياة لنموث بدأت تثقله وتدفع الملال إلى نفسه ، ذلك أن الغيرة دبت إلى نفس زوجته من مس هتشنر فرأت فيها منافساً لها دس الهم إلى حياتها . وربما وجد شلى الوسيلة إلى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته فى تفكيره وإلهامه ، بما يزيده تحليقاً فى سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعان وألوان . وزاد

فى همه أن رأى هاريت لا تتابعه فى جولات خياله وذهنه بما يزيده قوة على قوته وسمواً على سموه ، بل وقفت تتلفت إلى ما حولها تبتغى من متاع الحياة مثل ما ابتغت من قبلها أخته وابنة عمه . حينذاك أيقن شلى أن لا سبيل للبقاء فى وحدة الريف واعتزم العود إلى لندن عله يجد فى الجماعة مسلياً عن هذه العواطف الوضيعة التى بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفى مقابلة جدوين منشطاً لروحه فى توثبها للعمل على سعادة بنى الإنسان إخوته . واختار فى العاصمة فندقاً صغيراً أقام وصحبه فيه . ثم ذهب مع زوجته فى يوم من أكتوبر يزور أستاذة فى موعد حدده . وكان جدوين يقيم بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتباً للأطفال ويبيعها . ذلك أن مكانته التى بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسى) والتى دعا فيها إلى هدم نظم الزواج والأسرة والنزوع إلى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم . فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب قسيساً خرج على زمرته وأطلق العنان لفكره . لكنه ما لبث بعد ذلك أن تزوج من مارى ولستنكرافت التى ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها مارى وابنة أخرى من زواجها الأول هى فانى املاى . ولم يمض على موتها حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدى إعجابها به ، وكانت ذات ابنة من زواج أول هى جين كليرمون . وقد اجتمعت الأسرة فى انتظار زيارة شلى وزوجته لم يتخلف منها إلا مارى ، التى تزوجها شلى من بعد ، لأنها كانت على سفر فى ايقوسيا . وقد ربطت هذه المقابلة الأولى بين شلى وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط . على أن فانى وجين ، وكانتا فتاتين ذواتى جمال وعلم ، ما لبثتا أن رأتا شلى واستمعتا إليه حتى أظهرتا غاية الإعجاب بجمال نفسه وسمو ذهنه ومتوقد خياله ، وحتى شعرت كل واحدة منهما فى أعماق نفسها بميل نحوه دفعها إلى التقرب منه والعمل لاجتذابه ، وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر .

ومن طريق أسرة جدوين تعرف إلى أسرة نيوتن . وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية إلى حد ملك لب شلى . وكيف لا تملك لبه ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فطبقت فى كثير من نظم حياتها مبادئ الإنسانية التى أعلنتها الثورة . لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم وكانوا جميعاً يميلون إلى ناحية الحياة الطبيعية التى دعا روسو إليها بقدر ما تسمح به ظروف الحياة . ومن ذلك أن كانوا يتركون أطفالهم عراة ما داموا فى الدار . وقد قارضوا شلى إعجاباً بإعجاب وتقديراً بتقدير . وشاركتهم فى ذلك أخت لمسز نيوتن تدعى مدام دبوا نفيل تربت هى وابنتها فى فرنسا ونشأت على تعاليمها . وكذلك استطاع أن يجد فى المدينة منجاة من تلك الوحدة التى أثقلت كاهله فى لنموث والتى اضطرته إلى هجر تلك البقاع الجميلة المحبوبة التى ألهمته خطابه إلى لورد اللنبرا والتى كان يتمنى لو أتم فيها قصيدته (الملكة ماب) .

وزاده أنساً إلى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته ، أو أختها إليزا على وجه أصح ، أن تجعل عيش مسز هتشنر معهم محالاً حتى لتطلب هى مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلى إياها من انقطاعها عن المدرسة التى كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت أنها علقت بها لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة . ولقد اقتطع لها شلى من أربعمائة الجنيه التى كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها برًّا بها وتقديراً لتبعته فى دعوتها . وعلى أثر سفرها عاد إلى جو الأسرة طمأنينته وعاودت هاريت ابتسامتها وعادت هى إلى تغريدها . ومع ما كانت تلمع إليه بعض فتيات جدوين من ميلها إلى التجمل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية ، ومع ما كن يتهامسن به مشفقات على شلى من أنه لم يتزوج الشابة التى تسعده وتلهمه ، فقد ابتهج هو بعودها إليه وفتح لها من جديد كل قلبه . ثم زاده بها شغفاً أنها حملت ، فود أن يستعيد وإياها ألوان متاعها السابق . لذلك هجر

العاصمة ومعهما إليزا وسافرا إلى إرلندة وإلى الغال لا يبتغيان من رحلتهما هداية أحد ولا الدعوة إلى جديد ، وإنما يرجوان أن تحدثهما أماكن شهدت غرامهما بأهازيج هذا الغرام لتزيد فى أنغامه الثائرة من حنايا جوانحهما ما يزيدهما صبابة وهوى . وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين إلى حبهما . على أن ما دعا فى الحقيقة إلى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلى جعلته يحس فى أعماق نفسه من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئاً قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل بين قلبيهما وأن يبتر صلة حبهما . وكان رجاؤه أن يعود إلى ملك عصفوره إذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن أحداً ينازعه فيه . وكان رجاء هاريت أن تعود إلى ملك صاحبها وأن تنزل به إلى مستوى الناس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها .

وتقدم بهاريت الحمل ، فلم يك بد من عودهم إلى العاصمة مرة أخرى . ووضعت بنتاً أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصاً على صلاتها بالجمعية وعلى محاكاتها إياها . وفيم كان زواجها من حفيد البارون شلى صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة إذا كانت لا تطمع فى حياة ضريباتها النبيلات ، بل فى حياة العامة من الناس ؟ ولعلها كانت لا تغلو فى هذا الميل لو أن أختها إليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها إلى أن ذاك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلى . واضطر هو آخر الأمر إلى الإذعان لمشيئتها ، فاقتنى لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة إلى بائع الحرائر وأخرى إلى صانعة القبعات . ثم ألحت عليه ، وعاونتها إليزا فى إلحاحها ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه . واضطرته ، فكتب له يرجو زوال ما بينهما من قطيعة . لكن هذا السعى أخفق بعد أن أصر مستر تموذى على أن يعلن ابنه النزول عن آرائه والعود إلى حمى الجمعية ونظامها . وأحفظ رفض شلى شروط أبيه قلب إليزا وقلب هاريت وزاد فيما بين الرجل وزوجته من شقة خلف كان

لا يزيدها تعاقب الأيام إلا انفراجاً . وكان من أثر ذلك أن جعل شلى يجد المسرة فى مقامه بين أسرتى جدوين ونيوتن وفى السفر وحده إلى حيث تقيم مدام دبوانفيل مع ابنتها كورنليا ترنر يقضى فى ضيافتهما أياماً وأسابيع . بل لقد أقام عندهما فى إحدى الضيافات شهرين متتابعين تاركاً هاريت وأختها ينعمان بما تشاء أهواؤهما التى هوت إلى مستوى أهواء الجماعة الإنسانية ، وكان إعجابه بكورنليا يزداد يوماً فيوماً حتى انقلب حبًّا وحتى فكر فى اختيارها رفيقة حياته .

لكن أسرة نيوتن كانت ، برغم حريتها فى التفكير وتطبيقها صور تفكيرها فى طعامها وفى حدود المنزل ، أسرة أرستقراطية النزعات فى علاقتها المدنية ، فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلى فى مخالطة كورنيليا . وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادته بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من عذوبة النفس وسمو الإدراك مالم يكن يجده إلا فى جماعة جدوين . على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو إلى حد عن تكرار زياراته لهؤلاء وأولئك وأكب حتى فرغ من (الملكة ماب) وقد أودعها كل مادار فى نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه فى أثناء مطالعاته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التى ظن أن القدر ألقى عليه إبلاغها للناس . وكم كان غضبه لتدهور عقلية الجماعة شديداً حين قابلت (الملكة ماب) بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا فى الشعر نجم شلى . بل لقد ظلت حتى اليوم منظوراً إليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من معجزات الشعر بكثير .

ولقد كان واجداً عن فتور الجمهور بإزاء قصيدته عزاء لو أنه وجد فى هاريت أو فى غيرها عطفاً عليه يقوى عزمه ويشد قلبه . لكن هاريت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت فى إهماله حتى لم تأب الظهور فى الجمعية مستندة إلى ذراع الضابط رايان الذى جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها إليزا معرفة قديمة . وقد حاول شلى أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار إلى أعمق مما انحدرت إليه ،

لكنه ألفى هذا القلب تحجر فلم تعد تهزه بإزائه عاطفة ولايحركه نحوه ذكر للماضى ولارجاء فى المستقبل .

وإنه لفى يأسه من هذه الناحية إذ أقبل عليه جدوين يستعينه فى متاعب مالية أعانه شلى من قبل فى مثلها . وطار شلى إلى داره راجياً أن يجد فى صحبة جين وفانى بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة جبهما . ولم يخنه القدر ولا نبا به حظه هذه المرة . فقد طالما تحدث إليه جودوين عن ابنته مارى وذكائها ونشاطها وحبها المعرفة ومثابرتها على النهْل من موارد العلم ، ولطالما وصفتها له جين وفانى على أن ذكاءها يعدل جمالها . وما كانت أشد حاجة شلى ليجد الملاك الذى يجمع إلى الجمال الذكاء وإلى عذوبة الروح سمو النفس وإلى طهارة الضمير عظمة القلب ، والذى يضىء جمال وجهه بما فى الوجود من قوى الفضل والخير الكمينة مبعثرة فى ثناياه . ماكان أشد حاجته إلى أن يهب كل ما فى قلبه من حب للوجود لتلك الجميلة التى تضىء وجهها بكل جمال الوجود . وألفى مارى ساعة وصل إلى بيت أبيها قد عادت من ايقوسيا وجلست بين جين وفانى اللتين قدمتاه إليها وذكرتاه بحديثهما عنها كما ذكرتا له أنهما حدثتا أختهما عنه . ولم تك إلا سويعة تحدثت مارى إليه فيها حتى سحرته عن نفسه ، فجعلته يرى فى جمالها وشبابها ورقتها تلك الرشاقة النسوية مجتمعة إلى النشاط والطلعة الذهنية التى تميز الشبان ، اجتماعاً كان يراه دائما صورة الكمال الإنسانى فى خير ما يستطيع الفن أن يكون . والحق أن مارى كانت ذكية الجمال تنطق قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوى عليه جوانحها من أنفة ، وتنم عيونها الكستنائية اللون عن شىء من الألم لم يعرف شلى مصدره إلا بعد ما علم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتستودعه همها وشجنها ، وقد أجابت طلبته أن يصحبها كل يوم إلى هذا القدس تنطوى صفائحه على أقدس حب امتلأ قلبها به منذ طفولتها . وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جعلا كل يوم

دأبهما الصلاة له : ارتبطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبه حتى آخر دهر.

ولما علم جدوين بما بين ابنته وشلى حال بينهما ومنعه عن بيته ، فأجج بذلك نيران قلبه وجعله يعتزم اصطحابها والفرار وإياها ، وأيقن أن لن يؤنبه ضميره من ناحية هاريت بعد ما ظهر منها أنها لا تعنى بغير ماله . فدعا بها من الريف إلى لندن وأخبرها بعزمه وبأنه جعل لها راتباً يكفيها عيشها . لكن العصفور رقيق التكوين فلم يحتمل الصدمة فرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه إليه فلم يفلح أن كان قلب صاحبه قد أصبح فى ملك غيره .

٤ – مارى جدوين :

كانت أبواب أوربا قد فتحت أمام الإنجليز بعد ذهاب نابليون إلى إلبا ، فلما أبلت هاريت من مرضها اتفق شلى ومارى وصحبتهما جين ،أن كانت تشعر بميل نحو شلى ، فسافروا إلى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن. على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطئ بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها إلى بيت صغير على شواطئ التمس أقام ثلاثتهم فيه . ولقد أدى هذا الفرار ومعاشرة شلى لمارى من غير زواج بينهما لمقاطعة جدوين إياه وتحريمه بيته وعلى اللتين فرتا معه ، وذلك برغم ما كان لشلى على جدوين من فضل إمداده بالمال فى ظروف كان هو وزوجه هاريت فى أشد الحاجة إليه . بل لعل هذا الإسراف من جانب شلى كان أهم ما غير قلب عصفوره عليه ودفعها إلى الحرص على أن تمتع من الحياة بما يمتع به غيرها من مثيلاتها مما كان يراه زوجها سخفاً غير لائق بالنفوس السامية . ولم يكن جدوين وحده هو الذى قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومدام دبوانفيل ، وانقطع عليه كل سبيل لرؤية كورنليا ترنر. ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هوج وصديق استحدثه فى الزمن الأخير يدعى بيكوك .

على أن عزلة شلى مع خليلته وجين لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهاباً دفعهما إلى ما يشبه الجنون . فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن إليها عزمه على الاتصال بمارى جدوين أن ضرام الحب الذى كان قد خبا فى قلبها ، حتى صارت لا ترى عليها من بأس فى التحبب إلى أمثال الضابط رايان ، تلهبه الغيرة من جديد . وأى شىء أفتك بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسلبها رجلها وتسلبها معه هناءها ومجدها ؟ إنها لترى حقًّا لها أن تعذب من تحب وأن تصد عنه وأن تلاطف غيره . ولترى واجباً على محبها أن يرى فى صدها من علائم الدلال ما يقتضيه مضاعفة التودد لها والإذعان لكل أمرها والتماس الصفح عما دعا إلى هجرها ، وإن لم يك شىء قد حدث يوجب التماس الصفح عنه . بل لترى واجباً كذلك عليه ألا يقتضيها إسعاده أو تهوين الحياة عليه . فإن فعل فهو أثر لا قلب له والأنانية ملء نفسه . أما إن رأى فى امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة الغادرة هى أحط من حملت أرض أو أظلت سماء . وكذلك كانت مارى فى رأى هاريت . وقد ازدادت لها بغضاً وعن شلى إعراضاً حين بعث إليها يستضيفها عنده فى بيت مارى . أف لهما من منافقين ! وأف لهذه اللعينة مارى التى لا تراها هاريت تعدلها رشاقة ولا جمالاً ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح ، بل التى لم تؤت أى حظ من الجمال ، بل التى تستحق أن تسحق وأن تعض بالأسنان وتقطع بالأظافر . ولئن كان شلى قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقمن منه هاريت شر انتقام .

كان ذلك شأن هاريت . أما فانى أملاى فقد جعلت تحس فى بيت جدوين وحدة ممضة مؤذية ، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها فى البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذعها قلبها بذكر ما كان يفيض به إزاء شلى من حب وإخلاص . فها هو ذا شلى قد اختار مارى عليها . وهذه جين قد وجدت فى نفسها الجرأة

لتصحبها . أما هى فلم يبق لها فى الحياة إلا أن تنظر إلى أشباح اليأس تحيط بها ، وأن تتمنى لشلى فى نفس الوقت الهناء والسعادة . وكيف تراها تحمل له أى ضغن ولم يكن تفضيله مارى جدوين عليها إلا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمغالبته . ألم يمت أبوها فتزوجت أمها من جدوين ثم ماتت هى الأخرى تاركة إياها يتيمة الأبوين لا معين لها فى الحياة إلا بر هذا الرجل الذى استبقاها عنده رأفة بها وإشفاقاً عليها ! فإذا فضل عليها شلى أختها لأمها فليس ذلك أقسى ما أصابها به القدر . وبحسبها أن تظل على إخلاصها له ورثائها لما وصل إليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف . بل لقد أثقلته الديون حتى اضطر دائنوه إلى أن يلجأوا للقضاء فجعل رجاله يتعقبون شلى يريدون إلقاء القبض عليه كى يفى بديونه أو يسجن . ولولا يقظة فانى وإخطارها شلى بالأمر وفراره من متعقبيه لذهبوا به إلى السجن ، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذى كان بينهما من قطيعة وجفاء .

وناء شلى بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه إلى جانبها هذا العيش الضنك الذى لم يتعود فى نعومة أظفاره ، فانهدت قواه واندس المرض إلى صدره وأظلمت الدنيا فى عينيه ورأى شبح الموت مقبلاً يبتلعه . كم كان من قبل سعيداً مع هاريت ! وكم كان سعيداً بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجماله وذكائه وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تفيض عنه منبعثة إليه من قلب الرفيقة الجميلة العطوف مارى ! وهذا هو يرى نفسه معها منفرداً يتحاشاه الناس ويفرون منه فراراً ثم لا يكون له عنهم من بديل إلا مرض قاتل . يالليأس ! أيتها الآلهة ، آلهة الخير والنعمة والسعادة ! أحق أنك جميعاً قد تخليت عن هذا الرجل لغير شىء إلا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق ! أو حق أنك حكمت عليه بالموت

لأن جمعية النفاق والوهم والباطل قد ابتعدت عنه ، خشية أن يفضح نوره ما فى ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن . فهذه مارى ما تزال تحنو عليه وتبعث إليه من دفء قلبها المملوء حبًّا ما يستبقى خيط الرجاء معلقاً فوق هاوية اليأس .

لكن خيط الرجاء هذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوته . بل لم يمنعه من أن يحدق فيها ببصره ويستمد من مناظرها المؤسية إلهاماً سامياً أوحى إليه أولى قصائده الوجدانية الكبرى : « الاستور أو روح الوحدة » . وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف فى الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذى يعيش فيه والجو المحيط به لا مهبط فيه لوحى الهدى ولا مبعث لسمو الإلهام . « وأدت به خطاه طائعة مسبح أفكاره السامية إلى زيارة ما خلفت الأيام الخالية من خرائب الآثار . فزار أثينا وصور وبعلبك والبطيح الذى كان مقاماً لبيت المقدس وأبراج بابل المهدمة والأهرام الخالدة ومنفيس وطيبة وكل ما تخفيه تلال الحبشة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلات والمقابر وآباء الهول المحطمة . وهناك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمد والصور العجيبة لما هو أعظم من الإنسان ، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال ، وحيث يعلق السلف أفكارهم الصامتة على صمت الجدران المشتملة إياه — هناك ، أمهل الخطا مستذكراً العالم فى صباه محدقاً طوال النهار المحرق بهذه الصور الصامتة . وما كان القمر إذ يملأ الصالات العجيبة بظلاله المتموجة ليقفه دون متابعة استذكاره . بل ظل يحدق ويحدق حتى أضاء خلاء عقله نور كأنما هو الإلهام القوى جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس » وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعامه فكبلها غراماً . لكنه ما لبث أن عاود تسياره خلال بلاد العرب والعجم والهند ، جوّابا ربوع الأرض وأقطارها باحثاً عن الحقيقة ، حتى إذا كان يوماً مستلقياً خلال غابة تظله رأى فى أثناء نومه « صبية مبرقعة تجلس إلى جانبه وتتحدث فى أنغام مهوبة

خفيضة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع إليه فى هدأة تفكيره . . وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها . كذلك كانت الآمال الكبرى فى الحرية المقدسة وما إلى هذه الآمال من أفكار هى أعز الأفكار عليه . ثم كان الشعر أن كان هو شاعراً » . وتجلت الصبية له فى خلال هذه الآمال والأفكار والمنى فإذا جمال شخصها عدل جمال نفسها . واندفع محاولاً ضمها إليه والإمساك بها ، لكنها تراجعت ثم ابتلعها ظلم النوم . ولم تجده محاولته إعادتها إلا أن أيقظته الهزة فإذا القمر ينحدر إلى المغيب وتباشير الضياء ترتفع خلال سجوف الليل . «إذن ضاعت هذه الصورة الجميلة ، وضاعت إلى الأبد فى تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها ، صحراء النوم الكالح ! أفيؤدى باب الموت الأسود إلى جنتك العجيبة أيها النوم ؟ »
وينطلق الشاعر مفكراً فى أثناء تطوافه مستذكراً صورة النوم الجميلة ملفياً جمالها فى كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال . وفيما كان عند اليونان بصر بزورق لا مالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه إلى لج الموج يتقاذفه رجاء أن يجد إلى الموت سبيله . وتدافع الموج والزورق حتى دفع به إلى جبال القوقاز فى نهر تحيط به أحراش وغابات ، وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجؤه خطر جديد يقرب له الأمل فى النجاة بالموت والعود إلى صورته الجميلة التى أراه النوم إياها . وفى هذه السياحة يشدو شلى متغنياً ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب إلى نفس بطله الشاعر المشوق للموت حتى يصل ببطله إلى غايته . وفى سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق لجة النهر يصف شلى فى النهر الذى أبدعه خياله ما نقل بصره إلى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكباً نهير الميز ونهر الرين وما على شواطئهما من بدائع الجمال ، ويصف منابع التمس التى زارها بعد عوده إلى إنجلترا وحين هذه المرض ، ويصف تلك المناظر الساحرة التى تهز القلب والفؤاد – مناظر شواطئ التمس كانت وما تزال مثال جمال قل فى الجمال نظيره .

قال شلى مقدماً قصيدته هذه لقرائه : « والصورة ليست خالية من العظة لأبناء الحياة الحقيقيين . ذلك أن الشاعر فى عزلته وانحصار خواطره فى نفسه ، تثأر منه شياطين عاطفة قاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ وإياه إلى الدمار السريع . على أن الذين لا يخدعهم خطأ سخى ولا يدفعهم ظمأ قدسى إلى شك المعرفة ، ولا تضللهم خرافة باهرة ، ولا يحبون شيئاً على هذه الأرض ولا يتعلقون بأمل وراءها ، ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لا يسرون بأفراح الإنسان ولا يأسون لأحزانه — هؤلاء وأمثالهم يبوءون بلعنة عادلة : يذوون لأنه مامن أحد يشاطرهم الإحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولاهم من أبناء الدنيا ولا المحسنين إلى بلادهم — وأخلق بالذين لا يحبون بنى جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيئوا لأرواحهم فى كهولتهم قبراً موحشاً » .

وإنك لترى كل تلك المعانى التى أوردتها المقدمة متجلية فى أبهى صورها وأعظمها جلالاً وروعة فى هذه القصيدة التى لا تزيد على سبعمائة وعشرين بيتاً ، والتى تمثل حياة النفس لعباد الوحدة عشاق الطبيعة ، مصورة فى ألحان سماوية الموسيقى إلى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لَينسيك فيها جمال الأنغام بديع الصور ، ولينسيك إبداع الصور روائع التفكير ، ولَتنسيك روعة الفكرة جمال النغم . ثم تتزاوج الأنغام والصور والأفكار فيلد تزواجها صورة الشاعر الشاب شلى فى وحدته المنقطعة وأمله المتهدم فى الحياة ومواجهته الموت فى رعدة تتغلب عليها قوة نفسه ، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة .

وفيما كان شلى فى هذه الحال توفى جده السير بيش وآل إليه بالوصية إيراد سنوى يبلغ ستة آلاف من الجنيهات . ولو أنه لم يكن فى شغل بتفكيره وبشعره ، ولم يكن ينظر إلى مزيد المال على أنه جريمة تدفع إلى النقص وتزرى بالفضيلة ، لناصب أباه

الخصومة حتى يصل إلى كل ما أوصى به جده . لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا إذا وجد ما يسد حاجته ويكفيه شر دائنيه . لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله ألف جنيه فى السنة تكفيه وتكفى مارى ، وتكفى من يلوذون به من صحبه . وردت إليه هذه الطمأنينة المادية شيئاً من سكينة النفس كان فى أشد الحاجة إليه ليتغلب على مرضه . وتغلب بالفعل عليه . وبدأ فى سماء المجد يتألق له نجم إن لم يكن ساطعاً سطوع نجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه . على أن الأقدار لم تكتب لنفسه طول سكينة يوماً من الأيام . فقد بدأت مارى على جمال حكمتها ورجاحة عقلها تحس الغيرة لوجود جين معهما فى البيت . وزاد لهيب هذه الغيرة ضراماً حين حملت فلم تستطع ملازمة شلى مما جعل جين تصحبه فى جولاته وتعود وإياه متوردة الخد فياضة القلب بما يبعثه شلى إلى كل ما يتصل به ومن يتصلّ به من جمال الوجود . وما عسى أن يصنع شلى بإزاء غيرة مارى إلا أن يطأطئ لإرادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل فى حال عصبية تثير معها كل مناقشة إياها لمشيئة تعلنها دموعاً تذرف وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق الإخلاص ، والذى لا يرى مع ذلك فى الحب معنى الأثرة الذى يذكى الغيرة ، بل معنى التسامح التام والاشتراك مع كل من فى الوجود فى الإحساس والعاطفة . واضطرت جين لمغادرة المنزل وفى نفسها من الحب لشلى ما بغّض مارى إليها ودفعها للتفكير فى الانتقام لأنفتها الجريحة . ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقام . فإذا كانت مارى تعتز بخليلها شلى وماله من نبل ومجد ومال فلتتخذ هى خليلاً لها أعرق من شلى نبلاً وأعظم مجداً وأكثر مالاً . وليكن هذا الخليل لورد بيرون نفسه . ولم تلق فى تحقيق غايتها عنتاً . فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلى ولا كان يعبأ بالعفة ولا بطهر القلب . على أن مارى استراحت حين علمت بنجاح صاحبتها ولم يبق بعد عندها موضع للغيرة منها .

وظلت مارى فى سكينتها حتى وضعت طفلاً لثمانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة . ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت مرة أخرى وأن وضعت غلاماً أسمته باسم أبيها وليم . ولكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثانى وبرغم شعورها بكل ما فى الأمومة من مزيد فى الحياة ، جعلت تحس وحدتها وسط الجمعية الإنجليزية تزداد وطأتها ثقلاً عليها وعلى برسى . وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يهيج غيرتها بمقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث إلى نفسه نوعاً من لذع الضمير طالما حاول إخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك دائباً على تعذيبه . فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه . وكان إجماعهم منعقداً على أن البائسة لم تأت إثماً ولم تجن ذنباً ، وإنما الذنب والإثم على شلى الذى هجرها وتبدل بها غيرها وظن أن لم تبق له جريرة عندها مادام قد ضمن لها ولأبنائها منه رزقها . وألح بالزوجين هذا الشعور فانتهيا إلى استحالة المقام بإنجلترا وضرورة هجرها إلى حيث لا يعلم قصتهما أحد . وإذ كانت هواجس مارى قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هى شريكة حبهما وصلتهما منذ نشأتهما ، فقد سمعا إليها حين اقترحت عليهما السفر إلى سويسرا للمقام عند ضفاف الليمان على مقربة من جنيف . وزاد مارى اطمئناناً إلى اقتراح صاحبة سرها أن علمت إنما حملها عليه اعتزام بيرون أن يسافر إلى تلك الناحية فراراً من أتهام الجمعية الإنجليزية إياه بمعاشرة أخته أوجستا . فلن تعود بين جين وشلى إذاً أية صلة ما دام بيرون سيقوم منها مقام شلى من مارى . وإذاً فليسافر ثلاثتهم إلى ضاحية جنيف ولينتظروا هناك مقدم النبيل العظيم .

ووصل الجوار ثم وصلت الصداقة ما بين بيرون وشلى ، وزاد الصلة بينهما أن ظلت جين مقيمة عند شلى مترددة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون . على أن أمتن ما قوى صلتهما كان الوسط الذى يعيشان فيه ، وسط سويسرا الشعرى البديع الذى يوحى إلى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعراً ويزيدها للجمال قدراً . وكان هذا

الوسط ، أول تعارفهما ، فى أجمل فصوله . فقد نزلا جنيف إبان بشائر الربيع فى مختتم أبريل ومفتتح مايو حين تبدأ حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء ، وحين تبدو أوراق الشجر فى خضرتها الجديدة مايزال لها كل صباها وكل ما للصبا من بهاء وروعة ، وحين الثلوج ماتزال تغطى قمم الجبال وتكسو عوالى سفوحها كساء يتباين ضياؤه فى أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطلع الشمس ، من الأحمر القانى إلى الأحمر المتورد ، بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور ، وحين تنعكس سفوح الجبال وقممها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئاً ، فإذا دفعت الريح الموج متلاطماً فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثلوجها تموج متلاطمة هى الأخرى . قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدا فيه خير مسرح لخيالهما المتوقد وإن شعراً فى شغاف قلبيهما بحب له يزداد استعاراً كلما ازدادا من هذا الجمال الساحر نهلاً . وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة ، بل هو فرق ما بين حب المرأة وحب كل جمال غيرها فى العالم . حب المرأة أنانى أثر غايته الحيازة والملك والمذلة والاسترقاق. فكل شركة فيه تنتهى إلى الجريمة ، عهراً كانت الجريمة أو غيرة ، وتنتهى إلى القتل وماهو شر منه . أما حب الجمال فى غير المرأة فهو الحب الذى يفهمه شلى وينادى به ويدعو إلى الشركة فيه . هو تقديس الجمال فى كل مظاهره والاشتراك فى هذا التقديس ليزداد بالاشتراك سمواً وجلالاً . وكم كان لجمال سويسرا واشتراك شلى وبيرون فى تقديسه من أثر فى شعرهما . على أنه مع ذلك لم يقرب بين روحيهما ، لأن كل واحد منهما كان يختلف عن الآخر فى نظرته إلى الحياة تمام الاختلاف . فقد كان عقل شلى وقلبه وشخصه وكل وجوده شعراً خالصاً . كان لا يعرف شهوات الإنسانية ، ولا يخلط بنفسه وضيع عواطفها ، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملموساً محسوساً ، وكان يصور كل ما يقع عليه حسه وكل ما يجيش بقلبه فى أنغام من الشعر والنثر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها .

وإنك لتعجب حين رجوعك إلى ديوان شعره وإلى رسائله وكتبه ، إذ ترى كل سانحة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلى فى يقظته وفى نومه ، قد اكتسى ثوب الجمال ، وإذ ترى هذا الجمال مصوراً أنغاماً قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعر هى أم موسيقى أم رسم وتصوير . أما بيرون فكان شاعراً ، ولكنه كان إنساناً له كل شهوات الإنسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه ، وكان يرى الجمال من خلال هذه الشهوات فيشدو به فى شعره سامياً بهذه الشهوات نفسها إلى سماء الشعر ملبساً إياها شفوف الجمال . وكان بيرون مشغوفاً بالمجد تتسلط عليه شهوته إلى حد أشفق معه عليه شلى كما أشفق عليه لضعف روحه ونزوله إلى مراتب الإنسانية الوضيعة برغم ما أنعمت به آلهة الشعر عليه من جمال فى النفس وسمو فى الفكر . وكم حاول أن ينزع به إلى غير ما تدفعه إليه شهواته ، وأن يجذبه إلى ناحيته ، ناسياً أن ليس فى مقدور إنسان تحوير طبعه . ولم يتغير عليه بعد ما افترقا ، بل جعل يراسله طمعاً فى إنقاذه من براثن شهواته التى كانت فى نفس الوقت مصدر كل وحيه وإلهامه .

وبرغم ما امتلأ به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين إلى بلده . وكان حنينه قويًّا منذ أول مغادرته شواطئها وإن كانت هى التى ألجأته إلى هجرها والفرار منها . قال فى خطاب بعث به إلى صديقه بيكوك يعبر عن تحنانه : «إنكم لتعيشون على شواطئ نهر مطمئن بين تلال خفيضة تغطى الغابات سفوحها . ثم إنكم لتعيشون فى بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعملون قهر ، وتطمئنون فيه إلى ما يقع فى ملككم . وما بقيت هنالك ممالك وما بقيت اعتبارات الأثرة التى تنطوى فكرة المملكة عليها ، فأنا واثق من أن إنجلترا أكثر الممالك حرية وتهذيباً . ولعلك كنت حكيماً فى اختيار طريق حياتك . على أنى إن عدت واحتذيت مثالك فلن آسف على ما رأيت من ممالك أخرى . فلدينا لا ريب كثير من الخبيث والطيب ،

وكثير يُزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال . لكن ذلك كله لا يعرفه ولا يحس به من لم يبرح حدود وطنه . ومادام الإنسان على ماهو عليه فإن التجربة التى جربها لن تدعوه لاحتقار الأمة التى ولد فيها . بل على العكس من ذلك ، هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه أشد شعوراً بجماله . فشعراؤنا وفلاسفتنا وجبالنا وبحيراتنا ، وقرانا ومزارعنا التى لا شبيه لها عند غيرنا — كل هذه روابط لن تنبت ولن تتحطم أو أصبح ولا إدراك عندى ولا حس لى» .

وربما فات شلى أن يذكر شيئاً آخر يربطه بإنجلترا ولا يقل عن كل ما ذكر قوة . ذلك عصفوره هاريت وابنته يانت وابن هاريت المنسوب إليه وإن أنكر هو أبوته . فلقد كان كثير التفكير فى أثناء وجوده على شواطئ ليمان فى هاته التى ترك وإن كان يعلم أنها فى طمأنينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق مثله . وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت إلى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يحس على نفسه فى ذلك بعض التبعة ، ويحاول إقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه . ولئن كانت هاريت قد أساءت إليه أفليست يانت ابنته ويجرى فى عروقها الدم الذى يجرى فى عروقه . لكنه لم يكن يستطيع الإسراع إلى مغادرة سويسرا ومارى متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنيها بصاحبها وبها . لذلك اقتنى بالاشتراك مع بيرون زورقاً جعلا من رياضتهما عليه فوق لج الليمان مستوحى لإلهامها . وكثيراً ماكانت تصحبهما مارى وجين ، فتتغنى هذه الأخيرة بصوتها الحلو الرقيق توقع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافى ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالاً وما يزيد الهام الشاعرين روعة وقوة .

على أن جين كانت قد حملت من بيرون منذ كانا فى إنجلترا وآن لها وهم فى سويسرا أن تضع طفلة دعتها كلارا اللجرا . من يومئذ بغضت إلى نفس بيرون . وازداد لها بغضاً حين تحدث إليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها . وكان

بيرون فى هذا الظرف غليظ القلب مغالياً فى التبجح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعاً واعتبارهن متاعاً لشهوة الرجال إلى حد لم تطقه الذكية الأنوف مارى ولم تطق معه البقاء على مقربة من هذا الذى يدعوه الناس نبيلاً فإذا نبله قحة ، ويحسبونه شاعر الحب فإذا حبه شهوة وإذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته . واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة البر بأبيها ، وذكرت تعاليمه السامية وآراءه فى المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلى فى فكرة العود إلى الوطن ، فكتب إلى بيكوك يطلب إليه أن يستأجر له داراً (فيلا) على شواطئ النهر وبين الأحراش والغياض .

وعادوا إلى لندن وفى عزم شلى أن يستقر بوطنه طول حياته ، غير ذاكر أن لا سلطان لأحد من الناس على مصيره ، جاهلاً ما خبأته الأقدار له من فواجع تقض مضجعه وتضطره إلى المقام بقية أيامه بعيداً عن إنجلترا . فقد كانت فانى أملاى تراسلهم حين كانوا بسويسرا ، وكانت رسائلهم لها تبعث إلى حياتها البائسة خيطاً من نور الأمل فى رؤيتهم يوماً من الأيام . فلما عادوا إلى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين ، مع وجود أمها فى بيت جودوين ترهق فانى وتعذبها فى حين كانت فانى أحق بهذا اليسار إلى جانب أختها مارى ، ولما كانت لا تستطيع الالتجاء إلى بيت شلى لتعلق قلبها به تعلقاً يجعلها لا تطيق المقام إلى جنب مارى ، بعثت إليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه : «إننى ذاهبة إلى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً» . فسارع شلى بالسفر إلى برستول ومنها عرف إلى أين سافرت الفتاة ، وذهب إلى الفندق الذى نزلت به فألفاها انتحرت بالسم وتركت خطاباً تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختزالها أيامها وقضائها على حياتها .

وهز هذا الحادث قلب شلى وأعصابه . وزاده اهتزازاً ما ذكرته مسز جدوين من أن فانى انتحرت لفرط حبها إياه حبًّا ضاع كل أمل فى أن يجد ما يحييه . وعن هزة قلبه يعبر فى أبيات ستة يقول فيها : «أصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت

أدرى أن القلب الكسير مبعثها ، فرحلت ولم أعن بما ألقت من كلمات . إيه أيها البؤس ! إن هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب لحادث آخر ليس دون هذا الحادث شناعة ولا قسوة . ذلك أن هاريت بلغ من انخراطها فى اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت إذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطها أمام شلى ، ويرفع مارى فى نظر الجمهور عليها ، ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام . فذهبت إلى نهر ألقت بنفسها فيه ، فماتت منتحرة هى الأخرى . ولم يكن بين انتحارها وانتحار فانى إلا أيام . وذكرت التيمس خبر إنتحارها وسببه من غير أن تذكر اسمها . وكان هذا الخبر أقسى مما يستطيع شلى أن يطيق : دعارة فحمل فانتحار . ياللعار ! ويابؤس أبنائه بأم تلك خاتمتها ! ويابؤسه هو بحياة تسير مسرعة بالذبول إلى أوراق الربيع منها فتهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته إليزابث ويغتبط للتخلص من مس هتشنر وتتجافاه كرنلياترنر وتنتحر بسببه فانى املاى وهاريت وستبروك . ترى ألم يأن لهذا البؤس أن ينتهى وللقدر أن تهدأ عليه ثائرته ؟

لكن لا ! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه فى ذلك أبوها وتقاضيا فأنصف القضاء الجد ، بحجة أن عقيدة شلى فاسدة ويخشى أن ينشئ أبناءه عليها . وإنما خفف من هذا الحكم أن عهد القضاء بالحضانة إلى من اختاره شلى مطمئناً على إقامته فى تربية أبنائه .

وأتاح له انتحار هاريت أن يعقد على مارى وأن تعود لذلك صلته بجماعة جدوين . وكان العوز قد ألح بمؤلف (العدل السياسى) حتى صار عالة على شلى هو أيضاً وحتى جعله يعود إلى الاستدانة من جديد . ولم يكن جودوين وزوجه وحدهما هما اللذان كفل شلى فى ذلك الظرف ، بل أعان صديقه لى هنت وكان له خمسة أولاد من زوجه ماريان ، وأعان صديقه بيكوك كى يتابع كتابة روايات رأى شلى

فى كتابتها خيراً وإصلاحاً للجماعة . مع ذلك كله ، مع الاضطراب المالى ومع انتحار فانى وهاريت فى أيام ، ومع منازعة وستبروك إياه فى حضانة أبنائه ، فقد تحصن شلى بإرادته الصلبة وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتغلب على كل المتاعب . وشلى ، على رقته وإيثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنغام الشعر ، كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف فى سبيلها عقبة من العقبات . تحصن بهذه الإرادة وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكأن لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التى مرت من نفسه . فابتاع بيتاً ظريفاً فى مارلو أقام فيه مع مارى وابنه وابنته منها ومع جين وابنتها من بيرون . على أن الإرادة الصلبة والعزمة القوية تستطيعان مغالبة الوجود وقهر المستحيل مادامت الروح التى تحركها وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندس إليها ما يضعفها ويزعزع ركنها . فأما إن ضعفت الروح واهتزت قوتها المعنوية فقل على الإرادة وعلى العزيمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام . وقد هدت الحوادث التى مرت بشلى من روحه فتضعضعت وضعفت . وشعر بهذا الضعف فانطلق ملتمساً الوحدة كى يخفى عن الناس ضعفه . والأنوف المعتز بقوة نفسه لا يشعر بجرح ينال منه مبلغ شعوره بأن يراه الناس ضعيفاً مثلهم خاضعاً لتصاريف القدر خضوعهم . فى هذه الساعات التى ينال المرض فيها من جسم ذلك الأنوف أو تنال الحوادث من نفسه ، يود لو أن الإنسانية كلها ولو أن أقرب الناس إليه من ذويه وأهله لم يكن حوله منهم أحد ليطلع على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه . وجعل شلى يذهب إلى جزر التمس المنقطعة يقضى فيها نهاره وشطراً من ليله يشاهد الطيور السابحة فى الماء والمحلقة فى الجو ، ويحاول استعادة سكينته بالتحليق فى عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وحيه . ولم يكن يرجو فى استمداده هذه القوة غير ما كان يطمع فيه أول صباه من تحقيق سعادة بنى الإنسان . فقد زادته الحوادث التى كرت عليه إيماناً بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذى دفع إلى هذه الكوارث

المتوالية وتلك المآسى الفاجعة التى تذهب باللب وتصدع القلب . وكانت قصيدته الكبرى الثانية – ثورة الإسلام – والتى كان يصقل فيها من قبل أن تفجأه الحوادث تباعاً ، قد فرغ منها أوكاد . فوضع قصيدة أخرى أسماها «لاون وستنا» ضمنها مسارح أفكاره فى ذلك الظرف العصيب من حياته . وضعها فى أثناء تلك الجولات فى أحضان الوحدة مقتضياً نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والألم وكل أسباب الضعف الإنسانى الذى لا يليق بأمثاله ممن يؤمنون بأنهم يقبضون بيدهم على ناصية الوجود .

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليرد إليه طمأنينة نفسه أو ليدفع عنه غائلة همومها . بل لقد جنت هذه الهموم على صحته وردت إليه مرض صدره وجعلته يفكر جادا فى وسيلة البرء من علته . كتب إلى جودوين فى ٧ ديسمبر خطاباً يصف له فيه حاله جاء فيه : «وكانت صحتى أسوأ بالفعل . فإن مشاعرى لتهبط أحياناً إلى حد الذهول والموت ، ويبلغ بها التوتر أحياناً أخرى إلى حد غير طبيعى من التهيج . ولأقتصر على مثل مما يعذبنى خاصًّا ببصرى . فإن أوراق الحشيش وغصون الأشجار البعيدة لتبدو لناظرى بدقة مكرسكوبية . فإذا أقبل المساء غرقت فى بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقياً – فى كثير من الأحايين – ساعات على المضجع وأنا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهنى مؤلم أشد الألم . ذلك أمرى إلا فى قليل . أما الساعات التى خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من بين الساعات التى أستطيع المقاومة فيها . على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيرى فى السفر إلى إيطاليا ، طمعاً فى أن تنقذنى منه . كلا ! بل لقد عاودتنى نوبة صدرية . ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها أثراً لوجودها إلا أن هذا العرض دلنى على حقيقة المرض الذى يؤويه صدرى . ومن مصلحتى أن يكون هذا المرض بطبعه بطيئاً . وإن الإنسان إذا عنى بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه فى جو دافئ . فإذا عاد هذا

المرض على صورة واضحة أصبح واجباً على أن أسارع بالذهاب إلى إيطاليا . على أنا إنما نسافر حين يصبح السفر واجباً محتوماً ، لمخالفة هذا السفر لمقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك ، وأحسبنى فى غنى عن أن أذكرك ، فضلاً عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة النتائج السيئة التى تترتب على موتى . وإنما يحملنى على هذه الصراحة القاسية ما بدا لى من أنك لم تدرك حقيقة مقصدى . فليست الصحة وإنما هى الحياة التى أبحث عنها فى إيطاليا . ولست أبحث عنها من أجلى ، فأنا أشعر بالقدرة على نفسى إزاء مثل هذا الضعف ، وإنما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتى سعادة ومنفعة وأمناً وكرامة ، ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله إلى النقيض إذا أنا مت» .

وما يشير إليه شلى من سوء فهم جدوين إياه هو تأويل جدوين سفر صهره إلى إيطاليا بأنه الفرار من معونته المالية . على أن مارى لم تبرح إنجلترا حتى كفلت لأبيها عن طريق شلى رزقاً يقيه فى شيخوخته ، كما كانت طوال إقامتهم فى إيطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقع لها ثمناً للروايات التى تكتبها لمعونته ، وبدفع شلى ليزيد فى هذه المعونة جهده . ولعل إحساسها بحاجة شلى إلى السفر كانت أشد من إحساسه هو . فقد أثقلتها جين وابنتها وطمعت حين وجودهما على مقربة من بيرون أن يضمها إليه . على أنهم ظلوا ينظمون شئونهم ويبيعون دارهم فى مارلو ويقتضون الناس فيها ما يستطيعون اقتضاءه منهم حتى استطاعوا إعداد أهبتهم للسفر ، وسافروا فى منتصف مارس سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منها إلى البحيرات الإيطالية آملين أن يجد شلى فى شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفى صدره ويرد إليه سكينة نفسه .

٥ – سنى حياته الأخيرة بإيطاليا :

غادر شلى إنجلترا قاصداً إيطاليا فى مارس سنة ١٨١٨ . غادرها مستصحباً زوجه مارى وابنيهما وليم وكلارا ، ومستصحباً كذلك جين كليرمون التى كانت تطمع فى أن ترى ابنتها من بيرون فتروى غلة قلبها الظمئ شوقاً لها . ومروا بليون فجبال الألب حتى نزلوا ميلانو . ومن هناك قصدوا البحيرات الإيطالية التى كانت منذ القدم مغنى الشعراء وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعاً . وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات و (بكومو) منها بنوع خاص ، حتى رأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالاً غير بحيرات كلارنى الأرلندية . على أنهم لم يجدوا فى منطقة البحيرات الدار التى تعجبهم فعادوا إلى ميلانو حيث وجد شلى فى كنيستها ملجأ تطمئن له روحه التى كانت ثائرة من قبل على كل كنيسة وعلى كل دين . وكنيسة ميلانو جديرة بأن تطمئن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلها هيبة تبعث إلى النفس طمأنينة الإسلام للحياة ولما بعد الحياة . لكن أمر شلى لم يقف عند حد الإعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهيبتها ، بل إن نفسه التى كانت جموحاً ثائرة على كل شىء قد وجدت فى آلام الحياة وصدماتها المتوالية ماهد من ثورتها وما أراها ضعف الإنسان وعجزه التام أمام الوجود ، فعاد إلى نوع من الإيمان بعظمة الوجود ممثلاً فى الكنائس والبيع وبيوت الله جميعاً ، وجعل يرى فيه ملجأ يحتمى به الإنسان من ضعفه ، بل يستريح فيه إلى هذا الضعف ويطمئن له .

ومن ميلانو كتب شلى إلى بيرون فى شأن اللجرا منبئاً إياه بوجود أمها معهم . ورد عليه بيرون معلناً ، فى صراحة وقحة ، أنه لن يرى لجين وجهاً ولن يسمح أن تعرف إليه طريقاً . ورأى شلى أن لاوسيلة للتخفيف ولو بعض الشىء من حدة صاحبه إلا

أن يذهب إليه فى البندقية . وغادر مارى وابنيهما وذهب مستصحباً جين التى ألحت فى السفر رجاء أن ترى ابنتها ولو خلسة من غير أن يعلم بيرون بوجودها . وتقابل الشاعران وتحادثا فى الأمر حديثاً انتهى ببيرون معه إلى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلى فى دار له بناحية « است » شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدهما مطلب عنده أو رجاء فيه . وأعجب شلى بالمدينة السابحة غرقى فى لجة الإدرياتيك وبجزرها وكنائسها وبهوائها العطر بأريج الحب المتغنى والهاً فترات من الليل بأناشيده ، الذاهب فى المتاع به إلى حدود الاستغفار عنه بإقامة الكنائس الكثيرة علها تسع ذنوب أهل المدينة جميعاً وعلّ إحداها تكون أقرب من الأخرى إلى دعاء مستجاب .

ورأى بعد الذى عرضه بيرون وبعد ذهابه وجين وابنتها إلى إست أن المكاتبة بينه وبين مارى أصبحت لاتكفى فدعاها لتقيم معها . ومن هناك عرفت مارى البندقية وتعلقت بها وبرمال الليدو ومصيفها . على أنها ازدادت من بعد بهذه الرمال تعلقاً أن خلفت فيها ذكرى فاجعة هى الأولى فى حياتها . فإن شهرى « إست » ماكادا يقاربان التمام ليعود شلى ورهطه إلى ميلانو حتى كانت ابنته كلارا قد مرضت . وبرغم مابذلت أمها من عناية بها ظل المرض متابعاً سيره حتى رأوا ضرورة الذهاب إلى البندقية لاستشارة طبيب رجوا أن يكون أكثر من طبيب « إست » حذقاً ومهارة . لكنهم مالبثوا أن وصلوا هناك حتى كانت الفتاة فى آخر لحظاتها وحتى أسلمت روحها البريئة الطفلة قبل أن يحاول طبيبها الحيلولة بينها وبين بارئها . وذهب شلى وذهبت مارى يحملان الجسم الصغير إلى الليدو فدفناه فى رماله المختلطة صفرتها البهيجة بزرقة الموج المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ماتحوى من أجداث ورموس يخلع عليها جلالها جمالا .

وجرحت أمومة مارى جرحها الأول وعرف الحزن إلى قلبها السبيل . لكنها

سرعان ماتعزت وظهرت بمظهر القوى الذى لايتزعزع حتى تمر به أعاصير القدر . وكان مظهرها هذا بعض تعاليم أبيها . فنحن فى الحياة تؤدى للحياة واجبها بالبر بالإنسان والعطف عليه ، وبتخليد النوع والقيام على تربيته ، وبنشر العرفان والنور والعمل لتمتلئ بها القلوب جميعاً ، وبالجهاد فى سبيل الحرية كى تتمتع بها البشرية كلها . وما أحسنّا أداء هذا الواجب فمن حقنا أن نكون سعداء أيا كانت النتيجة التى يسفر عنها عملنا . وكل شر لاسلطان لنا عليه ولاقوة لنا فى دفعه لاموضع للأسى من أجله . وثكل الوالد ولده بعض مالا سلطان لنا عليه من أعاصير القدر ، فليكن موقفنا منه موقف إباء وكرامة لاموقف ضعف وحزن . ليكن موقفنا منه موقفنا من خصم يناوئنا ليبتز مالنا ، أفترانا إذا ابتزه فأتلفه خاضعين له متخاذلين أمامه ؟ أم أنا على العكس من ذلك نزداد أمامه كبراً وأنفة ؟ كذلك ظهرت مارى أنوفاً لم يعرف الهم ولاعرفت الدموع إلى عينها ولاإلى قلبها سبيلا . ولعل هذه التعاليم لم تكن وحدها مصدر شجاعتها ومبعث قوتها . فهذا ولدها وليم مايزال فى أحضانها فلها فيه عزاء . وهاهى ذى ماتزال ، كما لايزال شلى ، فى مقتبل العمر وقوة الشباب ، فما يزال لهما فى المستقبل وأبنائه وبناته وسعادته رجاء . وكلارا التى فقدت كانت ماتزال بعد طفلة يعد عمرها بالشهور ، فلاموضع للأسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلا أمام الحزن إلا بمقدار .

فأما شلى فقد احتمل موت طفلته فى سكينة ، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر وإياهم من البندقية . وكان يشعر بأن المقام فى شمال إيطاليا ، وبخاصة عند مقدم الشتاء ، ليس مما يبعث إلى نفسه السكينة وإلى صدره دوام مايرجو له من عافية وبرء ، فساروا منحدرين جنوباً حتى وصلوا إلى روما حيث زار شلى من آثار المدينة الخالدة مازاده قدراً لشعر ڤرجيل ولشعر دانتى . وبعد إقامة قصيرة بها قصدوا إلى نابولى . وهناك على شاطئ خليجها الساحر البديع ألقى شلى عصا تسياره آملا أن يجد

فيها الطمأنينة التى تيسر له الانخراط فى خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصيدته (بروموتيه الطليق) ينادى فيها كما نادى فى قصيدة (الملكة ماب) بمبادئ الحرية والفضيلة ، ويضع فيها الإنسان بإزاء قوى الطبيعة وماوراء الطبيعة وقد قيدته كلها بقيودها فإذا هو يحاول من طريق إرادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود وأن يتغلب على هذه القوى وأن يقف منها جميعاً موقف المتحكم فيها المسير لها ، ثم إذا محاولته تنتهى به إلى الفوز على القوى جميعاً بفضيلة صدق العزيمة والإيمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها وبالحب الطاهر الذى لايعرف الأثرة ، وإنما يشترك فيه الإنسان وسائر مافى الكون إجلالا وتقديساً لما أبدعت الحياة فى الكون من جمال وجلال . وهو يضع قصيدته هذه فى صورة الرواية التمثيلية جاعلا أشخاصها آلهة الأولمب وعلى رأسهم جوبتر ومن حولهم الأرض والمحيط وعذاراه والكون وأرواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه ، و (بروموتيه) بإزاء ذلك كله يجاهده وينتصر عليه . وهو هنا يخالف الأسطورة القديمة التى تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وألزمته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة . وإن كثيرين من النقاد ليذهبون إلى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلى على كل ماسواها ويعتبرونها الدرة من شعره ، فأما آخرون فيذهبون إلى تفضيل رواية (سنسى) إذ يرتفعون بها إلى مقام روايات شكسبير . على أن (بروموتيه) قد نسجت على غير طراز (سنسى) . فبينا هذه الأخيرة ، على ماسترى ، تعبر عن حب آثم يقع فى الحياة بين أب وابنته إذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود ومافيه بعض مسرحها . وهى فى هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وإن اختلفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها فى بعض المواضع ولم تصل إلى رفعتها فى مواضع أخرى .

ولم يطل بشلى المقام فى نابولى . وكأنما كانت يد القدر التى قست به حين مقامه

على أرض وطنه فجعلته لا يطيل المكث فوقها إلا ليعود إلى الارتحال عنها محمَّلا هموماً وآلاماً ماتزال لم يهدأ ثائرها عليه برغم ماكان يبدع فى الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى إلا بعضها . فلقد مرض ولده وليم أثناء كانوا فى طريقهم عائدين إلى روما . وخيل إلى مارى أن الأمر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين متواليتين ولن يسلبها هناءة الأمومة وهى ، بعد حب الصبا ، كل ما للمرأة فى الحياة من عزاء . وعاد الطبيب الطفل فنصح إليهم أن ينتقلوا به شمالا . لكنهم لم يكادوا يتهيأون للرحيل حتى أصابت الطفل نوبة من الدوسنطاريا ألزمتهم المكث إلى جانبه . وبقى شلى ستين ساعة ممسكاً بيد طفله خائفاً أن يفر الطفل منه إلى غيابات الأبد . ذلك بأنه كان طفلا ذكيّاً عطوفاً رقيقاً ، وكان جميل الصورة إلى حد سحر النسوة الإيطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة وبشعره الذهبى المتموج تموج الحرير الناعم نعومته . ثم إنه كان قد أصبح وحيد مارى بعد موت أخته كلارا ، فالفجيعة فيه تحيى من قلبها الفجيعة الأولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب الابتسام سحابة كآبة وهم يصيب شلى منهما حظ غير قليل . وكان لشلى فى القدر رجاء التصرف بحكمته إزاء طفل لم يقترف ذنباً يجزى من أجله بالموت بله المرض وآلامه وتباريحه . لكن المرض والموت وكل مايصيبنا فى هذا العالم من خير وشر ليس فى نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا ، ولكنه لوح كتابنا لامفر لنا من الإذعان له والسير فى خطواته . لذلك لم يعبأ بما كان مرجوا عند شلى ومات الطفل ودفن فى مقابر الإنجليز بروما ، هذه المقابر التى أعجب بها شلى وتمنى لو يدفن فيها ، ولم يكن يومئذ يعلم أن مابقى من رفاته سيرقد هناك إلى جانب جثمان طفله .

مات وليم فانهارت عند مارى كل تعاليم أبيها وأسلمت للألم نفسها ولم تطق للوجود جلاداً . سكب الهم ظلمته فى قلبها واتشح الوجود كله بالسواد أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفى نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لبها إلى قفار

الانتحار ، وصورت لنفسها خاتمة كخاتمة أختها فانى إملاى . وعبثا حاول شلى تعزيتها بالترويح عنها بأن انتقل بها إلى الريف من روما وأسكنها قصراً جميلاً يحيط به الزهر والشجر . ومابهجة الزهر وخضرة الشجر أمام قلب كسير وبصر حزين ؟ ! إنها كلها تنقلب سواداً وتزيده على همه هما وأسى . بل تصبح ضحكات الزهر بعض سخرية القدر ، وابتسامة الخضرة شماتة بنا فى مصابنا . وعبثاً حاول أبوها لما علم عمق حزنها أن يردها إلى صوابها وإلى تعاليمه . فالصواب والتعاليم والمنطق والعقل أوهام وصور ماتلبث أن تطير وتتلاشى إذا هى ارتطمت بقسوة الواقع . وأى واقع أشد قسوة من الموت ، بل من الثكل ، ثكل الأم لوحيدها ولأمومتها ؟ وشلى وحبه وحنانه أصبح هو الآخر مملولا ، ثم نسى كما نسى غيره أن لم يبق من الوجود أمام مارى إلاحزنها مجسماً فى ذلك القبر الذى أوت إليه رفات وليم . فإذا ناداها شلى قائلا : « أين ذهبت ياعزيزتى مارى تاركة إياى وحيداً فى هذا العالم القفر؟ إن صورتك الساحرة ماتزال هنا إلى جانبى . لكنك أنت قد فررت عن طريق الوحدة المؤدى إلى صوامع الحزن المظلم » . إذا ناداها شلى هذا النداء لم تزد على أن تمعن فى التماس صوامع الحزن تاركة إياه يبحث عن عزائه فى خير دواء لكل ألم وخير بلسم لأبلغ جرح : فى العمل المتصل لأداء ماألقت عليه الأقدار: رسالته كى يشدو بها إلى العالم أنغاماً سماوية . وأعانته سماء إيطاليا الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه . على أن القدر الذى قسا كل هذه القسوة بمارى لم يلبث أن دس إليها من عنده بلسم عزاء . فقد حملت وأحست فى أحشائها روح الأمومة من جديد ، لكنها كانت فى خشية من معابثة القدر فظلت على عبوسها وإن زالت سحابة الهم التى كانت تظلها مماجعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء . ولما اقترب موعد وضعها ارتحل بها شلى إلى فلورنسا لتكون فى رعاية طبيب صالح ، ثم إن فى جو فلورنسا الجميل مايضاعف الرجاء لمن لديه ولوقبس من رجاء ، فيها أجمل مافى إيطاليا من الآثار ،

ويضوع ريحها بأسماء دانتى ، وسافاناريولا ، وجيوتو ، ودونانلو . لذلك كانت للزوجين خير موئل . فيها وجد شلى خير مايلهم شاعريته التواقة للجمال تلتمسه فى كل مظاهر الفن والطبيعة ، وفيها وجدت مارى مزيداً من رجائها . حتى إذا وضعت وألفت نفسها أماً من جديد فى ذراعيها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات وليم ، ودعت الوليد برسى فلورنس شلى ، اعترافاً بفضل زوجها فى تقويتها على اجتياز محنتها ، وبفضل فلورنسا التى عادت إليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها .

ولما جاء الشتاء وقرس البرد فى المدينة « الجميلة » نصح الطبيب إلى شلى بالسفر إلى بيزا ، فذهب بأهله إليها وأقاموا بها . وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة ، فلما وجدو هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطوا به ، وانضم إليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمه الأستاذ المبجل باكشيانى . وكان قسيساً قليل الدين وأستاذا لايعلم الناس شيئا وزير نساء ومحبا خدمة معارفه . وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه . وقد قص هذا الشيطان على شلى قصة استدعت كل التفاته . ذلك أن للكونت فيفيانى ، أحد كبار أعيان بيزا ، فتاتين من زواج أول ، وأنه لما تزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى ذهب بفتاتيه إلى الدير ، أن كانت زوجه شديدة الغيرة منهما لفرط جمالها . وكان جمال كبراهما (إميليا) رائعاً روعة جمال الملائكة ، كما كان ذكاؤها حادا وخيالها متوقداً بمايبعث إلى كل نفس أشد الإعجاب بها والإشفاق عليها . وكان قصد أبيها من الذهاب بها وبأختها الدير أن يقيما فيه حتى يتزوجهما من شاء من غير أن يمهره الأب عنهما شيئاً . فلما سمع شلى بالقصة هاجت فى نفسه كل عواطفه القديمة . أليس هو يريد الكمال مجسما فى أنثى لها جمال المرأة وعقل الرجل ؟ وهذا هو قد ضل تقديره الكمال فى هاريت جروف وهاريت وستبروك . وهاهى مارى جدوين وإن كانت ماتزال من خير النسوة اللواتى

عرف إلا أنها أصبحت أمامه جسما محسوساً ذا حدود وأبعاد وذكاء متجلياً له كل مافيه من حكمة وشعر ، فلم يبق إذن فيها المجهول الذى يبحث هو دائباً فى الكشف عنه والوصول إليه ! فلنر إذن ماعسى أن تكون إميليا فيفيانى هذه من صور الكمال وماعسى أن تلهمه من رائع الشعر والحكمة .

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع فى نفس شلى فعرض عليه أن يصحبه إلى الدير . ومالبثت الفتاة أن دخلت عليهما المنظرة حتى سحر شلى وذهب به : قوام رخص فى لدونة واعتدال ، تخلع عليه ثياب الدير البسيط زينة وانسجاماً وتزيد بهاء مافيه من جمال فى كل انثناء ونتوء . ومشية هى للعين أنغام تموج فى النفس والخيال فتهزهما وتبهرهما . وشعر فاحم السواد ملقى على أكتافها ليزيد وجهها البديع القسمات وضوحاً وبهراً ، وعيون دعجاء تفيض نظراتها حبا شهيا فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاماً ، وجبين مصقول ، وأنف أقنى ، وثغر عذب ، وشفاه تحدث عن فيض الرغبة . وإلى هذه الأنوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو بصيصه من حدق عيونها السوداء قويا ملتهباً . وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفوراً فى قفص ، فتوجهت إليه بهذه الكلمات : « أيها الصغير المسكين ! إنك لتموت اكتئابا ! فما أشد إشفاقى عليك ! ألا كم تتألم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك إلى بلاد مجهولة ! أنت مثلى محتوم عليك أن تقضى هنا فى سواد حظك . أواه ! لوكنت أستطيع إنقاذك ! » . وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغة الإيطالية بموسيقاها سحراً وعذوبة . وزادت أنشودتها للطائر الحبيس بهر شلى فاستأذنها أن يعود إليها وأن يستصحب زوجته وأختها ، فرضيت طيبة النفس .

وتزاوروا وتكاتبوا وأبدت مارى إعجابها بجمال إميليا وتقدير شلى إياه على أنه الجمال الأسمى . أما شلى فانطلق من فوره يضع قصيدته (ابسشديون) يصف فيها

الجمال والحب ويدعو فيها إملى لتذهب وإياه إلى قصر قديم فى جزيرة أبدعها خياله بين جزر الإدرياتيك ليعيشا هناك وليسبحا بين جمال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهارها فى عزلة لاينغصها عليهم أحد من الإنس . وإنك لتقرأ القصيدة وتبلغ أبياتها أربعة وستمائة بيت فلاترى فيها أكثر من هذا الذى ذكرنا . لكنك تراه اثيريًّا يطير بك فى عالم الجمال وينسيك نفسك بموسيقاه وحلاوة صوره وبديع خياله وينساب إلى روحك عذبا سلسبيلا فلاتزداد إلاتعلقاً به وتقديراً إياه . وفى ختام القصيدة يقول : « اذهبى أيتها الأبيات الضعيفة فاسجدى عند قدمى سيدتك وقولى : إننى سيدة عبدك فرى أمرك فينا وفيه . ثم تنادين مع أخواتكن من سائر شعرى واسجعن متغنيات : « عذب فى الحب حتى ألمه . لكن جزاءه فى هذا العالم قدسى لأنه إن لم ينلنا فى الحياة تبعنا إلى ماوراء قبرنا » وأنت لاريب ستحيين فى حين أكون أنا قد أويت إلى هناك . فأسرعى فوق قلوب العباد حتى تقابلى ماريتا وفانا وبريموس وسائر صواحبك ، ثم أهيبى بهن أن يحب بعضهن بعضاً وأن يبارك بعضهن بعضاً ، ودعى فيما وراءك قطيع الخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالى فكونى ضيفى — فإنما أنا ضيف الحب » .

وقبل أن يتم قصيدته ، تزوجت إميليا من غنى اسمه بيوندى قبل أن يعقد عليها من غير أن يمهرها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها أسقط فى يده ولم يطق إتمام قصيدته . فهاهى ذى رمز الحب فى طهارته قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعلة النساء جميعا ممن عرف . هاهى ذى سقطت إلى مستوى القطيع تاركة إياه يعض البنان ندما على خطئه فى أمرها ويصب عليها اللعنة أن أضاعت عليه وحيه وإلهامه .

وفيما كان شلى فى هيامه بإميليا كان بيرون يتخطى خليلة إلى خليلة حتى انتهى إلى أجمل نسوة البندقية وتدعى جيوكشولا . وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلاً

نبيلاً . . لكن صلة المرأة بخليل لم تكن فى البندقية يومئذ أمراً إدًّا ، حتى فى نظر زوجها : على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج إلى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها . فلما تلكأ بعثت إليه تخبره بأنها مريضة فطار إليها وأقام إلى جانبها . وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللجرا إلى بولونيا . فلما علمت جين كليرمون بأمر ابنتها بعثت إلى بيرون تستعطفه أن يبعث بها إليها . فرد عليها ردًّا غليظاً يقول لها فيه : إن التربية فى بيت شلى على أساس النباتية فى الحياة المادية والإلحاد فى الحياة الروحية مما لا تطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها . فجن جنونها وبعثت إليه بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلى فى خطاب بعث به إليه يقول فيه : إن جين أم ، وإنه وإن لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها إلا أنه يرجوه أن ينظر إليها بعين الرحمة والمغفرة . لكن بيرون رأى فى هذا كله ما أغضبه ، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلى . وكان قد وصله خطاب من قنصل إنجلترا فى البندقية ، يقول له فيه : إن الناس يتهمون شلى بمعاشرة جين ، وإن مربية كانت فى خدمة شلى تذيع أن جين حملت منه فأجهضها فى نابولى حين كانت زوجه فى روما . وتنفيذاً لانتقامه بعث بيرون يستدعى شلى إلى رافنا «لأمور خطيرة» . فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل مما هاج ثائرة شلى وجعله يكتب إلى زوجه يطلب إليها أن تكذب ما تذيع خادمهم الخئون . وأظهر بيرون اقتناعه بما كتبت مارى وإن لم يقم بأى مجهود لدى القنصل فى البندقية يبدد به ما علق بذهنه من أكاذيب .

وزار شلى اللجرا فى الدير الذى بعث بها إليه أبوها ، فى بانيو كافالو ، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها . ومع نحولها بدت وسط الأطفال قريناتها فى جمال جذاب يدل على أنها أرق منهن وأرق منبتاً . غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحتها بل تعرض حياتها للخطر .

وكانت خليلة بيرون معتزمة السفر إلى سويسرا . فطلب بيرون إلى صديقه أن يكتب إليها ، ولو لم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب إلى فلورنسا أو إلى بيزا . وفاضت السعادة بشلى حين علم أنها قبلت الذهاب إلى بيزا للمقام على مقربة منهم . ولم يبد بيرون اعتراضاً أن كانت جين قد تركت تلك المدينه إلى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم فى إحدى مدارسها . ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التى يقيم فيها شلى حتى أبدت جمعيتها كل الإعجاب به ، فصار قصره مقصد المتأنقين فى حين بقى شلى الرسول الروحى لأهل المدينة جميعاً . وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يطقه شلى . فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام فى الصباح إلى ما بعد الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود إلى سهره ثم إلى مكتبه ليدبج قصائده التى استوقفت أنظار إنجلترا كلها فكانت تلتهمها التهاماً . وكان حقًّا على شلى أن يحتمل هذه الحياة زمناً كان يعتبر صاحبه فيه ضيفاً عليه فى بيزا . لكنه مالبث أن رأى مارى تريد الانخراط فى سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد إلى حياته البسيطة الأولى . ووجد فى أسرة إنجليزية مقيمة ببيزا مايسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته . تلك أسرة وليمز وزوجه جين . وكانت جين وليمز رشيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها أعصاب من يتصل بها . وكان صوتها حلو الغناء مما أتاح لشلى أن يذهب وهو معها فى أحلامه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء . وزاده إعجاباً بجين وليمز ما دأبت عليه مارى من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب المسرة فى الحياة ما يجد غيرها .

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الأشقياء يدعى ترلونى . وقد دعوه إلى بيزا ، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلى ، وبينه وبين بيرون بنوع خاص . فوعده وليمز بهذا ولم يكن عليه عسيراً . وجاء ترلونى فانضم إلى عصبتهم . ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلى برباط وثيق طلب إليه أن يبنى له ولوليمز يختاً يشتركان فيه ،

واختار لنفسه ولوليمز بيتاً على الشاطئ قريباً من بيزا فأقاما فيه ومعهما ماري وجين ، وجعل شلي من يخته مركباً لرياضته ولخيالاته وأحلامه ، وشعر بالسعادة تفيض عنه وبآلهة الشعر تواتيه بإلهامها من كل جانب .

والحق أن آلهة الشعر لم تضن على شلي بألهامها يوماً من الأيام . لكنها كانت فى هذه الفترة وخلال الأربع السنوات والنصف التى أقامها فى إيطاليا أشد بإلهامها فيضاً ، حتى ليدهش الإنسان حين يرجع إلى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكى كله ، ثم ليزداد دهشة إذا رجع إلى رسائله وإلى نثره فرآها لا تقل عن إلهامه الشعرى غزارة فيض ولا قوة عبارة ولا ملكاً لعالم الجمال وكل ما حوى . ولو أنك أردت أن تحصى ما كتب من شعر فى هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الألوف من الأبيات بل مئات الألوف ! وليس يقف ما كتب من هذا عند قصائده الكبرى كقصيدة (بروموتيه) و (سنسى) و (ساحرة الأطلس) و (إبيسشديون) و (قناع الفوضى) و (أدونابيس) و (هلاس) وغيرها وغيرها . بل إن له لمقطوعات يقر مترجموه جميعاً بأنها أبقى الشعر الإنسانى كله على الدهر . وهذه المقطوعات التى يتحدث بها مرة إلى قبرة ، وأخرى عن سحابة ، وغيرها عن شجرة حساسة ، وأخرى إلى النيل وعشرات ومئات غيرها ، هى لا ريب خير ما تغنى به شلي معبراً به عن صلته بمملكة الجمال فى الوجود . ولقد تغنى فى هذه المقطوعات كما تغنى فى مواضع كثيرة من قصائده الكبرى ، فخلع على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسبها له ، فإذا بك وقد قرأت شلي محساً بها لامساً إياها معترفاً بأنك أنت الذى كنت عاجزاً عن رؤيتها بحسك واكتناهها بقلبك . وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة فى الوجود . بل إن لنثره من هذه القوة ما لشعره ، وإن كانت موسيقى شعر شلي مما يزيد فى قوة خلقه حياة وقوة .

ولشعر شلي جوانب شتى لمح القارئ بعضها فيما قدمنا له من ترجمته . فثم جانب

من حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها. و(روح الوحدة) و(أبيسشديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هذا الجانب خير تعبير. تترنم القصيدة الأولى بيأس الشاعر وآلامه وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتمساً فى العدم راحة من آلامه ، واجداً فى خيالات الحب لهذه الأعرابية التى مرت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن إلى الموت سكونها الأخير. وقصيدته الثانية هى قصيدة الجمال والحب مجسمين فى إميليا فيفيانى . أما الكثير من مقطوعاته فيتضوع بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما على صورة لم تعرف فى شعر شلى . فلقد كان من عباد جمال المرأة والذين يجدون فيه تمثال الكمال الإنسانى مجسماً . وكأنما كان جسمه يصبو إلى هذه الأجسام التى تتمثل فيها الروح الإنسانية بكل نوازعها معنى الجمال الإنسانى . لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال فى خيال قسرته عليه فضيلته وألزمته إياه آراؤه ومبادئه . لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا إليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله ولخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهازيج الجمال . وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجدون فى صبوة الجسم إلى الجسم شفاء لغريزة تخليد النوع كل ما يسعى إليه الحب بل كل ما يحرك فى النفس هذه العاطفة . وهذا المعنى الذى تراه صريحاً جليًّا فى شعر شلى هو الذى كان ينتهى باليأس إلى نفوس كل من أحببنه من النسوة ، وبما يشبه اليأس إلى نفس مارى أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة . فالمرأة التى ترى فى فضيلة شلى معنى من معانى الرواقية والزهد فى الحياة والرغبة عنها تشعر بنقص فى الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتستزيد منها .

على أن جمال المرأة وإن زان كل جمال فى الوجود وتوجه فليس ما فى الوجود سواه من جمال أقل إلهاماً لنفس الشاعر وتحدثا إلى قلبه . بل إن كثيراً من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالاً وزينة بمقدار ما تزينه هى وتجمله . ولئن كنت ترى

هذين اللونين من الجمال مقترنين أكثر الأحايين فى نفس أكثر الشعراء ، إلا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلى تكاد تجعل الجمال لذاته آية إيمانه فى الحياة . وهو فى هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حسًّا . وهو لهذا كان يريد أن يفصل المرأة كمثال للجمال والمرأة كمخلدة للنوع وكان يبحث فيها عن الجمال فى مثله الأعلى ، وكان لذلك لا يرى لجمال الجسد قيمة مالم يصحبه روح جميل هو الآخر .

وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلى كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من أكثر قصائده . المدينة الفاضلة بما فيها من إخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة . المدينة الفاضلة المنزهة عن دنيا الشهوات ، السامية إلى مكانة هى وحدها الجديرة بالإنسانية المهذبة . و (الملكة ماب) و (بروموتيه) و (سنسى) نفسها اندفاعات صادقة فى الدعوة إلى هذه الغاية العليا وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب وعلى ما يؤدى إليه الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا فى الروح الإنسانية تحكماً ينتهى بها إلى فسادها وذلها . ولعل هذه الصورة التى صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحاً فى (سنسى) منها فى أية قصيدة أو رواية أخرى ، فقصة هذه الرواية التى وضعها الكثيرون من النقاد والكتاب فى صف روايات شكسبير ، أن الكونت سنسى بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتك بعفاف إبنته بياتريس . وشعرت الفتاة بالكريهة التى يريدها أبوها عليها فدبرت مع أخيها وزوج أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعاً . وإنما لجأوا إلى الائتمار بحياته بعد أن لجأوا إلى البابا وإلى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصفاً . وكشف الأب المؤامرة فشكاهم إلى قداسة البابا فأمر بإعدامهم وفاقاً لإرادة الكونت الذى اشترى من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بثمن زاد على مائة ألف من الجنيهات : ولو أن العدل أخذ مجراه فى هذه المؤامرة لكان (سنسى) هو الخليق بأن يجزى أشد الجزاء . لكن فى إعدامه إعداماً للأموال الطائلة التى كان

يغدقها على الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وإن كانوا أنصار الفضيلة ، ولتبق الجماعة على حياة الرذيلة مادامت تفيد منها . ثم لتثر الفضيلة على لسان شلى فى أشعار هذه الرواية الخالدة ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين .

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجمال المرأة ليكون مثالاً لها هو الذى كان يفرق بين شلى وبيرون ويجعل من كل واحد ند صاحبه . وطبيعى أن كان إقبال الجمهور يومئذ على شعر بيرون . فالجمهور أسير الشهوات يلتمسها فى واقع الحياة . ولئن صح إن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلبيرون أن يزهى على صاحبه وأن ينظر إليه مشفقاً عليه . لكنه كان فى الخيال كما كان فى الواقع يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجرى به خياله إلى لجج المستقبل يلتمسها فيتبين خلالها ما أعده لشلى من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعو الكثيرين لتفضيله عليه .

وكان حب شلى للجمال ودفاعه عن الحرية أثراً من آثار طيبة قلبه وحبه الناس وبره بأصدقائه . وقد عرف فى أثناء مقامه بكازامانى بالقرب من بيزا أن صديقه لى هنت فى عوز فدعاه إلى إيطاليا ، واتفق ولورد بيرون أن يصدر هنت جريدة فى إيطاليا يكون لها امتياز السبق إلى نشر قصائد بيرون . وفيما كان هنت فى طريقه إلى بلاد الشمس والضياء ، كان شلى سعيداً بيخته سعيداً بزورق صغير صنع له كى ينقله وصاحبه وليمز من اليخت إلى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت على الشاطئ . وكان كثيراً ما يستلقى فى أثناء رحلاته على الماء تاركاً السفين يلعب به الموج ذاهباً هو فى تيهاء تأملاته وأحلامه . فإذا عاد إلى داره التمس فى مجاوراته مكاناً منعزلاً بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقى الساحر ما يهبه للحياة وللحرية تارة ولزوجه مارى طوراً ولجين وليمز التى أصبحت ربة شعره فى هذه الفترة الأخيرة أكثر الأحايين . وكثيراً ما كان ينقضى النهار وهو فى عمله عند

جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتباً ، ناسياً فى أثناء ذلك طعامه وشرابه ، مكبًّا على خياله وشعره ، حتى لكانت زوجه وكان صاحبه ترلونى يذهبان إليه ينتشلانه من عالمه الجميل السعيد ويردانه إلى الحياة التى يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد .

ووصل لى هنت ، فذهب شلى وقابله فى ليفورنو ، ومن هناك ذهب به إلى بيرون فى بيزا ليتموا الاتفاق فى شأن الجريدة التى تحدث شلى لصاحبه الشاعر الكبير عنها . ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التقزز إلى نفس بيرون ، فقد ظل به شلى حتى انتهى بإلزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل أخلص للأدب وللشعر حياته . فلما آن له أن يرتحل عائداً إلى بيته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفرة مخوفة ، حتى لقد تردد ترلونى الذى قضى فوق لج البحر حياته فى أن ينصح لهما بالسفر . لكن شلى كان إذا اعتزم فعل . فاصطحب صديقه وليمز وغلاماً معهما وأقلعوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتهما زوجاهما فى ذلك اليوم الذى انقضى من غير أن تقفا لهما على خبر . وانقضى الثلاثاء والأربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما وذهبتا إلى ليفورنو باحثتين عنهما . وعلم ترلونى بحال الزوجتين فأيقن أن صاحبيه هلكا فى زورقهما . وأخذ نفسه بالبحث على شاطئ البحر ما بين ليفورنو وكازامانى حتى إذا كان الرابع عشر من أغسطس عثر الغائصون بجثة عبثت الأسماك بوجهها وإن لم تخف معالمه . وألفى ترلونى فى جيب الجاكتة كتاب إسكيلوس فلم تبق لديه ريبة فى أنها جثة شلى . ثم لم يطل بالغائصين البحث حتى عثروا بجثة وليمز . ودفنهما ترلونى فى الرمل ثم ذهب مكتئباً حزيناً إلى كازامانى . وحاول أن يدخل فخانته فواه فجعل يدور حول المنزل حتى لمحته خادم ، أخبرت سيدتيها بالأمر . فما لبثتا أن رأتاه حتى تبدد كل وهم من رجاء بقى عندهما وحتى انهدتا إلى الأرض صعقتين قضى عليهما الترمل والهم .

ولما أفاقتا ذكرت مارى ما كان يرجو زوجها أن يدفن فى مقابر الإنجليز بروما . لكن نقل الجثة من بيزا إلى روما غير جائز بحكم قانون البلاد إلا أن تحرق الجثة وتنقل بقية التراب منها . فنى ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، وقف لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى فوق رمال الشاطئ الإيطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف إلى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الإيطاليين ، وكلهم محدق ببصره إلى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الإنسانى ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول . وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعاً يهز نفوسهم هزًّا فلا يزدادون إزاءه إلا وجوماً وذهولاً ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه . ويحدق ترلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم تبدأ النار بعد ذلك تخبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الإنجليزى شلى . ويحمل ترلونى الحفنة إلى الأرملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هو ولى هنت معها حملها إلى مقابر البروتستانت فى روماكى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها إلى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات ابنه وليم . ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية إلى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ إلى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره وإن كان قد خلف من شعره على الحياة مالا يزال فخر الشعر الإنجليزى عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان على المرء حسه ولبه وتبعثان إلى كل ما تنشدانه وترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما تنشدانه وتترنمان به إنساناً أو طيراً أو حيواناً أو جماداً أو مجرد خيال لا وجود فى الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل مالامس نفس شلى لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت باعثها .

فهرس

صفحة

[صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى ديسمبر ١٩٢٩ وسيليها إنشاء الله الجزء الثانى من التراجم التى نشرها الدكتور هيكل بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب].

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٠٠٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٧-٣-٥

ق/٧٧/٢٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب نوعين من التراجم :

أولهما تراجم مصرية لرجال هذا العصر الأخير منذ ولاية الخديـو إسماعيل الحكم ، ممن أثروا فى مسيرة السياسة المصرية . . والمجتمع المصرى على السواء .

أما ثانيهما فيتناول تراجم لرجال من كبار الأدباء والفنانين فى الغرب . . فصور حياتهم وفنهم تصويراً ممتعاً دقيقاً . .

ودار المعارف تصدر هذا الكتاب تحية منها فى ذكرى رائد من رواد الفكر المصرى .